مقاصد العقيدة الإسلامية

الهادي / بريك ألمانيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

مقاصد العقيدة الإسلامية

اللّٰهُمَّ اجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم ولا تجعل لنفسي فيه مثقال حبة من خردل من حظ .

اللّٰهُمَّ أرزقني فيه الحكمة وفصل الخطاب وسدد مني فيه الجنان والقلم والبنان فأرشد .

اللّٰهُمَّ إجعله لي ذخرا يوم تزل مني قدم بما كسبت ويكبت لسان بما صد ويلجم جنان بما أعرض .

اللّٰهُمَّ إن أصبت منه خيرا فرده على والدي بما عققتهما طويلا ثم حال الطغيان دوني ودون برهما بما يرضيك وعلى كل من علمني يوما حرفا أو بث في روعي حكمة هم كثر لا أحصيهم ولا أملك لهم ثناء وإن أصابني منه غير ذلك فأجعل بما تعلم مني في هذا الان شره مغفورا .

مقدمة عامة :

قرأت يوما للدكتور أحمد الريسوني الباحث المقاصدي المغربي المعروف كلمة ظلت تداعب أملي وتثير ألمي مفادها أنه يدعو إلى الاهتمام بمقاصد العقيدة الاسلامية بمثل ما لقيته الشريعة الاسلامية من إهتمام في مستوى توليد مقاصدها وإستنباطها من مظانها . نداء إستبد بسويداء قلبي وباشر شغاف مهجتي وجعلني له أسيرا مأسورا فطفقت أحكم توجيه بوصلة إهتمامي القديم بمباحث الاصول عقيدة وفقها والمقاصد وسائر العلوم الشرعية على نحو يقربني من شطآن ذلك الحلم ثم عزمت وتوكلت وشمرت ولزمت القرآن الكريم وعلومه بما تيسر لي مراجعة لما كسبت وتجديدا لفهم وبحثا لا يني وتنقيبا لا تأخذه سنة بله نوم فكانت هذه الكلمات التي أصحب بها الاخوة الكرام في الموقع الالكتروني " الحوار نت " على مدى شهور قادمة بإذنه سبحانه .

إستعنت بالله سبحانه على تلك الكلمات من خلال مزيد من توطيد العلاقة مع مؤلفات الامام القرضاوي والمرحوم الشيخ الغزالي والدكتور عبد المجيد النجار والدكتور أحمد الريسوني والامام إبن عاشور والدكتورالحبنكة وغيرهم كثير .

لك أن تسميها مقاصد العقيدة الاسلامية لو غلبت النظرة الاصولية فيها أو مكارم ومحاسن العقيدة الاسلامية لو غلبت الجانب التحسيني بما يخلعه من زينة على دين لولاه لم يكن الانسان شيئا مذكورا أو منافع العقيدة الاسلامية ومصالحها لو غلبت علة تعبدنا منه سبحانه بعقيدة وسطية كريمة تعمل على تحريرنا من سائر العبوديات وأولها ذلك النداء المستتر في رحم كل واحد منا وقد أكرمنا المولى الكريم بعدم العصمة أفرادا لا أمة أو أجزاء من أمة ... ينادي كما يقول الغزالي الاول عليهم جميعا رحمة الله سبحانه " أنا ربكم الاعلى ".

رجائي من كل قارئ كريم عدم الضن علي بما يساعدني على تجنبه من سوء أما سادتي العلماء والفقهاء فلهم أن يعاملوا المحاولة بكل ما يليق بمقاماتهم حيال طالب علم لئن ضن عليه الدهر يوما بما رتبت أقدار ولي النعمة سبحانه أو بما كسبت يداه من فقه عميق دقيق يسبر الاغوار فيجني شهد الرخصة المحبوبة من لج العزيمة المضرة كما شهد بذلك سيد العلماء خير من نهل من حجر إمام الفقهاء محمد عليه السلام ... فإن ولعه بالعلم شغب عليه شغوبا فأورى في الفؤاد سعرا رامضة فلا هي تنطفئ ولا هو يرد ماء زلالا يعب منه عب من كلمته دابرات ليال عجاف .

رسالة البحث :

هل العقيدة الاسلامية بسائر المعاني الخاصة والعامة التي ترتسم في ذهن الناس معللة مقصدة مفهومة معقولة على نحو يسمح بإستنباط حكمتها وتتبع أثرها وقراءة منافعها ومقارنتها مع مفاسد أضدادها أو أغيارها وبسط محاسنها ومكارمها ومجاملها ومزاياها وزيناتها ؟ وإذا لم تكن كذلك فهل هي المسؤولة عن حالنا الراهن الذي لو إجتهد أقوانا حجة وألحننا بيانا وأخلصنا جنانا ما كان له سوى أن يتوقف عند شروخ كبيرة جلية في ذلك الحال لا ينكرها عاقل ولا تعدمها باصرة ؟ لامناص لنا من الاقرار بأحد أمرين : إما أن تكون العقيدة غير صالحة لزماننا ولو جزئيا وإما أن يكون تحملنا لها غير صالح ولو جزئيا أما أن ينتفي هذا وذاك معا فذاك سلوك النعامة .

خطة البحث :

١ ـ محور العقيدة : نسبتها إلى العلم و شروطها أو خصائصها ومختلف معانيها والاخلال المتعلقة بطريقة تحملها .

٢ ـ محور المقاصد : المعنى وأمثلتها في القرآن والسنة وتاريخها وأقسامها كل ذلك في خلاصات مركزة سريعة .

٣ ـ محور منهج الكشف عن المقاصد : تلخيص سريع لمختلف جوانب ذلك المنهج سيما عند الامامين الشاطبي وإبن عاشور وفق بحثي الدكتور النجار والريسوني .

٤ ـ محور المنهج العقدي القرآني : جهد خاص تتبعت فيه أسلوب القرآن الكريم في أثناء عرضه للحقائق الكونية الكبرى ووزعت ذلك على مجموعة من الاحالات ترد بحسب ثقلها في القرآن .

٥ ـ محور تعليل العقيدة : طرحت سؤالا : هل العقيدة جملة وتفصيلا بمعناها الخاص خاصة معللة أي خاضعة للمنهج التعليلي الاصولي المعروف في أصول الفقه ومقاصد الشريعة وإذا كان ذلك كذلك فإلى أي مدى وبأي حجم وموطن ولم أو تعليل التعليل و تعليل نفي التعليل .

٦ ـ محور الكشف عن مقاصد العقيدة : أو مقدمات وشروط الاجتهاد المقاصدي .

٧ ـ محور مقاصد العقيدة : المقصد من الكشف عن المقصد ومباحث أخرى لصيقة تندرج ضمن الانتهاء إلى خلاصة البحث وتعيين مقاصد العقيدة وتقسيمها مع إعتماد محدود لمنهج المقارنة وخاصة الواقعية منها .

هذه الكلمات مخطوطة بأناملي منذ خمس سنوات كاملة لم يتسن لي تحميلها على هذه الالة سوى اليوم عندما أذنت أقدار ربك سبحانه ولكل أجل كتاب ولكل كتاب أجل .

المحور الاول : العقيدة الاسلامية

المقدمة الاولى : العلم : أفلاك بثه ومحطات إستقباله ومناطات أدلته

الحديث عن العلم مناسب هنا وضروري بحكم أمرين أولهما أن علاقة العلم بالدليل مطلقا علاقة طردية عضوية لا تنفك عراها تمييزا للحقائق العلمية عن الظنون ولو غلبت فضلا عن الاوهام وثانيهما أن موضوع البحث وطيد العلاقة بالعلم .

العلم بالشئ لئن إتحد في ملكة الادراك والمعرفة بما يكيف السلوك الانساني فكرا وعملا على ضوئه فإنه يختلف من حيث الادوات والوسائل المساعدة على كسبه وذلك على أساس أن العلم بالماديات يكون عبر الحس عادة من سمع وبصر ولمس وشم وتذوق باللسان وذلك بإعتبار أن كل مجال من مجالات العلم لا يناسبه سوى مدركاته من ذات الجنس فالمادة بالمادة مثلا أما العلم بالعقليات فيكون عبر ما سماه القرآن الكريم فؤادا وقلبا وعقلا وكثرة تلك التسميات فيما ورد هنا وغيرها كثير عادة ما تشترك في مسمى واحد قد تتعدد أحيانا وجوه تجلياته ولكن روحه واحدة ومجال المعقولات كما ترى مقابل لمجال الماديات والمحسوسات لو نظرت إليه بشكل مجرد مجزإ ولكنهما يتكاملان في الوجود والحياة سيما عند الانسان مزدوج التكوين بين جسم محسوس وعقل يدرك بالاثر ولا يرى . أما العلم بالتاريخ الماضي فيكون عبر المرويات وتسمى السمعيات لانها عادة سيما في الاعصار الماضية ترد على الناس من طريق الاسماع لا الابصار . أما العلم بالغيب المحض فيكون عبر الاخبار المعزز بدلائل من التاريخ مثلا أو المادة أو العقل .

فالعلم إذن لابد له من خبر قاهر أو عيان ظاهر كما قال السابقون ودون ذلك عادة ما لا يستدل العاقل بما تنصدع جوانب أركانه عند أول تمحيص .
مجالات العلم المذكورة أعلاه هي كل مجالات الادراك الانساني الذي يعلم الشئ إما عبر حسه في مجال الماديات أو عبر عقله في مجال المعقولات أو عبر الخبر والرواية في مجال المرويات والاخبار والسمعيات عامة ولك أن تلاحظ معي هنا أن السمعيات مطلقا خاصة وعامة أو مادية ومعنوية فما كان منها خاصا وماديا يتعلق بعالم الماديات الذي يستدل بها السامع على حدوث صوت مسموع مثلا وما كان منها عاما ومعنويا يتعلق بعالم المرويات والاخبار مما يرد على حاسة السمع عند الانسان والمقصود به هنا ليس مجرد حدوث صوت المحدث ولكن المقصود به تحري صدق ذلك المحدث والبحث عن مختلف المعززات التي تساند أو تخطئ قوله . وهو أمر خاص بالسمع لا بالبصر ولا بسائر أدوات الحس المركبة في الانسان ومعلوم أن السمع دوما مقدم في القرآن الكريم أداة للعلم على البصر ومن باب أولى وأحرى عن غيره لان السمع قناة يمكن تتبع منابعها وتحري آثارها في الماضي البعيد بخلاف البصر وأدوات الحس

الاخرى قصيرة المدى . فمسؤولية السمع إذن مقدمة على مسؤولية البصر وسائر الحواس الاخرى . وإما أن يعلم الانسان الشئ عبر الخبر في المستوى الثالث بعد الحس والعقل ولك أن تلاحظ مرة أخرى بأن مجال الخبر يشترك فيه السمع حسا مع العقل ملكة فطرية غير محسوسة المادة ولكن محسوسة الاثر بخلاف مجال الماديات والحسيات فإن العقل يكون دوره هناك أقل نصيبا إذ يشترك فيه هناك الصبي غير المميز بل أحيانا الوليد الرضيع مع من بلغ الرشد وشأو النضج.

فالانسان إذن منفتح على محيطه الوالي له أو البعيد عبر ثلاث محطات إستقبال هي الحس للماديات والعقل للمعقولات والسمع والعقل معا للمرويات ذلك أن الانسان إما أن يرد عليه خبر من الماضي أو خبر من الحاضر عبر سمعه أو بصره أو سائر أدواته الحسية البدنية المعروفة أو خبر يصنعه العقل أو يلتقطه ليعالجه ويتخذ منه موقفا مناسبا .

لن نتناول هنا كيفية تلقي الانسان للغيب المحض الذي لا يتسع له لا عقله إنشاء إبتدائيا صحيحا صريحا فضلا عمن دونه حظا من مثل الحواس المادية المعروفة وذلك لامرين أولهما أن الغيب المحض لابد فيه من مجال المرويات التي يشترك فيها السمع المادي مع العقل الموازن المتحري دون الحس المادي مطلقا وثانيهما لان ذلك له مجال قادم هنا بإذنه سبحانه .

تلك هي مجالات العلم من لدن الانسان بالاشياء والامور لها في الخارج دوائرها المتناسبة مع محطات الاستقبال البشرية الثلاث مع التشديد كله على أن كل تقحم من مجال لاخر أو لاداة على غير مجال عملها وحقل فعلها هو تهلكة حقيقة . تهلكة يدركها العقل الذي يأبى على قارب شراعي السير في البر لعدم إمتلاكه الادوات السننية والسببية السانحة بذلك . لابد من التشديد كله بأن كل مجال للعلم من قبل الانسان المؤهل للعلم له أدواته الخاصة به إلا إذا إقتضت ضرورة للتعاون والاشتراك أما أن يقحم بالحس المادي مثلا لمعرفة المرويات أو لادراك المعقولات فهو كمن يرسل فأرا يصطاد به ثعبانا .

ولا يخفى عليك هنا أن مجالات العلم في الخارج وما يناسبها من محطات إستقبال ثلاث في داخل الانسان شديدة التناسب كذلك مع الابعاد المكونة للجهاز الانساني فالعقل والقلب والروح وثلاثتها لئن تميزت فهي من سلالة واحدة أو مشتركة محطة لاستقبال البث من مجال المعقولات أما السمع حسا والفؤاد ملكة فطرية فهما محطة لاستقبال بث المرويات والنقليات أما الحواس العضوية المادية والسمع واحد منها فهي

محطة لاستقبال بث الماديات والمحسوسات . ألا ينبئك بقوة وعظمة الانسجام في الخلق الكوني ؟ ثم ألا يزجر المتهافتين عن محاولة إلتقاط بث بمحطة إستقبال غير معدة لذلك ولا مهيأة له أصلا ؟

الدليل مناط كل عملية علمية :

العقل مناط التكليف معناها أنه لا تكليف على غير عاقل وأن العاقل مؤهل للتكليف فهما مرتبطان. ذكرت ذلك ليتيسر فقه قولنا " الدليل مناط العلم " . فلا دعوى علم في أي مجال كان من الماديات أو المعقولات أو المرويات بدون دليل . سوى أن أدلة كل مجال تكتسب طبيعتها من المجال الذي تنتمي إليه وذلك هو معنى قوله " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " أو " سنة الله في الذين خلوا من قبل " أو " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ". كما يستدل العاقل على الفجر بإنفلاق نوره الذي رآه بعينه وأدركه بعقله يستدل ذات العاقل على صحة رواية ما بصحة سندها ومعقولية متنها وعلى وجود أو عدم شئ معقول غير ملموس بمدى مطابقة لعالم الفطرة الذي يتفيؤ هو ظلاله ولدنيا الاسباب والسنن التي ألفها وعرفها بالتجربة . وبناء على علاقة الدليل بمدلوله أي بالشئ المعلوم أو الامر المدرك فإن الدليل بعد كونه من جنس مجاله وحقل عمله يتميز بقوة البرهان ولا يضير تلك القوة أن تكون محسوسة تلدغ يسيرة

الادراك أو معقولة تفرض نفسها بسلامة منطقها حتى قال الناس "المعلوم بالبرهان كالمعلوم بالعيان ".

وبقدر قوة وأثر المدلول على حياة الانسان وتحديد مصيره يجب أن يكون الدليل عليه في ذات المستوى جزاء وفاقا وذلك من مثل أن الله سبحانه تعبدنا بالتوحيد عبر البرهان القاطع الساطع الذي إحتشدت حوله كل المؤثرات الفطرية والسمعية والعقلية والنقلية والمادية ولكنه تعبدنا في ما دون ذلك بمجرد الظن ولو دون غلبة أحيانا من مثل تحري القبلة والطهارة وسائر المكيلات والموزونات حتى أن من أخطأ بحسن نية لا يعيد صلاته مثلا في بعض الاقوال . ذلك مجرد مثل موضح لقيمة وأثر علاقة الدال بالمدلول .

الدليل إذن هو مناط العلم يدور معه دوران العلة مع حكمها وجودا وعدما فالدليل هنا علة لازمة لمعلولها وهو حصول العلم وقوة المدلول أثرا في حياة الانسان تتناسب أبدا مع قوة دليلها ذلك هو ما جنته العقول وعزره الوحي .

مصادر العلم هل تحتمل الالهام ؟:

مصادر العلم أو العرفان عند الانسان هي كما أسلفنا خبر قاهر أو عيان ظاهر بحسب التعبير الماضي وهي العقل والتجربة حصرا وقصرا عند آخرين ممن قصروا العقل على مجال التحليل دون التعليل فقالوا ظاهرا بحريته ولكنهم حقيقة سجنوه وعضلوه عن المضي في رحلته المطالبة بعلم علة الوجود الاولى على وجه عقلي منطقي لا حجر فيه وهي ذلك عند آخرين ومعه الالهام حتى أن الدكتور الجابري وهو من هو رمزية في الفلسفة العربية المعاصرة قال بأن الثقافة العربية ـ أي الاسلامية ـ نهلت من مصدر واحد من مصادر العرفان الثلاث : البيان والبرهان والالهام وهو ظلم ظاهر من لدنه إذ لم تقع عينه سويعلى من حبسوا أنفسهم مناعلى الاعجاز البياني أو من ناقضوا البرهان أو تلبسوا بالالهام وهؤلاء كلهم حتى في أحلك عصور الانحطاط ليسوا سوى رقما في ثوب أو موضع إبهام في ثور .

الالهام لم يكن يوما مصدرا من مصادر المعرفة البشرية المعتد بها في دين أو في دنيا إلا في حالات خاصة جدا من مثل النبوات بل حتى في النبوات ليست هي الاغلب لافتراقها عن ظاهرة الوحي وميزة العصمة وإذا كان العلم بالالهام قد عمر يوما فينا فلا حجة له على قواطع البرهان العقلي عماد الوحي السماوي المتسامية عن المدركات الحسية وما يخترم النقليات المروية رغم تسامي تلك جميعها عن ترهات الالهام .

الحلقة الثانية :

العقيدة الاسلامية بين وضوح المعالم وسوء التحمل

العقيدة الاسلامية مصطلح حادث لم تشهده المرحلة النبوية ولا الراشدية ومن قبل ذلك لم يستخدمه القرآن الكريم ولو مرة واحدة لتحميل المعنى المثبت في أذهان الناس إذ إستعاض بذلك دوما بمصطلح الايمان وبالرغم من إستخدامه لجذر المصطلح في تصريفات محدودة من مثل العقود والتعقيد والمعاقدة فإن ذلك الاستخدام ظل دوما يتحدث عن مجالات العمل المشترك بين الناس حاضا على الوفاء بالعقود وعلى الوفاء بمعاقد الايمان ـ بتسكين الياء ـ وعلى تحرير الرقيق. وظل الخطاب القرآني في سائر مراحله دوما دون أدنى إنقطاع يلتزم بمصطلح الايمان. السنة بأسرها كذلك نهجت ذات النهج بالكلية ولم يؤثر على أحد إستحداث المصطلح حتى وضعت حروب الفتنة الكبرى أوزارها وأشاعت بعض مخلفات أوضارها وشهد المجتمع الاسلامي لاول مرة لاسباب لا نعدو وراءها الان ظهور الفرق الاسلامية وبروز علم الكلام آلة للدفاع عن الاسلام سواء في وجه لقاح فكري ثقافي إقتضته حركة الفتوحات وإندياح

الدعوة الاسلامية في أعماق شعوب وقبائل شرقية وغربية متشبعة بفلسفاتها وعقائدها وعاداتها وتقاليدها كما إقتضته حركة تدافع بين سائر الاديان والمذاهب أو في وجه حركة داخلية تراوحت بين الايغال في التأويل طلبا لتنزيه الله سبحانه وبين الايغال في الظاهرية طلبا لذات المقصد . وفي ذلك المناخ الفكري النشيط المتفاعل مع إستحقاقات الوضع الجديد الذي خلفته الفتنة الكبرى وتداعياتها في الداخل والخارج ظهر مصطلح العقيدة تعبيرا عن الايمان سيما بمعناه الضيق الخاص أو بمعناه الدراسي التعليمي الذي تقتضيه الضرورات البيداغوجية وكان لابد منه لمقابلة وافد بذات مصطلحاته أو لتحرير الخلاف بين تلك الفرق في الداخل وبينها وبين الخارج وحصره في المعنى الخاص الضيق للايمان في إشارة إلى أن الخلاف فرعي إجتهادي لا يطال الاسلام بأسره فضلا عن أصول العقيدة . وعلى أية حال ساد المصطلح الجديد وهيمن وظل كذلك حتى يومنا هذا بحكم أنه لم تحدث بعد ذلك نهضة قوية شاملة عامة على منهاج الخلافة الراشدة وذلك لو أردنا التبسيط ليتيسر الفهم بمثابة قوم أعيتهم خصوماتهم فهرعوا إلى خيامهم ينشدون الراحة فتوفاهم ربهم سبحانه فلما شب خلفهم أو جاء من بعدهم بصورة من الصور ألفى مشاهد ومواقف ومعالم تحمل أسماءها فحرصوا على تلك المعالم بأسمائها دون تغيير ولا تبديل وظل خلفهم على ذلك . ومما يجعل المصطلح الجديد يحظى بالقبول قديما وحديثا مناسبة إطلاقه على معاقد الايمان الثابتة اليقينية العظمى التي صرح بها القرآن بالنص في مواضع قليلة جدا ونهجت السنة الصحيحة ذات النهج فالمصطلح إذن إما أن يكون من المبتدعات الحسنة أو من السنن الحسنة كلما كان ملتزما بالمنهج الاسلامي العام أو كان لا يتعدى الخلط في المستوى العلمي الشرعي بين مشمولات الايمان ومشمولات العمل في قضايا التكفير وحرية التفكير أو كان لا ينحو منحى علمانيا لائكيا بقصر الاسلام بأسره عليه وفصله عن الحياة وشؤون الناس .

لم أعرض القرآن الكريم وكذا السنة النبوية بالكامل عن المصطلح لصالح الايمان ؟:

أولا لان كلمة الايمان لغة أيسر في الدلالة على العموم والشمول من كلمة العقيدة وثانيا لان الايمان يقتضي الاعتقاد تصديقا والتصريح قولا والاخلاص عملا في حين أن العقد أنسب إلى ميثاق بين طرفين أو أكثر المهم فيه الوفاء بمقتضياته وثالثا لان الاسلام مفارق لما سبقه من أديان تقتصر على العقيدة بمفهومها القلبي الداخلي الباطني لا أثر لها في الحياة تشريعا فضلا عن إخلاص وعمل ومشاركة ... لكل ذلك ولغيره مما لا يتسع له المجال هنا كانت كلمة الايمان أليق بالاسلام وأرحب لاحتضان عقائدة وعباداته وأخلاقه وتشريعاته بكل عمومها وشمولها وثباتها ومرونتها .

تجد مصداقا لذلك مثلا في ا لقرآن الكريم حيث أنه لم يعدد أركان الايمان الستة المذكورة في الحديث الشريف الصحيح ولو مرة واحدة أما الاركان الخمسة أي دون القضاء والقدر الوارد نصا في السنة الصحيحة فلم يعددها متتالية في آية واحدة سوى مرات قليلة جدا لا تتسع حتى لعدد أصابع اليد الواحدة بينما عدد طويلا وكثيرا كلمات الايمان ومشتقاتها مرة على وجه الايمان والعمل الصالح ومرة على وجه الايمان بالله واليوم الاخر ومرة على وجه الايمان بالله والرسول أو الرسل عليهم السلام جميعا والحقيقة أنه حتى السنة التي ذكرت الاركان الستة في أحاديث صحيحة لم تعدد ذلك سوى بذات ما لا يتسع لاصابع اليد الواحدة .

البديل الذي إعتمده الخطاب القرآني والنبوي في الاستعاضة عن كلمة العقيدة من جهة وعن تعداد أركان الايمان من جهة أخرى هو : التركيز على أثار الايمان العملية سواء كانت صبرا وشكرا وشمائل قلبية محمودة أو مذمومة أو كانت عمل جوارح من عبادات معروفة وفروع عنها كالانفاق والجهاد والدعوة والاعتصام وغير ذلك كثير لا يحصى .

إن حسن فهم هذا الامر يهيئ لنا جميعا حسن الايلولة إلى فقه مقاصد العقيدة وهو أن الخطاب الاسلامي عامة من قرآن وسنة لم يكتف بالاعراض عن كلمة العقيدة لصالح كلمة الايمان بل ركز كليا على ما يحدثه ذلك الايمان من آثار عملية سواء قلبية أو مادية فلم يتعرض مثلا لتعريف الايمان ولو مرة واحدة وهو منهج لا قبل للناس به من قبل ولا من بعد .

إن حسن فهم هذا الامر مفض بنا بإذنه سبحانه إلى حسن إلتقاط مقاصد العقيدة .

قد تسأل ولم لم يتعرض القرآن الكريم لعقيدة القضاء والقدر بالذكر بمثل ما فعلت السنة ؟ الحقيقة أن القرآن الكريم تعرض لتلك العقيدة أو لذلك الركن من الايمان كثيرا جدا ولكن ليس على وجه الذكر بل على وجه البث في ثنايا القصة والمثل والاحالة على مشاهد الكون ومواقف النفس في مختلف إنفعالاتها إذ تكاد لا تعثر على محور واحد من تلك المحاور ولا على مشهد واحد من مشاهدها خالية من التعقيب في الاثناء أو في العقب وأحيانا في الفتح بقضية القضاء والقدر رضى مآله الرضوان أو سخطا مضجعه الهوان . وقد تسأل لم إعتمد القرآن ذلك المنهج ؟ وقد تجاب بأن عقيدة القضاء والقدر عادة ما يحياها قلب أو تعيش على نبضاتها نفس فكان من المناسب إذن التذكير بلمساتها الحانية أو سخطاتها

القارعة في أثناء معالجة تلك النفس سردا لقصة أو لمثال إذ أن مجرد ذكرها فقرة أو ركنا من الاركان قد لا يحدث الاثر النفسي المطلوب وربما لسبب آخرإلتزمه المنهج النبوي متمثلا في كونه لم يشغل الناس بقضية القضاء والقدر ولا بقضايا الاركان ركنا ركنا في تعريفات تجريدية ولا تحديدات منطقية ولا تشقيقات لفظية وإنما إنخرط في حياتهم العملية بيسر يعلمهم كلما حان وقت الابانة ملحة هنا وطرفة هناك وبذا تنصلح الحياة رويدا رويدا دون الوقوع في مطبات التجريدات فضلا عن الخلافات العقدية المؤذنة بخراب العمران . ولك أن توطد العلاقة بين الامرين حتى تلفى أن المنهج الاسلامي العقدي منهج عملي عماده فكرة بسيطة ثابتة واضحة عملها هو شغل الناس بالعمل ومن العمل عمارة القلب بالرضى.

الامران هما : نهج الخطاب القرآني حيال أركان الايمان نهج التركيز على الثمار العملية كما نهج حيال ركن القضاء والقدر نهج البث في ثنايا الخطاب وخاصة قصة ومثلا وتربية .

للعقيدة إذن معنيان :

معناها الخاص هو أركانها الخمسة أو الستة منظورا إليها أصولا وفروعا وتأويلات مختلفة وتحليلات في معانيها ولكن دوما ضمن دائرتها الخاصة وهو المعنى الذي يتناوله عادة كل من يتصدى لمهام التعليم والدراسة والمقارنة والحوار .

معناها العام هو توسيع مدلولها بسائر أركانها لتشمل الحياة البشرية بكاملها في سائر دروبها .

المعنيان يتكاملان و لا يتقابلان فضلا عن تعارضهما ولكن تدعو الحاجة إلى التركيز على هذا المعنى أو ذاك سياقات العمل ومتغيراته وأكبر منطقة إشتراك بينهما هي أن قصر العقيدة على الاركان المعروفة دون تعدية آثارها العملية في حياة الناس أمر مرفوض إسلاميا وأن تنقية مدلولاتها العامة في سائر مناحي الحياة الانسانية من تلك الاركان الاصلية الثابتة ذكرا بالنص على وجه الاعتقاد والتصديق بها وتوخيا لسائر مقتضياتها بقدر المستطاع هو كذلك أمر مرفوض إسلاميا .

للعقيدة أيضا مصدران أحيانا وتلك هي المشكلة :

مصدر أصيل صحيح ثابت قح ثر من إلتزمه بحسن فهم وإخلاص مصيب خيرا في حياته بقدر إلتزامه وهو مصدر القرآن والسنة نصا ومنهجا ومقصدا في الان ذاته وبتوازن بين تلك الابعاد الثلاث لحسن الفهم وحسن التنزيل وهو الالتزام المصدري الذي عمل به الجيل القرآني الفريد في عهده عليه السلام ثم في عهود خير القرون الاولى ففتحوا القلوب ومشارق الارض ومغاربها ونبغوا في العلوم الكونية وكانوا بحق شهداء على الناس في عهدهم شهادة قوامها العلم والقوة والحق .

مصدر نابت على تخوم المصدر الاصلي يتغذى من الافهام والاجتهادات والتطبيقات من لدن هذا الجيل أو ذلك العالم أو تلك المدرسة أكثر من تغذيه من ثلاثية النص والمنهج والمقصد وهو المصدر التراثي الذي لا يعكس مهما أحسن الاجتهاد والفهم والتنزيل سوى شخصيته التي لا يتمحض الدين كائنا ما كانت قوة التدين لوحده بتشكيلها بعيدا عن ظروف الزمان والمكان . فإذا كان الاجتهاد التراثي من لدن غير المعصومين في سائر أنحاء الشريعة العملية محل تصويب وتخطئة فكيف يكون حال من جاء بعدهم حيالهم إزاء تحمل العقيدة التي هي أبعد من الشريعة العملية عن الاجتهاد وخاصة في أصولها الثابتة .

العقيدة أصول وفروع :

العقيدة هي التصور الفكري الذي أخبرنا عنه سبحانه طالبا منا الايمان به فيما يتعلق بالقضايا الكبرى من مثل الحياة والوجود والانسان والالوهية والموت والجزاء وهي عقيدة تقوم عليأركان ثابتة يقينية ذكرها الاسلام ذكرا بالنص الصحيح الصريح وإنساب كثيرا في تحديد مدلولاتها ومجالات عملها وحقول فعلها .

أصول تلك العقيدة هي الاركان الستة المعروفة وتلك الاصول الثابتة اليقينية هي المحددة لقضية الكفر والايمان وبالتالي الجنة والنار وعن كل أصل من أصولها الستة تتفرع فروع كثيرة منها أشار إليها الخطاب الاسلامي بمختلف مستويات تلك الاشارة صحة ودقة وضعف سند وإشتراك متن . وتلك الفروع هي التي كانت في الغالب محل إجتهادات وإختلافات من سائر الفرق الاسلامية قديما وحديثا بناء على ظاهر من القرآن الكريم يرفعه بعضهم إلى منزلة النص أو على حديث صح عند هؤلاء ولم يكن كذلك عند أولئك أو على تقليد لاجتهاد سالف غلب على مر العصور فأضحى مكونا أساسيا لطائفة معينة . الاكيد أن تلك الحركية قديما وحديثا أثرت الفكر الاسلامي العقدي كثيرا وكانت في الغالب منسجمة مع فكرة الاسلام عن التعدد والتنوع وحق الاختلاف في محاله ومن أهله سوى أن ذلك الثراء كان يوما خادما

لثوابت الجماعة يوم كانت الجماعة قوية مهابة ذات سلطان وصولجان في حين كان ذات الثراء عامل تمزق وتقطع أوصال وتشرذم يوم كانت ذات الجماعة ضعيفة مستضعفة لا سلطان لها وصولجانها مغتصب . أظن أن المجال لا يسمح بالتفصيل في فروع العقيدة وهي مبسوطة في مظانها في أكثر من مرجع .

التوحيد هو مخ العقيدة :

ربما يكون بناء العقيدة ضمن هيكل متكامل أو كيان مرسوم أدعى لفهم مستوياتها ولو فعلنا ذلك لالفينا أن العقيدة كيان صورته الاركان الستة وروحه الاثر الحي الحادث في مختلف جوانب الحياة البشرية بدء من القلب وإنتهاء بأدق أو أصغر عمل يقوم به إنسان مغمور في فلاة لا يراه فيها أحد . لو رجعنا لصورة ذلك الكيان لالفينا له رأسا مدبرا وموجها وحاكما وهو التوحيد أي توحيد الله سبحانه وذلك لان مرجع تلك الاركان وتلك العقيدة هو شهادة التوحيد التي تبدأ بنفي الالوهية عن كل أحد وتثبتها لله الواحد الاحد سبحانه . ربما نتوسع في ذلك عند الحديث عن خصائص العقيدة أو شروط التفكير العقدي سيما عند خصيصة التوحيد . كما أن المسوغ الثاني بعد كون العقيدة بأركانها مرجعها إلى شهادة التوحيد مفتاح الاسلام هو كون الاسلام في طبعته الاخراجية الاخيرة للناس على يد محمد عليه السلام لا يفترق مع الديانتين اللتين سبقتاه أي النصرانية واليهودية بما سيظلان من بعد ذلك حتى يوم القيامة ربما ينافسانه على قيادة العالم وكذلك مع الاديان والفلسفات التي إستحدثها البشر ودانوا لها ديانة ... كأكبر ما يكون الافتراق والاختلاف والتميزفي مسألة الذات الالهية بين التوحيد وبين التعدد من تثليث نصراني وشئ قريب منه عند اليهود المؤلهين لعزير وإلحاد بالجملة وشتى تصورات إلهية كثيرة لا تحصى مجانبة كلها لعقيدة التوحيد الصافي النقي المنزة عن كل شريك ونظير ومثيل " ليس كمثله شئ ".

بلى كان الافتراق على أشده بين الاسلام وبين سائر الديانات والافكار التي لبست لبوسها فكان لابد له أن تكون عقيدته كيانا يتكون من أركان يحكمها رأس واحد ويغذيها أصل واحد وهو توحيد الله سبحانه . وذلك لان الاديان تلتقي حول مبدإ النبوة والكتاب والوحي والبعث والجزاء ولو بتصرفات كثيرة ولكن مبدأ تلك العقائد الركنية واحد من لدن آدم حتى محمد عليهم السلام جميعا . والاسباب كثيرة لكون التوحيد وليس غيره من الاركان هو مخ العقيدة التي هي مخ الاسلام الذي هو مخ الحياة التي هو مخ الوجود السفلي كما يقولون الذي هو محل الاختبار والامتحان وموضع الجزاء يوم الدين وموطن التخليد بعد ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير ... من تلك الاسباب أن عقيدة التوحيد هي المسؤولة عن تغذية

بقية الاركان بماء الحياة وهي المسؤولة عن تغذية حياة الانسان فوق الارض بذات ماء الحياة إذ لو لم يعتقد المخلوق في وحدانية خالقه ومالكه بسائر صفات الوحدانية من قوة وحياة وعظمة وقدرة وقيومية ومخالفة لكل شئ لهلكت شخصيته النفسية ثم العقلية ثم العاطفية ثم الذوقية ثم البدنية ثم الفطرية والغرائزية هلاك من خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق . وذلك لا يحدث بذات الشكل والخطورة لو لم يتشبع بسائر الاركان الاخرى من حيث الامكان النظري وهو محال لان الامكان العملي هنا متعذر بحكم أن الموحد حقا بكل ما يقتضيه الاعتقاد في التوحيد الالهي لا يسعه سوى الايمان بسائر الاركان بل العمل بمقتضياتها .

العقيدة غيب ولكنه مبرهن معلل مفهوم معقول مؤيد بسائر منافذ العلم عند الانسان :

الايمان بالله وملائكته واليوم الاخر غيب دوما لكل الناس وبالنسبة إلينا نحن اليوم كذلك الايمان بالرسل والكتب غيب كله . الغيب غيبان بالنسبة للانسان : غيب ما غاب عنا فلم نعلم بوجوده من عدمه لسبب أو لاخر وهذا غيب لا يهمنا وغيب غاب عنا فوصل إلينا خبره بعد ذلك بوجه أو بآخر وهذا يهمنا بقدر تأثيره على حياتنا وصلته بها . الاسلام عمد إلى إخبارنا عن الغيب الذي يهمنا وله صلة وثيقة بحياتنا وهو من جانب آخر لا قبل لنا بالعلم به على وجه الحقيقة سوى بذلك الاخبار وذلك هو معنى قولنا أن العقيدة غيب . معجزة الاسلام وعقيدته أنه أخبر عن الغيب بطريقة يعقلها العقل ويدركها الفهم وذلك لانه حشد للاقناع به كل المؤثرات وأولها ما كان مركوزا في الانسان أي فطرته وجبلته وليس آخرها ما هو مبثوث في الكون من حولنا وذلك هو معنى قولنا أن الغيب في الاسلام وعقائده مبرهن معلل مفهوم معقول مؤيد بكل المؤثرات الحسية والمعنوية التي تجعل الانسان يذعن إذعان المختار المريد الحر المكلف المسؤول لا إذعان من تستبد به الالهامات الكاذبة وأضغاث الاحلام أو كوابيس اليقظة .

إن حسن فهم ذلك قمين بجعلنا ننجح في محاولتنا هذه أي تعليل العقيدة الاسلامية وبالتالي إلتقاط مقاصدها وتعيين مصالحها وتزيين محاسنها وإبراز مكارمها . تلك فكرة أساسية في هذا البحث بل هي أكبر فكرة تقريبا فيه .

الحلقة الثالثة :

خصائص العقيدة الاسلامية أو معالم نظامها

هذه هي الحلقة الثالثة والاخيرة في محور العقيدة الاسلامية أول محاور هذا البحث بعنوان " مقاصد العقيدة الاسلامية ".

سبق لنا في الحلقة الاولى منه أن تأكد لدينا مفهوم العلم بمحطات بثه في الكون ومنازل إستقباله في الانسان ومناط أدلته كما سبق لنا في الحلقة الثانية منه أن تأكد لدينا وصف جامع مانع لكيان العقيدة الاسلامية أصولا وفروعا وحقول عمل ومعنى الغيب فيها .

معالم النظام العقدي في الاسلام يرسمه الناطق بإسم ذلك النظام أي الكتاب الكريم :

أولا : شرط التوحيد :

ليس المقصود منه ما يتبادر إلى الذهن مباشرة عند سماع كلمة التوحيد من قبل المؤمن وإن كان ذلك المعنى المتبادر هو المؤطر الاول لسائر معاني التوحيد المقصودة تاليا .

شرط التوحيد ضمن معالم النظام العقدي الاسلامي معناه أن العقيدة الاسلامية تنبثق عن مصدر واحد غير متعدد بحال من الاحوال وهو رأسها وعمادها وهو توحيد الباري سبحانه وأن تلك العقيدة تؤطر الوجود بأسره علويه وسفليه ما علمنا منه وما لم نعلم ضمن حقل عملها ومجال دينونتها إذ لايشذ عن الله سبحانه شئ في السماوات ولا في الارض والعقيدة التي إرتضاها لسائر من وما خلق تهيمن إن طوعا أو كرها على كل شئ مطلقا " وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ". ومعنى ذلك كذلك أن سنن التعدد والاختلاف والتنوع الواسعة الشاسعة الممتدة حد التقابل بل حد التضاد والتنافي من مثل عمل الملك وعمل الشيطان وعمل الماء وعمل النار هي في الحقيقة متوحدة موحدة متحدة ضمن بوتقة نظامية صارمة لا تخرج عليها عند التحقيق العلمي الثابت المتيقن أي أن مرجعها جميعا إلى الخالق الواحد سبحانه تصدر عنه كلها واحدة المبدإ والمنشإ ثم تتعدد إتجاهاتها محكومة بنظام سنني سببي قدري كوني لا يتخلف وفي النهاية أي يوم القيامة ترجع إليها جميعا تماما كما صدرت عنه سبحانه خلقا إبتدائيا فهي إذن واحدة في المنشإ واحدة في المرجع . ذلك هو فيما يتعلق بالخلق العابد كرها وهو يهمنا من جهة كونه يشترك مع الانسان في ذات المنشإ وذات المرجع .

شرط التوحيد ضمن النظام العقدي الاسلامي بالنسبة للانسان معناه أن الانسان واحد في مبدئه وأصله وتكوينه ورسالته ومرجعه ومحيطه لا يختلف عن بعضه بعضا سوى في الموقف الفكري من المعقولات أي المجال العلمي الذي تتحدد فيه حرية إرادة ذلك الانسان وذلك لخدمة مقصد الابتلاء . كما يعني ذلك الشرط ضمن ذلك النظام لدى الانسان بأن العقيدة الاسلامية تلبي سائر حاجات الانسان في مختلف أبعاده التكوينية فطرة وإكتسابا ضمن منهج التكامل بين سائر تلك الابعاد لا منهج التنافي والتضاد أي أن العقيدة الاسلامية تلبي سائر حاجات الانسان فردا وأسرة وجماعة كبيرة وصغيرة على أساس توحيد كل تلك الابعاد والحاجات لخدمة مقصد أسنى هو إصلاح نظام الانسان في سائر أبعاده الذاتية والجماعية . من الادلة على ذلك قوله سبحانه " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " وذلك ينطبق على الكون أصالة ولكن الفساد حين يغشى الكون فإنه يقتل الانسان . ولما ضرب لنا سبحانه مثلا عمن يخدم سيدا واحدا وعمن يخدم أسيادا متشاكسين قال " ورجلا سلما لرجل هل يستويان ..." بما يعني أن العقيدة الاسلامية تجعل المملوك وهو هنا الانسان الحر خادما لسيد واحد هو الجدير دون غيره بالعبادة سبحانه بما يضفي ذلك حتى مع تقصير شديد في العبادة من طمأنينة ويسكب من رضى في النفس تجعل الانسان مثلا لا ينتحر ولا يصاب بالامراض النفسية من مثل الكآبة المزمنة فضلا عن الحيرة والتيه والضياع .

شرط التوحيد ضمن معالم النظام العقدي في الاسلامي معناه أن الخلق بأسره والانسان منه موحد لنيل ثمرة وبلوغ مقصد وتأدية رسالة وذلك في مقابل النظم التي تخاطب في الانسان سوى بعد أو أكثر من ذلك أو أقل في الانسان بما يجعله مقطع الاوصال منهوك القوى يلهث وراء هذا فيفلت عنه ذاك قبل إدراك ذلك .

شرط التوحيد ضمن ذلك النظام معناه أن الوحدة هي أكبر سنة بني عليها الكون والانسان : وحدة الواحد الاحد سبحانه ووحدة مصدر الخلق ومرجعه وتكوينه ورسالته وهي وحدة تعمل على لم شتات الانسان المتوحد وراء رسالة واحدة هي عبادة الواحد سبحانه .

ثانيا : الشمول :

شرط الشمول في النظام العقدي الاسلامي معناه خدمة شرط التوحيد آنف الذكر ضمن البعد الافقي للكون والانسان وهذا معلوم من الدين بالضرورة فالتوحيد ييسر للانسان عبادة ربه سبحانه لان سائر

مطالبه وأبعاده موحدة ضمن هدف واحد فتتكامل دون تناف أما الشمول فهو ييسر إنبساط العقيدة على كل شئ مطلقا وهو الامر الذي تجنبته اللائكية الحديثة فأثمرت خرابا روحيا لم يغن عنه ما بلغ الانسان من ترف مادي ورفاه مالي لا يدفعه سوى إلى الانتحار وقتل أخيه الانسان والافساد في الارض . يستمد شرط الشمول مشروعيته من وحدانية المصدر ووحدانية المرجع ووحدانية الرسالة .

ثالثا : السببية :

شرط السببية ضمن النظام العقدي الاسلامي معناه أن الكون بأسره يخضع دوما لنظام التعليل أي أن كل حادث وشئ وأمر في الماديات والمعنويات هو مفعول لسبب ما علمه من علمه وجهله من جهله ويصل النظام العقدي في تبريره لشرط السببية حد القول " أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة " . وهو أرق ما وصل ولا يمكن لنظام آخر مهما بلغ من الصدق والموضوعية والنزاهة والحق والالتزام أن يصرح بذلك ولاشك أن المقصد من ذلك هو تعليم الناس بأن النظام الكوني والخلقي والاجتماعي بناؤه السببية وليس الفوضى ولا الخوارق الكاذبة سيما أن رسالة محمد عليه السلام جاءت مبطلة لها حتى في النظام الديني نفسه فضلا عن النظام الاسلامي والحياتي والوجودي العام الاكبر . فائدة هذا الشرط ضمن ذلك النظام هي أن الانسان لن يعبد سوى من دل عليه العقل بأنه هو الجدير بالعبادة ضمن عالم الاسباب وهي كذلك أن الانسان يعمر الدنيا بالخير مادة ومعنى على أساس أن الخير مفعول لسبب يضعه الانسان ثم يبارك فيه رب العزة سبحانه وكل معادلة مخالفة هي مقلوبة .

رابعا : السننية :

شرط السننية ضمن معالم المنهج العقدي في الاسلام معناه أن الكون محكوم بإذن خالقه بسنن تحتضن تلك الاسباب إذ الاسباب هي أداة العمل ضمن ذات السنة أما خارجها فلا فشرط السننية مكمل لشرط السببية وذلك معناه عند الانسان أن السبب لابد له أن يكون في محله السنني فلا يبحث مثلا عن المعقولات والدين واحد منها ضمن عالم الماديات والمحسوسات وهو كذلك إلى جانب شرط السببية مدخل في يد الانسان لحسن تعمير الدنيا .

أشار القرآن الكريم إلى شرط السننية كثيرا في القرآن الكريم مبنى ومعنى وخاصة السنن الاجتماعية المتعلقة بحياة الانسان فوق الارض وتجد ذلك مبثوثا خاصة في القصص والامثال وعند الحديث عن الكون وعن النفس .

خامسا : العقلية :

شرط العقلية ضمن المنهج العقدي الاسلامي معناه أن العقيدة معللة مفهومة معقولة مبرهنة تعتمد في الاقناع بنفسها عبر منطق الاسباب والسنن وليس على منطق الصدفة والخرافة والدجل والسلطات المعنوية لرجال الدين وكذبة المتصوفة والطروقيين ومن ذلك قوله " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " . وبلغ ذلك حدا لا يضاهى حتى قال الفقهاء إستنباطا منه بأن العقل مناط التكليف وأن المعلوم بالبرهان كالمعلوم بالبيان وأن إيمان المقلد لا يقبل حتى لو كان يقلد نبيا معصوما من أولي الرسل عليهم السلام جميعا . معقولية العقيدة معناها أن العقل البشري مؤهل لمعرفة الحقائق الكونية الكبرى خاصة إذا ما تعزر بالوحي والوحي لا يزيد على إحالته على الخارج من كون وتاريخ ونفس ومآل ومنطق فلا يعتمد حشو العقل بالعلم تلقينا ولكن يعتمد دعوة الحجة المقابلة ثم تفكيكها ونقضها ثم بناء الحجة غير المدحوضة ثم ترك الخيار للعقل إن شاء صدق وآمن وإن شاء كذب وكفر ودون أن يعاقبه في الدنيا على ذلك " كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك " وإنما يمهله حتى وفاته ثم يحاسبه يوم القيامة. قد يشغب بعض الناس على ذلك بأن هذا الجزء أو ذاك من الاسلام عقيدة أو شريعة غير معقولة المعنى وهذا صحيح على قاعدة أن العقل يدرك تلك الحقائق الكونية الكبرى بما زود لها من ملكات فطرية كامنة عظيمة ثم يسلم لمالكه وخالقه وصانعه في صياغة شريعة عملية تحرره من هواه أولا ومن مخاطر الشر من حوله ثانيا فلا يضير الانسان مثلا ألا يعلم الحكمة من كون صلاة الظهر أربعا في حين أن صلاة الفجر مثنى كلما كان عقله هو من عرف ربه ومن يبهره قصر منيف أو بستان جميل فيقرر ولوجه لا يستقيم في حقه إذا كان فعلا يحترم نفسه وعقله بعد ذلك أن ينفر من وضع معلم فيه داخله لا يراه هو في موقعه المناسب حجما أو موضعا بل العاقل يزداد إنبهارا بكل التفاصيل والجزئيات التي يلفاها بعد دخوله كلما كان دخوله عن إقتناع لا عن تقليد لذلك لايقبل إيمان المقلد .

سادسا : النقدية :

شرط النقدية ضمن معالم المنهج العقدي الاسلامي معناه أن العقيدة مبنية على العرض ثم النقد ثم البناء ثم الاختيار أي أنه سبحانه وهو يدلل على وجوده وعظمته وقدرته ونعمته يخاطب العقل بما يدركه من تركيب أكوان وتناسق إبداع وجمال طبيعة وتقلب نفس ونثر آية ولا يكتفي بذلك بل يومئ كثيرا إلى أن الحالة المقابلة لذلك إما حالة غير ممكنة أو غير سوية ووصل حد القول " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه " أي أنه يحرضنا على العقلية النقدية القائمة على الجدال والحوار وعرض الرأي والرأي المخالف حتى فيما يتعلق بالالوهية وهي أخطر قضية كونية وجودية على الاطلاق أي أنه من توصل إلى برهان لا ريب فيه يفيد بأن إلها آخر موجود مع الله سبحانه أو بدونه فلا تثريب عليه أن يؤمن به ويدعو إليه المهم أن يكون ذلك مبرهنا وليس ثمة مستوى ضمن شرط النقدية في معالم المنهج الاسلامي العقدي أرفع من ذلك المستوى .

سابعا : المقاصدية :

شرط المقاصدية ضمن معالم المنهج العقدي الاسلامي معناه أن الخلق جميعا بما ومن فيه منشأ لمقصد معين علم الناس ذلك أم جهلوه وذلك إنطلاقا من كون التوحيد أول شروط ذلك المنهج منزه عن العبثية بكل معانيها وكلما تقدم العلم يكتشف الانسان بأن شرط المقاصدية ثابت في عملية الخلق والتكوين والحياة ولو لم تكن المقاصدية ثابتا لما كانت الشمس تجري لمستقر لها ولما ركبت الحياة بأسرها على قانون الحركة والتغيير ولما كانت مبنية على أسس السببية والسننية ولاشك أن العقل مؤهل لمعرفة الكثير عن شرط المقاصدية سيما فيما يتعلق بحياته ورسالته ووجوده وذلك هو القدر المنضبط منه والضروري وما عدا ذلك يكشفه العلم تباعا وفوق كل ذي علم عليم سبحانه فإهلاك المكذبين مثلا في السابق واللاحق لا يخلو من مقصد مفهوم عند أولى النهى ومصابرة المؤمن حتى الموت بعيدا عن دوافع الثأر أو اليأس لا يخلو كذلك من ذات المعنى عند ذات العقول . معنى ذلك الشرط هو أن الانسان أمام فرصة فريدة وحيدة هي حياته الممتدة عبر عقود طويلة له فيها مجال للتجربة والخطإ والقوة والضعف والتأمل والتقدم والتأخر والوصل والفصل والهداية والضلال والعبرة بالخواتيم فحياته ذات مقصد جليل يترك له مجال واسع غير مضيق لفقهه والعمل على ضوئه فإن أبى فهو الوحيد الذي يتحمل مسؤولية تصرفه .

معالم المنهج العقدي الاسلامي إذن تزينها شروط هي مواصفات تلك العقيدة وشمائلها ومكوناتها وأبعادها المستمدة من ذات بنائها كما هو معروض في القرآن الكريم فهي عقيدة بناؤها توحيد الانسان حول رسالته دون تشتيت لجهده وتقطيع لابعاده وسببية تيسر للانسان تعمير الارض وسننية تيسر له فهم الكون من حوله وشمول لا يند عنه شئ مخلوق أبدا وعقلية تساوي بين الناس جميعا في كسب بوصلة الحياة ونقدية تمكنه من حرية الارادة والاختيار ضمن قانون التعدد ومقاصدية تجعل لحياته طعما ولوجوده لونا وتمنحة فرصة لبناء مستقبله الابدي .

ذلك هو كل ما يمكن أن يقال عن المحور العقدي ضمن هذا البحث وتكمن أهمية ذلك في كون المقاصد العقدية لو كانت العقيدة معللة مقصدة فيما سيأتي لاحقا بإذنه سبحانه منبجسة من ذات تلك المعالم ونفس تلك الشمائل والمكونات إذ طبيعة كل شئ تحدد مجال عمله ولون حقله ومدلولاته ومقاصده الكبرى وبقدر ما يكون الاتفاق بيننا هنا في هذا المستوى الاولي من البحث بقدر ما يكون كذلك فيما يلحق .

المحور الثاني : المقاصد الاسلامية

الحلقة الاولى : المعنى والتآليـــــــــــــف

إذا كان البحث بعنوان " مقاصد العقيدة الاسلامية " فإنه لا فكاك من تفكيك مفردات العنوان إستعانة بالتمثيل قبل إعادة تركيبها والبحث لها عن إمكانية تعليل أو تقصيد ولذلك خصص المحور الاول لموضوع العقيدة الاسلامية ضمن ثلاث حلقات وبذات النحو نفعل مع مسألة المقاصد الشرعية عامة والله الموفق .

المقصد هو موضع القصد ومكانه وهو تعبير قرآني إستخدم في مثل قوله " وأقصد في مشيك " و" وعلى الله قصد السبيل " و" ومنهم مقتصد " وبما أن الجذر واحد رغم إختلاف الاستخدامات فإن المعنى الاولي المشترك للقصد هو العمل المحكم المنضبط غير المسرف ولا المقتر المتجه صوب هدف مرسوم من قبله سلفا دون تردد. فالقصد في المشي معناه الاستواء والاعتدال والمحافظة على وتيرة متوازنة متواصلة لحسن بلوغ الهدف المرسوم في الاجل المرسوم والمقتصد في كدحه إلى ربه سبحانه هو الصنف الوسط بين الظالم لنفسه وبين السابق بالخيرات أي الذي يقوم بالفرائض ولا يزيد عادة ويتجنب المحرمات ولا يزيد عادة وهي منزلة لو حافظ عليها الانسان طيلة حياته لضمن بإذنه سبحانه مستقبله في الجنة فالمقتصد يسعى

إلى رضوان ربه وهو الهدف أي المقصد موضع القصد ومكانه بوتيرة متوازنة معتدلة لا يشغله عنها شاغل . وكذلك معاني الاقتصاد في المعيشة والاقتصاد في العبادة وهما أمران مطلوبان دينا ودنيا فالمقتصد في معيشته يدخر من سعته لضيقه ويصبر على ضيقه ليتبوأ سعة بعده والمقتصد في عبادته يوازن بين سائر مطالب نفسه وبين دينه ودنياه وبين سائر أهل الحقوق عليه أقارب وأباعد فلا يوغل في العبادة إيغال المستعجلين فيقطع ظهره ولا يزهد في الخير زهد اليائسين أو الفرحين فيطمع فيه الشيطان .

المعنى الاصطلاحي هو ذات المعنياللغوي سوى أنه يتعلق بمناطه المحدد أي الشريعة فالمقاصد عند إبن عاشور هي " المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها " وعند علالة الفاسي هي " الغاية منها والاسرار التي وصفها الشارع عند كل حكم من أحكامها " ومن مختلف تلك التعريفات قال الدكتور العالم بأنها هي " أهداف الشريعة هي مقاصدها التي شرعت الاحكام لتحقيقها ومقاصد الشارع هي المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وأخراهم " وهو يستند في ذلك إلى حجة الاسلام الغزالي في " شفاء الغليل " . وقريبا قال الدكتور خليفة بابكر حسن هي " المعاني والاهداف والحكم الملحوظة للشارع أو الاسرار التي أودعها تلك الاحكام " ثم قال " وبتعبير آخر هي الروح العامة التي تسري في كيان تلك الاحكام والمنطق الذي يحكمها ويبرز خصوصياتها وينبئ عن تميز أسلوبها وتفرد طريقتها وإرتباطها بأسها ومنطلقاتها " . أما الدكتور الريسوني فقال بإختصار شديد " هي الغايات التي وضعتها الشريعة لاجل تحقيقها لمصالح العباد ". كما عرفها أكثر من واحد بأنها العلل المنوطة بالاحكام .

نحن إذن أمام ثروة إصطلاحية تعريفية ثرة غنية فهي الاهداف والغايات والحكم والاسرار والروح والمعاني والعلل والمنطق العام وغير ذلك .

قبل المرور لابد من تسجيل أمرين نحتاج إليها بعد ذلك أولهما أن الشاطبي قال " التعليل هو التقصيد " وثانيهما هو أن ذات الفقيه الاصولي المقاصدي المبرز الشاطبي عليه رحمة الله سبحانه هو أول وآخر من جدد في علم المقاصد بتركيزه على " مقاصد المكلف " .

قال إبن مسعود " إنك في زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه قليل من يسأل كثير من يعطي يطيلون فيه الصلاة ويقصرون الخطبة ويبدون أعمالهم قبل أهوائهم وسيأتي على

الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه تضيع فيه حدود القرآن وتحفظ حروفه كثير من يسأل قليل من يعطي يقصرون فيه الصلاة ويطيلون الخطبة ويبدون أهواءهم قبل أعمالهم " ـ الموطأ ـ.

قال إبن القيم " فقه المقاصد هو الفقه الحي الذي يدخل على القلوب بغير إستئذان ".

قال إبن عاشور " من أسباب إنحطاط الفقه وتخلفه إهمال النظر في مقاصد الشريعة من أحكامها ". ـ أليس الصبح بقريب ـ وبذات المعنى بل بذات العبارة تقريبا قال سائر من بحث في المقاصد من مثل الدكتور عبد المجيد النجار وأحمد الريسوني .

قال الامام الشاطبي " الاعمال الشرعية ليست مقصودة لانفسها وإنما قصد بها أمور أخرى هي معانيها وهي المصالح التي شرعت لها ".

قال إبن تيمية ناعيا عمن أهمل النظر في المقاصد بزعم التمسك الحرفي بالنصوص " فهم بمنزلة من فاجأهم قطاع الطرق فإن أعطوا من مالهم حفظوا البقية وحفظوا أنفسهم من الموت بل ومن وراءهم من مصالح وعوائل وإن أبوا ذهبوا وذهب المال فإن الله بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ".
كما قال في موضع آخر عليه رحمة الله سبحانه " ليس العاقل من يعلم الخير من الشر إنما العاقل من يعلم خير الخيرين وشر الشرين ".

كلمة أخرى من فقيه المقاصد الشاطبي لابد لنا من الاحتفاظ بها رهينة حتى ساعة إطلاق سراحها في حقل عملها في إبانها من هذا البحث وهي قوله " المقاصد هي المصالح ". ومن قبله كلمة إبن مسعود " للقرآن حروف وحدود ". ومن قبل ذلك معنى إبن تيمية " المحافظة على رأس المال أو بعضه يتطلب تضحية عند الضرورة بالارباح أو بشيء من رأس المال " والمعنى الاخر منه " الخير والشر معلومان ولو عقلا وفطرة أما خير الخيرين وشر الشرين فهما كل الحكمة في يوم الكريهة ". ومن قبل ذلك كله قول إمام المقاصديين " الاحكام الشرعية ليست مقصودة لذاتها بل لما تحققه من مصالح تعود على العباد ". وقوله بأن التعليل هو التقصيد وأن للمكلف مقاصد لابد له منها أي إصلاح نفسه وتطهير داخلته . ومر معنا بأن المقاصد هي الحكم والاسرار والمعاني والاهداف والروح الخ ... .

رجاء : إرجع إلى الفقرة السابقة مراجعة وتدبرا لانها بمثابت ملخص موجز سريع مركز للمقصد من الكشف عن المقصد وبقدر الاتفاق على تلك المعاني إجمالا على الاقل بقدر ما نتفق على ما يلحق بإذنه سبحانه .

التآليف في الموضوع المقاصدي يكاد لا يذكر حجمها سيما بالمقارنة مع سائر العلوم الشرعية الاخرى من مثل التفسير وفقه الفروع وهو الخلل الذي تحدث عنه آنفا الامام إبن عاشور . سويأن الثابت أن أول من دون كلمات قصيرة ولكنها شكلت إلى يوم الناس هذا إجتهادا تجديديا يتيما بل لم يصل الناس إلا قليلا حتى إلى مستوى يتمه هوالامام الغزالي حجة الاسلام وذلك حين قال بأن المقاصد الشرعية للاسلام تنقسم بحسب خطورة تأثيرها على الحياة البشرية إلى ثلاثة أقسام هي المصالح الضرورية الخمس من دين ونفس وعقل ومال وعرض والمصالح الحاجية والمصالح التحسينية وظل الناس بكل طوائفهم ومستويات وعيهم بالمقاصد والمصالح ورسوخ قدمهم في التحقيق الشرعي عيالا على تلك الكلمات القصيرة عشرة قرون كاملة تماما كما هم اليوم في الفقه عيال على أبي حنيفة وهذا لا يدركه حق الادراك سوى من يعيش في بلاد الغرب بين أمل المحافظة على هويته الاسلامية وبين ألم الخوف من عدم قدرته على حسن التأقلم الايجابي المسؤول الراجع بالفائدة على وجوده الدعوي في هذه البلاد. ثم توقف الاجتهاد في ذلك إلا قليلا جدا حتى قيض الله للامة الامام الشاطبي بسفره الموافقات الذي بسط فيه لاول مرة قضية المقاصد الشرعية بتحليل مسهب سيما في الجزء المخصص لذلك وجدد فيه تجديدا لم يسبق إليه ولم يلحق به كذلك وهو تركيزه على مقاصد المكلف بعد مقاصد الشارع والامران ولا ريب لازمتان متكاملتان يؤكدهما قول العلماء بأن مبنى الشريعة أمران أولهما حديث النية الذي هو نصف الاسلام " إنما الاعمال بالنيات " وثانيهما حديث الاحداث الذي هو نصفه الاخر " ... فهو رد عليه " أي عناية الاسلام بالباطن والظاهر والقلب والقالب والدينا والاخرة والقضاء والديانة والروح والواقع . ثم جاء الامام إبن عاشور بمؤلف عظيم إستدرك فيه على بعض إجتهادات الامام الشاطبي نحى فيه منحى التقصيد العام والمعاصر للشريعة سيما أنه إشترك مع الامام الشاطبي في العناية بالواقع الذي يطحن الناس رغم تباعد العصور إذ الامام الشاطبي هو أول من أدخل عنصر الواقع في علوم المقاصد أي تأليفا وتحبيرا وتحليلا مطولا مسهبا وكذلك الامام بن عاشور الذي تناول في مؤلفه المقاصدي القضية المالية وفي ذات الاثناء ظهر أصولي مقاصدي كبير بالمغرب كذلك هو الامام علالة الفاسي الذي ذهب بعنصر الواقع في قضية المقاصد مذهب المزاولة إذ أسس حزبا إسلاميا عتيدا هو حزب الاستقلال لكن سرعان ما تعلمن الحزب . وما سوى ذلك فإن سائر المؤلفات المقاصدية إما إجترارا ونقلا لا يبعد كثيرا عن

عصور الحواشي والشروح أو نظرات تحقيقية ونقدية في التراث المقاصدي والاصولي عامة من مثل إنتاجات الدكتور الريسوني والنجار اللذين ركزا دون غيرهما على لب القضية وهي منهج الكشف عن المقصد عند إمامي المقاصد بعد الغزالي أي الشاطبي وإبن عاشور .

كلمتان لابد لك منهما في نهاية هذا المدخل الاولي : أولهما أن العلم الذي كان يؤطر ويستحوذ على المقاصد هو علم أصول الفقه وهذا بين في سائر المؤلفات تقريبا خاصة ذات المنهج الفقهي لا الكلامي ثم مع تطور الاهتمام بالمقاصد بدأ بعض الفقهاء على ندرتهم المحدودة جدا يجددون في مستوى التنظير لاستقلال علم المقاصد عن علم أصول الفقه ليس إستقلالا وظيفيا إجرائيا فحسب رغم أهمية ذلك ولكن إستقلالا علميا وبقدر ما يتلخص علم المقاصد من بوتقة حشره علما ومباحث وتحليلات نظرية وتمثيلات واقعية ضمن علم أصول الفقه يتأسس على أسس متينة وتزدهر الحياة العلمية للمسلمين ثم تترقى حياتهم العملة وتتحضر .

الكلمة الثانية والاخيرة هنا هي قول إبن خلدون في مقدمته بأن علم أصول الفقه هو منطق الاسلام أي النسق الفكري الذي يجعل العقل مطمئنا للشريعة الاسلامية إذ كلما طرح العقل سؤالا عن حكم تكليفي من الاحكام الخمسة المعروفة أو الاقتضائية المعلومة بقوله " كيف جاء هذا الحكم وكيف ولد وما هي مشروعية ولادته وماهو محله وماهي الخطوات والمراحل التي صاحبت ولادته ؟ " جاء الجواب من لدن علم أصول الفقه ولن نسهب أكثر هنا ويراجع ذلك في مظانه . أزعم أن الوفاء للمنهج الفكري الذي إعتمده العلامة إبن خلدون بتصنيفه علم أصول الفقه ضمن علوم المنطق العقلي البشري السوي يقتضي منا القول بأن علم مقاصد الشريعة والاسلام عامة هو حكمة الاسلام . إن دينا أصوله منطقا ومقاصده حكمة لجدير بحياة عقلية إسلامية تجعل الانسان إنسانا.

المحور الثاني : المقاصد الاسلامية

الحلقة الثانية :

المقاصد في الوحي والتجربة

يقول العلماء بأن الفقه الاسلامي مبناه أضلاع ثلاثة لابد لها من التآزر لاصابة الحقيقة وهي فقه النص من الوحي عامة قرآنا وسنة وفقه المقصد بسائر ضروبه ومستويات وضوحه بأقصى ما يمكن من الاجتهاد حال عدم تحرره بالكلية وفقه الواقع سيما بما يحيط بالواقعة من كل جانب .

نص الوحي في مواضع كثيرة على بعض المقاصد نصا وفي ذلك يقول الدكتور النجار بأن القرآن ذكر المقاصد على ثلاثة أنحاء : أحيانا في نصوص صريحة من مثل " يريد بكم اليسر " وأحيانا متضمنة في الاحكام بالاشارة إلى علل الامر والنهي من مثل " ولكم في القصاص حياة يا أولى الالباب " و " إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ..." وأحيانا بطريقة غير مباشرة بأن تكون علة مبنية عليها الاحكام وغير مصرح بها وإنما تعرف بالملاحظة عبر الاستقراء فيحصل يقين بأنها مقصد الشارع من مثل النهي عن بيع الطعام قبل قبضه والنهي عن بيع الطعام بالطعام نسيئة والعلة هنا هي رواج الطعام وتيسير تناوله وهو مقصد للشارع ومعلوم أن القرآن مملوء بالضربين الاول والثاني من تلك الانحاء ذات النصوص الصريحة وهذا كثير ولا فائدة من إيراد الامثلة هنا فليرجع إليها في مظانها .

وعلى ذات النهج سار الخلفاء الراشدون ولا شك أن شيخ المقاصديين في هذه الامة هو الفاروق عمر الذي إشتهر بأولياته كما إشتهر بفتوحاته العقلية في مجال المقاصد وفي مجال الارض والناس قاطبة اليوم تذكر عمر عليه الرضوان بإجتهاداته محل الاجماع من لدن الصحابة في مجال تأجيل مصرف المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة الثمانية وفي مجال تأجيل حد السرقة عام الرمادة بالعراق أي عام المجاعة وفي مجال عدم تخميس الغنائم على الجند رعاية لمصلحة الاجيال القادمة وفي مجال زيادة عدد مرات الاذان لصلاة الجمعة من واحد في عهده عليه السلام إلى ثلاث وفي مجال صلاة التراويح جماعة في المسجد وفي مجال الادارة من مثل الدواوين والبريد وغير ذلك كثير .

وكذلك فعل عثمان عليه الرضوان في قضية ضوال الابل إذ خالف مسلكه عليه السلام فيها رعاية لمقصد حفظ المال وليست عمليات جمع القرآن وكتابة الحديث وما إلى ذلك سوى مندرجا في ذات التوجه المقاصدي .

وفي عهد علي عليه الرضوان جدت قضية مماثلة هي تضمين الصناع رعاية لذات المقصد أي حفظ المال وهو مخالف للقياس والامثلة لا حصر لها في تلك القرون الخيرة رغم أن ما بالعهد من قدم فعبيره عليه السلام في مناكب أرضهم وآثاره الطيبة لم تلتئم جراحات فقدها سوى أن كل تغيير في حياة الناس مفض إلى العنت أو إلى السعة حمل الصحابة الكرام وهو من هم إقتداء به في كل كبيرة وصغيرة على النظر في مآلات الافعال فكيف بنا نحن اليوم وقد تغيرت الدنيا على نحو لم تشهد له من قبل مثيلا .

فلما جاء عهد التدوين كان أول من كتب في ذلك إمام الحرمين الجويني ثم توسع الامام الغزالي فيما كتبه إمام الحرمين حتى نسبت المسألة إليه ولا ضير في ذلك وكتب في ذلك سلطان العلماء العز إبن عبد السلام والقرافي في فروقه الشهيرة ثم جاء المجدد الكبير إبن تيمية وتلميذه إبن القيم ثم آل الامر إلى الامام الشاطبي ومن بعده إبن عاشور والفاسي ومن قبل ذلك وفي أثنائه كانت الصحوة الاسلامية منذ ثلاثة قرون بمختلف تجاربها تستسقي من المدرسة المقاصدية سواء كانت تجربة تحض على العودة إلى الاصول والمنابع الصافية أو على تطهير القلوب من أدناس الفساد وخبث الطوايا أو على الاجتهاد الفقهي والعلمي عامة أو على تعمير الدنيا أو على تحرير الانسان من الطواغيب وتكريمه بإعادة الاعتبار لدوره خليفة مستأمنا .

فمن ذلك مثلا أن دعائم الفقه التي أرساها الائمة الكبار الذين مازال الناس يدينون بها إلى اليوم قامت على رعاية المقاصد التي سماها الامام مالك مصالح وتوسع في الاخذ بها وهي ذاتها عند الامام أبي حنيفة وسماها محاسن وليس القياس المعروف المتفق عليه عند كل الائمة تقريبا سوى البذرة الاولى في أرض الاستصلاح والتقصيد والحاصل أن نزعة الاستصلاح والتعليل والتقصيد بما هي صنو كل إجتهاد إسلامي منضبط بدلائل الشريعة لم يشذ عنها حتى من حملوا حملات ضارية على من خالفهم في هذا الامر من مثل الفقيه الثائر إبن حزم الذي ظل يتردد بين إستهجان تراث فقهي أوغل في إستخدام الاقيسة المتحكمة إلى حد الانقلاب على نضارة النص الواضح البسيط المفهوم وبين التوسع في المنطق الظاهري الذي لو تعدل قليلا لالتقى مع المقاصدية الاسلامية الجامعة بين وضوح النص العربي وبين مدلولاته التي قد يعيرها بعض ما يصيبها من محاضنها التي ولدت فيها ومن تتبع فقه هذا الامام الكبير يلفى ذلك واضحا في إجتهاداته في شأن المرأة مثلا حيث ينبري مدافعا عن مقصد الشارع هنا في محرمية

السفر مثلا ولكن سرعان ما تلتوي عليه ظاهريته التي لابد لنا اليوم من إدراك نشأتها وأسبابها فيقول مثلا في ذات المحور بأن عقد النكاح باطل لو تكلمت المرأة موافقة على نكاحها لان النص يقول بصماتها وهذا لوتتبعته كثير جدا عنده .

من صور ذلك الاجتهاد في مدى التوسع أو الانكماش في الاخذ بالاستصلاح ما تعاقبت فيه الاجتهادات وهي إلى حد اليوم ضمن المقاصدية الاستصلاحية الوسطية ثلاثة ضروب أولها عند الغزالي الذي وضع شروطا ثلاثة وهي أن تكون المصلحة ضرورية لا حاجية ولا تحسينية وكلية لا جزئية وقطعية لا ظنية ثم جاء الشاطبي من بعده فلم يبتعد كثيرا رغم إختلاف الصياغات فقال بشرط كونها معقولة في ذاتها وملائمة لمقاصد الدين غير مصادمة لاصل أو دليل وراجعة إلى حفظ ضروري أو حاجي أي أنه توسع هنا قليلا مقارنة مع الغزالي ولكنه في المقابل توجه إلى مجال العمل والمعاملات وذلك بالنظر إلى أنه بخلاف الغزالي مهموم بأمر الاصلاح الواقعي بدرجة كبيرة ولا سيما أن الانسان ولو كان إماما فقيها مبرزا إبن بيئته يؤثر ويتأثر ككل كائن حي ثم جاء القرضاوي فكان أقرب إلى الشاطبي لقرب المسافة والهم معا فوافق الشاطبي على شروطه الثلاث وزاد عليها أن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية في إشارة إلى المسجد الضرار الذي يشيده العلمانيون بإسم الاجتهاد المقاصدي ليخر السقف على رؤوس المسلمين جميعا .

بتلك الفقرات المختصرة جدا نختتم القول في المقاصد موضعا في الوحي وتجربة من لدن الخلافة الراشدة وما تلاها من تجارب ثم نتفرغ على مدى حلقة تالية بإذنه سبحانه إضافة إلى ما بقي من التي نحن بصددها إلى الحديث عن المقاصد الشرعية بما هي علم .

التأصيل الشرعي العلمي للاخذ بمقاصد الشريعة :

الاخذ بالمقصد معناه إجراء العبادة ـ أي عبادة بما أن عمل المسلم كله عبادة حتى نومه وشهوته ـ على نحو تتحقق فيه مصلحة العابد أيلولة حقيقية بقدر المستطاع بما أن الشريعة الاسلامية وكل الاديان

السماوية في أصولها غير المحرفة إنما تنزلت على الارض لتحرير الانسان وتكريمه وحفظ مصلحته في معاشه ومعاده ومقتضى ذلك الاحتواء على مجموعة من الاوامر والنواهي الضابطة فما ند عن ذلك وهو الاكثر والاغلب ـ منطقة العفو أو الفراغ أو المسكوت عنه ـ أنزل الله فيه الميزان وهو العقل المؤهل لميزان الاعمال والافكار . هاك مثلا : لو سألك سائل عن حال دارك فإن كنت تعرف السائل وإستعمالاته اللغوية فإنك تجيبه بالتحديد عما أراد السؤال عنه وهو يقصد حال من في الدار وليس حال الدار أما لو كنت لا تعرف قصده الذي إرتبط لاسباب كثيرة متعلقة بالبيئة فإنك إما أن تجيبه بغير مقصوده فتحدثه عن حال الدار حقيقة لا عن حال من يسكنها وعندها لم تمكنه من تحقيق مقصده لانك لم تعرف مقصده وسكنت عند حدود لفظه وإما أن تستهجن سؤاله بشكل ما فينشأ خلاف ربما يتطور إلى حدود غير معهودة ولا مقبولة فتكون قد أسأت إلى من لا يستحق منك ذلك بسبب إهمالك لمعرفة المقصد من السؤال .

ضربت لك مثلا حيا واقعيا معيشا خارج نطاق الشريعة الاسلامية حتى أبعث لك برسالة مؤداها أن مسألة المقاصد كما سنرى في مباحث لاحقه بإذنه سبحانه ليست خاصة بالاديان ولا بالشرائع بل هي قضية عقلية منطقية بشرية تغشى الحياة الانسانية في كل دروبها وذلك هو معنى قولنا فيما سبق من بعض الحلقات بأن أقصر طريق لحسن فقه الاسلام بسائر مكوناته هو إعتبار أن النظام الديني في الاسلام وفي غير الاسلام ليس خارجا ولا مفارقا للنظام الحياتي والكوني والخلقي بل هما ذات أصول مشتركة وفروع مختلفة تبعا لاتحاد الاصل الاول وتبعا لخصيصة التوحيد التي تعرضنا لها عند حديثنا عن شروط معالم النظام العقدي الاسلامي .

فلماذا نأخذ بالمقصد إذن ؟ بداية لحسن فهم مقصود الشارع من كل أمر ونهي إذ يساعد ذلك على حسن تنزيل يكفل حسن أيلولة لمراد الله فينا ومنا قلبا وقالبا ونهاية لمواجهة حالات كثيرة من مثل خلو المجال الذي نريد التحرك فيه وهو الاغلب والاكثر بشكل لا يصدق ولا يضاهى من نص آمر أو ناه ومن مثل إحاطتنا بظروف بعضها طبيعي وبعضها غير طبيعي تحول دوننا ودون تنزل الامر أو النهي أو الفعل في مجال المسكوت عنه وفق ما يحقق مصلحتنا التي هي لا غيرها بالتأكيد مراد الخالق منا . في المثال السابق ذكرت لك مثالا خارجا عن دائرة الشريعة وهو متعلق بإختلاف الاستعمالات اللغوية أو اللهجات المحلية وهذا يكون أحيانا في أسرة صغيرة واحدة فكيف لو تعامل الانسان مع من لا يشترك

معه لا في دين ولا في لغة ولا في بيئة ولا في زمان ولا في مكان لاشك هنا أن الحاجة إلى المقاصد لحسن الفهم وحسن التنزيل تكون أشد .

يمكن إجمال الحاجة التشريعية التأصيلية للاخذ بالمقاصد في قولنا بأن عوامل السعة والمرونة في الشريعة من جهة وعوامل الاختلاف والتنوع في الواقع الحياتي والبشري والتاريخي من جهة أخرى كبيرة جدا بما يعني أن ملأها بالاوامر والنواهي من قبيل الوهم لكل من يدرك حقيقة الحياة مع الناس سيما في إختلافاتهم وتنوعاتهم من جهة ووظيفة اللغات من جهة أخرى إذ لو تم ذلك وهو لا يتم بحكم السنن والاسباب التي أودعها الله كونه لتحول الناس إلى قطع من الروبوات الصخرية أو الحديدية ولملأ العسر الدنيا .

من مظاهر السعة والمرونة في الشريعة وهي المظاهر الجالبة لتأصيل الاخذ بالمقاصد نلفى إتساع منطقة العفو الخالية من الاوامر والنواهي ولذلك إضطر الناس إلى إعتماد القياس وهو أب المقاصد وملقح بويضتها بمائه وإلى الاستحسان والعرف وما إلى ذلك مما هو معروف كما نلفى أهتمام الشريعة بالكليات أكثر من أهتمامها بالنصوص حتى تحقق إحدى أكبر خصائصها وهي صلاحيتها لكل زمان ولكل مكان ولكل إنسان ولكل حال كما نلفى قابلية النصوص لتعدد الافهام وأغلب آيات الاحكام من هذا القبيل فإذا كانت أيات الاحكام في النصوص الصحيحة الصريحة هي على تلك الحال فكيف بالايات الاخرى وهي الاكثر والاغلب وهو السبب الاول لنشوء الاجتهادات والمذاهب كما نلفى مراعاة الاعذار والظروف الطارئة إذ مقصد الله ليس تعذيبنا بتكليفنا حتى ساعة العجز بل ظل يؤكد بأن الاسلام رحمة مطلقة وعدل مطلق ولو لم يكن الامر كذلك لعد ذلك الذي إستبد به الفرح بعدما رجعت له ناقته محملة بما يقيم أوده وقد كاد يقضي ظمأ كافرا لحظة قوله " أنت عبدي وأنا ربك " . كما نلفى كذلك من مظاهر تلك السعة والمرونة ضرورة تغير الفتوى بتغير موجباتها وهذا أمر مارسه هو عليه السلام في أمر من يستأذنه في تقبيل إمرأته في نهار رمضان إذ أذن لمن يملك أربه ومنع الاخر في مجلس لم يفصله تقريبا سوى إدبار ذاك وإقبال هذا فكيف بمجلس يفصلنا نحن اليوم عنه مالو حدثت به بعض أهل ذلك المجلس لعدك شيئا آخر .

محور المقاصد الاسلامية

الحلقة الثالثة :

التقصيد مبناه التعليل والاستصلاح

لم يتواضع علماء الامة وفقهاءها على أمر تواضعهم على كون المقصد الاسنى من الشريعة الاسلامية هو جلب مصلحة الانسان في معاشه والمعاد ودرأ الفساد عنه وتنوعت تعبيراتهم عن ذلك كثيرا . ومعلوم أن ذلك تم لهم بقراءة واسعة شاملة متأنية في سائر مستويات الخطاب القرآني والحديثي عامة قولا وعملا من لدنه عليه السلام سيما الاوامر والنواهي والقصص والامثال ومتون المحاور الخمسة في القرآن من توحيد وبعث وكون وقصة وتربية وتشريع وبذلك أضحت تلك الخلاصة المقاصدية حصيلة يقينية ثابتة مطلقة كلية تآزرت عليها كل الادلة وتعززت بكل المسالك وسنرى بإذنه سبحانه في المحور المقبل حول مسالك الكشف عن مقاصد الشريعة سيما عند الامامين الشاطبي وإبن عاشور وفقما سبر ذلك الباحثان النجار والريسوني بأن العملية المقاصدية تمت على جبهتي قراءة النص وإستقراء مدلولاته .

الان حان أوان إسترجاع مقولة الامام الشاطبي التي ذكرت بها في صدر بعض هذه الحلقات وهي أن التقصيد هو التعليل فما معنى ذلك ؟ لمعرفة ذلك لابد من إدراك معنى القياس وأركانه وخاصة العلة . القياس هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الاسلامي ومعناه بذل الجهد من أجل تعدية حكم لحادثة جديدة من سابقة قديمة منصوص على حكمها لاشتراكهما في علة الحكم تطبيقا لقاعدة منطقية عقلية عظيمة مفادها أن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما . فأركان القياس إذن حادثة سابقة قديمة وحكمها وحادثة لاحقة جديدة وعلة الحكم . القياس الشرعي هو فرع عن القياس المنطقي العقلي الذي إستخدمه القرآن مطولا جدا وبتركيز كبير على درب بسط الحوار للاقناع بالعقيدة الجديدة وإبطال ما فسد من العقائد سابقا ولاحقا . وهذا يقودنا إلى القول بإطمئنان كبير بأن الشريعة معللة كلما كانت أحكامها السابقة صالحة للنسج على منوالها والنسخ قياسا عقليا منطقيا إذ لو تخلفت العلة لما كانت العملية القياسية ذات معنى أصلا . فالشريعة إذن نظام معلل أو التعليل هو مبنى الشريعة وهو سر خلودها وتلبيتها لحاجات الناس في كل زمان ومكان وحال . فالعلة في القياس سواء كان قياسا منضبطا تمام الانضباط أو كان مرسلا إن قليلا أو كثيرا سيما أنه كما سنرى في مباحث لاحقة بإذنه سبحانه سرعان ما ينفتح على الاستحسان الذي هو الاستصلاح كذلك هي مقصد جزئي صغير أولي بدائي مراد لذاته يقود عملية القياس قيادة العقل للانسان . وكلما كان القياس لسبب ما غير منضبط تمام الانضباط نشدانا لتلبية حاجة بشرية مشروعة لم تجب عليها النصوص بذاتها بالعبارة المباشرة وهو الاغلب في

القرآن والسنة كانت العلة تبعا لذلك مطلوب منها أن تنفتح لاستيعاب كل واقعة جديدة فهي في القياس التام وصف منضبط ظاهر وهي في قياس الشبه أدنى إنضباطا وهي في القياس المرسل أدنى وهكذا حتى تتحول العلة إلى مقصد جزئي لا بد للمجتهد من تحصيله دفعا لحرج جاء الاسلام لدفعه أو تحصيلا لمصلحة جاء الاسلام لتحصيلها أو تلبية لحاجة خاصة في ظرف خاص فإذا ما جاوز الاجتهاد في الشريعة المناطق التي تملؤها النصوص وكلما جاوزت تلك النصوص منطقة الصراحة أصبح مطلوبا من تلك العلة التي تحولت إلى مقصد جزئي أن تتحول إلى مقصد كلي في مجال ما . وذلك هو معنى قول الامام الشاطبي بأن التعليل في الشريعة هو ذاته التقصيد كلما كان المقصد الاسنى من التعليل والتقصيد واحدا وهو تحري مقصود الشارع سواء كان ذلك في مستوى القياس التام الكلي المنضبط بسائر أركانه أو تطلب الامر تبعا لشمول الشريعة وتغير حاجات الناس بتغير ظروفهم تحريا أكثر إنفتاحا بإنتقال القياس إلى مرسل ثم إلى مقصد جزئي في مجال ما ثم إلى مقصد كلي في توجه بشري أكثر عموما وشمولا . التعليل هو التقصيد عند الامام الشاطبي معناه أن العملية قياسية إجتهادية عقلية تنشد دوما مصلحة الانسان بجلب النفع ووضع الفساد وهي عملية لا ينقطع خيطها الناظم أبدا وإن تلونت بعض أسديته أو تجبرت بعض لحماته أو دقت هنا وبرزت هناك فالعلة دوما هي الحاكم سواء تسمت علة أو مقصدا جزئيا أو كليا .

عبارة أخرى لابد لنا من إسترجاعها من ذات الفقيه المقاصدي الامام الشاطبي وسبق أن طالبت في موضع متقدم ما من هذه الحلقات بحجزها وهي أن المقاصد هي المصالح فما معنى ذلك ؟ المقصد كما فصل الامام الشاطبي مقصدان أحدهما من لدن صاحب الشريعة وتبين لنا أنه لا يخرج عن دائرة جلب مصلحة الانسان ودرإ المفسدة عنه في دنياه وآخرته وفي سائر أبعاده المكونة له فردا وجماعة وثانيهما من لدن متحمل الشريعة حرا مختارا وبين لنا أن ذلك لا يخرج عن دائرة كون نيته لابد لها أن تكون دوما وبقدر المستطاع حسنة حتى يستفيد من تطبيق مقصد الشريعة منه وفيه وفي واقعه وهو يشكل الجانب الحر الارادي فيه المعبر عن مسؤوليته وتمام أهليته وكرامته ليس في مستوى إختياره للشريعة أو رفضه لها ولكن كذلك في مستوى إخلاصه أو عدم إخلاصه في تحمله لها سوى أن كل حرية رهن المسؤولية وبهما معا يتكون الجزاء وذلك هو مطلق العدل الرحماني . ذلك هو إذن المقصد من لدن الشارع ومن لدن متحمل الشريعة . وهو مقصد في المستويين مبناه نشدان المصلحة ووضع المفسدة وذلك هو معنى أن المقاصد هي المصالح أي أن المقاصد التي من أجلها جاء الاسلام هي ذات المصالح التي يجنيها الانسان من خلال إلتزامه بالشريعة ولذلك درجت عبارة العلماء والفقهاء على إستخدام المصطلحين إستخدام مصطلحي الايمان والاسلام عادة ما ينوب أحدهما عن الاخر سوى في حالات خاصة جدا سيما عند

ورودهما في ذات الاية أو السياق . إذ لو قلت بأن المقاصد الشرعية ليست مصالح يجنيها الانسان لكان المقصد الاسنى ليس جلب المصلحة بل شيئا آخر ولو ضربت لك مثلا ربما تجد فيه شيئا وهو أن الحدود الاسلامية أو النظام العقابي الاسلامي سيما شريعة لا فقها هي في الحقيقة عند حسن سبر أغوار البحث الوجه الاخر للنظرية الحقوقية الاسلامية فحد الزنا مثلا الذي يسميه الذين لا يوقنون قسوة هو في وجهه الاخر لمن يروم تقليب كل زوايا النظر وتلمس كل سبل الحقيقة كما سطرها المناطقة والفلاسفة وجاءت بها الشريعة الذب عن حق المظلوم في عرضه وقس على ذلك كل جوانب النظام الجزائي الاسلامي . ربما يستهجن بعض الناس كلمة المصلحة والمصالح ونسبتها إلى الشريعة بحكم إلف وعادة لونت الشريعة بلون المصيبة والانتقام والجدية والقسوة والفرض والالزام والحزم كما لونت المصلحة بلون الامعية ونشدان نعيم خويصة النفس والمروق من الالتزام الديني والتحايل والفسوق بحكم ما عرفت أزمنة بعضا من تلك الالوان فهل نحكم عادات الناس في الثوابت الاسلامية وهل أثبت من كون الاسلام رحمة للعالمين وشريعته مصلحة لهم ؟ فالحاصل إذن هو أن مقاصد الاسلام هي ذاتها المصالح التي يجنيها الانسان وكل مقصد فيه سواء كان علة منضبطة ظاهرة في القياس الكلي أو التام أو مقصدا جزئيا أو كليا هو مصلحة للانسان وهذا يتبينه كل من يدرك معنى الاستحسان الذي أصله رغم تعدد وجوهه ودواعيه العدول عن قياس جلي واضح إلى آخر شبه أو مرسل بسبب أن حصيلة العملية القياسية في هذه الحالة بالذات أو مع هذا الانسان بالذات لا تحقق المصلحة حتى لو تمت إجراءاتها على تمام الصحة وربما يكون ذلك مجرد حرج أو عنت أو مشقة تلحق الانسان وهي عملية مردها إلى عقل المجتهد إذ يقال " لعلة تنقدح في ذهن المجتهد " أي أنه وهو يجري العملية القياسية ما يجب أن يكون مريدا ميتا في حضرة شيخ طروقي مستبد بل يستخدم كل ملكاته الفطرية العقلية المخزونة والمكتسبة سيما من تجربته مع الناس للعدول عن أي حرج يصيب الناس مستبدلا إياه بحكم أحسن منه كل ما في الامر أن لايكون الحكم الجديد خارقا لنص صحيح صريح وهذا أقل ما ورد في الاسلام بأسره وعندها لن يكون ذلك الحكم الجديد سوى منسجما مع مقصد شرعي ما.

المقاصد أو المصالح في الاسلام منها ما هو معتبر وهو ما دلت عليه نصوص صحيحة صريحة أو مقاصد بمثل ذلك أو أدنى بقليل وعمدته مجموع الاوامر بمختلف صياغاتها الامرية والخبرية إشارة وعبارة وإقتضاء قريبا شبه مباشر وذلك النوع الاول من المقاصد أو المصالح أي المعتبر من لدن الشريعة معروف لكل الناس لا يختلف حوله سوى مشاغب أو جاهل جهلا مركبا شنيعا إذ هو بوجه ما ليس سوى المعلوم من الدين بالضرروة وهو مركوز قبل الاديان في الفطر والعقول تستحسنه توجها عاما بالكلية دون تفاصيل

وبرامج عملية حتى قال العلماء بأن النهي مفسدة أي أن كل نهي هو نهي عن مفسدة ويقتضي مفهوم المخالفة وهو آلة أصولية أن الامر مصلحة . ومن تلك المقاصد أو المصالح ما هو ملغى وعمدته مجموع النواهي ودون إسهاب هو في مقابل الفقرة السابقة المتعلقة بما هو معتبر . وآخر تلك المقاصد والمصالح هي المرسلة أي التي لا هي معتبرة و لاملغاة وهو يشكل كل الشريعة إلا قليلا جدا وكل المعاملات البشرية إلا قليلا جدا لا يكاد يذكر أصلا هو من ذلك الضرب . ومجال عمل فقه المقاصد الاكبر هو في هذه الدائرة وهي الدائرة التي تندر فيها النصوص بشدة وتكثر فيها المبادئ والكليات والاشارات العامة وما يسمى في علم أصول الفقه ظاهرا ـ وهو المستوى الاول من مستويات دلالة اللفظ أو المعنى أو كليهما ـ ومن تلك المبادئ والكليات والعموميات يجتهد المجتهدون بغرض وضع برنامج لحياة المسلم فردا وجماعة في سائر ميادين الحياة وفي كل المراحل والاطوار والحالات إنطلاقا من تمديد مدلولات ومعاني وآثار النصوص الصريحة ثم الاقل صراحة حتى توصل بتلك المساحات الخالية من تلك النصوص والمكتفية بالكليات والعموميات وإنطلاقا كذلك من كثير من المقاصد الجزئية الصغيرة وهي كثيرة في خطاب الوحي إشارة وعبارة وإقتضاء قريبا شبه مباشر وإنطلاقا من قراءة صحيحة سليمة واقعية لحال الناس ومن كل ذا يجتمع للمجتهد تراكم خام فيه الصحيح والاقل صحة والصريح والاقل صراحة وفيه هاديات عقله المتشكلة ضمن خلاصات مقاصدية جزئية وضمن قراءات واقعية للحال فيقدم على صياغة مقصد كلي أو جزئي أو عام ظني أو يقيني أو خاص بحسب الحالة ويصبح ذلك المقصد فقرة في برنامج الحياة تماما كما يفعل الفقيه الاصولي عندما يتبع ذات النحو لصياغة قاعدة فقهية عامة في مجالها أو حاكمة على عدة مجالات فتصبح فقرة في ذات برنامج الحياة . وكل ذلك التمشي إذن بالخلاصة محله المصالح المرسلة بصفة أكثر شمولا وخصوصية ومعنى لمقولة المقاصد والمصالح . وهنا بالتحديد أذكر بضرورة إسترجاع مقولة سابقة في موضع ما من هذه الحلقات قالها المرحوم إبن تيمية وهي أن العاقل ليس من يعرف الخير من الشر بل العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين أي أن الخير والشر في الشريعة منصوص عليه نصا وقبل ذلك في العقول فيما هو بتعبير ما نحن بصدده مصالح معتبرة أو ملغاة ولكن فقه المقاصد رسالته إستجلاء مصالح مرسلة يختلط خيرها بشرها على قاعدة البقاء للاقوى وهو الاغلب في المصالح وهي القاعدة التي بنى عليها سبحانه كونه وخلقه وذلك هو معنى قولنا دوما بأن النظام الديني جزء من النظام الكوني .

تقسيمات أضراب المقاصد مختلفة إختلاف الزاوية المنظور منها فهي مصالح ضرورية لا تقوم حياة الانسان بدونها في مستوى الدين والنفس والمال والعقل والعرض مطلوب تحققها على وجه الالزام إلزام

تعريض النفوس للموت حفظا لمصلحة حياة نفوس أخرى ومصالح حاجية رسالتها وضع العنت عن حياة الناس فيما يحتاجون إليه ومعلوم عقلا وفطرة قبل أن يكون ذلك دينا وشريعة بأن الضررة مقدمة على الحاجة حتى قال الفقهاء بأن ما حرم قطعا لذاته كلحم الخنزير والخمر يجوز بل يجب عند الضرورة القاضية بإحياء دين أو نفس أو مال أو عقل أو عرض وما حرم لغيره لا لذاته كالخلوة تجوز بل تجب عند الحاجة القاضية بكشف عورة لطبيب في مرض لا يقتل عادة ومصالح تحسينية رسالتها تزيين حياة الناس وتجميلها بما لو تخلف لا يسبب حرجا ولا يضيع مصلحة ضرورية ولكنه يلبد ذوقا ويرغب عن النكاح مثلا أو يجعله نكاح بهيمة لا رسول فيه . ذلك التقسيم هو الاشهر تداولا بين الناس وهو تقسيم مؤصل بحسب أثر الخطورة والاهمية التي يحدثها في حياة الناس لذلك كان هو الاشهر تداولا أو هو تقسيم موضوعي أي بحسب موضوع المصلحة ومعلوم أن المصلحة واحدة ولكن تتعدد درجاتها كيفا . النوع الثاني من تلك التقسيمات هو ما كان بحسب الامتداد والشمول أو السكون والانكماش وهو ضربان : مصالح كلية تشمل عددا كبيرا جدا من الناس أو كلهم وهي المصالح الكلية أو العامة أو اليقينية الملطقة في الشريعة من مثل مصلحة العدل والحرية والحياء ومصالح جزئية تشمل عددا صغيرا من الناس يصل إلى حد الاحاد قلة ويدخل فيه باب الرخص والضرورات والتخصيصات وحالات الطوارئ ومنها حالات الهجرة وما سمي قديما بدار الحرب ... وآخر تلك التقسيمات المشهورة هي المنظور إليها من زاوية درجة صحة إستنباط المصلحة من الاسلام فهي إما يقينية مطلقة من مثل مصلحة توحد الناس كلهم توحدا ينفي إمكانيات الاقتتال ويتيح مساحات التعايش السلمي إذ أن تلك مصالح معتبرة ضمن صياغات قرآنية صحيحة صريحة وإما ظنية وعادة ما تكون تلك الظنية غالبة إما تبعا لنداء الفطرة وهاديات العقل ومحكمات التجربة أو لاقتضاء ذلك من دلائل النصوص الثابتة ورودا وكلما كانت المصالح قطعية كلما كان الاخذ بها وتحكيمها فريضة واجبة محققة لسعادة الناس والعكس دوما صحيح ودون ذلك ليس هو سوى المصالح الملغاة في دائرة المحرمات القطعية وما شابهها ودار في فلكها ولو سدا لذريعة .

فالمصالح إذن ذات قيمة ذاتية تتراوح بين القطعية والظنية وذات قيمة عملية تتراوح بين الضرورة والحاجة والزينة وذات قيمة واقعية تتراوح بين العموم والخصوص . وأعلاها الضرورية القطعية الشاملة سوى أن تركيبها ذات علاقة تكاملية متناسق مع ذات النبض الكوني والخلقي والاجتماعي وليس على أساس التقابل والتنافي والتضاد .

المصلحة دليل شرعي يجب إستخدامه في موضعه المناسب لتكميل حسن التدين وليس ما يحمل بعض الناس اليوم على نفي ذلك أو إستهجانه سوى أمرين أولهما سوء إستخدام المصلحة من لدن بعض من

سماهم الحديث " تأويل الجاهلين أو إنتحال المبطلين " وثانيهما سوء فقه تركيبة الجهاز التشريعي الاسلامي المبني على قاعدة صلبة ثابتة من الجذور النابتة المتعازرة منتجة لجذوع غليظة ظاهرة قوية وهي بدورها مفرزة لاغصان لا حصر لها تحمل ورقا وثمرا وتعبق ريحا وتمهد ظلا . الجهاز التشريعي الاسلامي بكلمة هو شجرة زيتون أو نخل مثلا تتكامل أجزاؤها وتختلف مستويات وضوحها وبروزها وفائدتها وأهميتها والحاجة إليها . المصلحة دليل شرعي معناه أنه لو جد للناس حادث لم يجدوا فيه نصا مطلقا في القرآن والسنة وهو أكثر من أن يحصى ولا إجماع ولا قياس صحيح صريح مكتمل الاركان فإنهم إما أن يجتهدوا فيما دون ذلك إستحسانا لوضع ما وإستصلاحا لحاجة ما أو تحكيما لعرف ما أو غير ذلك مما هو معلوم وإما أن يضعوا أنفسهم في حرج فتتعطل الحركة وتموت الحياة ثم لا يلبثون أن يموتوا ولو موتا معنويا كما هو حادث عند من عطل العلم والاجتهاد وعمارة الارض ودحر الاحتلال وإقامة القسط . فما وصلوا إليه بإجتهاد في حادثة ليس فيها نص ولا فرع عنه من إجماع أو قياس هو مصلحة وحكمه حكم شرعي واجب العمل به والاستدلال به . المصلحة دليل شرعي معناه أن الله تعبدنا في الاغلب بالظن لا باليقين فيما هو من فروع الشريعة عقيدة وعملا وذلك حتى لا تتوسع الاجتهادات دون ضابط ديني صارم معقول فتتسيب الاخلاق وينهار البناء ولا تضيق تلك الاجتهادات دون مخرج من دائرة سعة ومرونة وتجربة ومراعاة حال فتتوقف الحياة والحركة وتموت النواميس فينا فنموت بدونها . المصلحة دليل شرعي تماما كالنص الصحيح الصريح في موضعه أمرا ونهيا لا مندوحة عن هذا وذاك كلما كان الامر مزينا بالحكمة موضعا وعملا ومما يؤكد ذلك أن الامر مصلحة والنهي مفسدة كما قال العلماء .

مثالان في كون المصلحة دليل شرعي شرعية الامر والنهي الصحيحين الصريحين لا يفتآن يطرقان بابي لكثرة إنشغالي بهما وربما لما عايشت من ضيق شديد بسببهما أولهما أن حادثة واقعية جرت لامرأة من سوريا تعيش في ألمانيا زوجها محكوم عليه بالسجن لاسباب سياسية من قبل النظام السوري فلا يستطيع مصاحبتها إلى سوريا ولها ولد أوشك أن يبلغ الحلم وأبوها على فراش الموت في سوريا وهي تستفتي ما يطلق عليه تجوزاعالما دينيا من علماء الخليج ومنهم فقهاء أجلاء وتشرح له الوضعية من أمن طريق وطائرة وحسن توديع عند السفر وحسن إستقبال عند الوصول بما وفرته ثورة الاتصالات من رفقة يؤمنها المحارم للمرأة كما لم يحدث يوما في تاريخ البشرية حتى على عهد الانبياء والرسل عبادا كانوا أم ملوكا فيصر العالم المزعوم على حكم الحرمة إلا أن يصاحبها زوجها فتفترسه المخابرات السورية بين فكيها كما يفترس الوحش الكاسر طريدة عزلاء فتضع المسكينة السماعة وصوتها الذي هدجه البكاء المر حسرة على أبيها الذي دنا أجله يمزق نياط القلوب . لو لم يقل المالكية وغيرهم كثير من قبل قرون عديدة

بالرفقة المأمونة لقلنا تحوط ذلك العالم المزعوم لدينه ولكن له في الفقه السالف ألف مخرج ولو كان يحيط بالرحلة أدنى شك في العدوان على المرأة وإغتصاب أمنها لبحثنا له عن المعاذير ولكن أصر لحمقه على إظهار الاسلام على مسمع من الملايين المملينة في صورة الدين القاسي المتوحش عدو الانسان والمرأة بصفة خاصة مبناه الحرمة والتحريم لا تداخله ضرورة ولا حاجة . قولوا لي بالله لو ترجم ذلك الكلام بكل تفاصيله وحيثياته لخمسين مليون أنثى ألمانية هل تعتنق واحدة منهن الاسلام يوما ؟

المثال الثاني متعلق بزكاة الفطر عينا أو نقدا وقيمة والقضية قال بها من كل من بعده وكل الفقهاء بعده ولادة كان عليه عالة لعلو كعبه وهو الامام الاعظم أبو حنيفة قبل قرون سحيقة ومازال كثير من المنتسبين لذات الضرب من علماء البلاط في الخليج يصرون على عدم جواز زكاة الفطر بغير العين ولك أن تتصور فقيرا مريضا ينصحه الاطباء بعدم تناول الارز لعاهة في معدته يأتي إليه وبعد فجر عيد الفطر وليس قبله زيادة في النكاية جاره الغني بمد من أرز ماذا يفعل به هل يلقيه إلى دجاجه أم يتوجه هو إلى السوق لبيعه في حين يتوجه الناس إلى مصلياتهم أم يلقي به في زاوية من البيت لا ينتفع به في يوم العيد وتصور لو أن ذلك الجار أعطاه كل جيرانه الاغنياء من عيون ما يأكلون لا نقدا ولا قيمة فهل يفتح بكل ذلك بقالة في داره أم يذهب بذلك إلى السوق وكيف يعرض تاجر على زبائنه من الارز مثلا سوى مد ومن سائر الاطعمة مثل ذلك هل يقبل عليه أحد أم يعدونه مجنونا أو عابثا وتصور لو أن أولئك الاغنياء من حوله نقدوه قيمة تلك الامداد من الاطعمة أليس يصبح قادرا على شراء ما يناسب معدته وشهوته ويكسي ولده يوم العيد وما ذا ينفعه لو لم يعط له كل ذلك قبل العيد بأيام حتى يتدبر أمره . بلى يتحول التدين عند هؤلاء طقوسا فارغة لا تحقق مقصدا من تكريم فقير ولا تحرير يتيم بل تزيده هما إلى همه وغما إلى غمه . تدبر معي يرحمك الله جيدا هذين المثلين الحيين الواقعيين ثم ع بنفسك قولة المحققين من فقهاء المقاصد الاجلاء بأن التقصيد تعليل وبأن المقاصد مصالح وبأن المصلحة دليل شرعي وبأن كل فعل لم يؤل إلى حسن أيلولته تكريما للانسان وتحريرا له هو غير شرعي .

كنت أنوي عضد هذه الكلمات عن المقاصد وقد أوشكت الحلقة الثالثة والاخيرة منها على التمام بكلمات من نور تزيد من تبيان المقصد من المقصد وذلك من مثل ما كتب الامام القرضاوي في كتابه كيف نتعامل مع القرآن الكريم في فقرة مقاصد القرآن وما كتب الامام الزرقاء في كتابه المدخل الفقهي العام عن مقاصد الاسلام وما كتب الامام الراغب عن ذلك في بعض كتبه ولكن أحسست بأن المجال ضاق عن ذلك وما ضاق إتسع كما قال الفقهاء فلتسعه صدوركم بالاطلاع الكافي على كل تلك الكلمات وغيرها في مظانها .

بقي أن أقول بأن لابن تيمية عليه الرحمة من الله سبحانه سبق إلى مراجعات في قضية المقاصد بغرض توسيعها في مجال الضروريات وما دونها أحرى وأولى بالطبع وتبعه من بعد في عصرنا الحاضر أكثر من بحث في المسألة المقاصدية وذلك على أساسين أولهما أن صياغة المقاصد كانت صياغة فردية أكثر منها جماعية في مستوى الانسان أبعادا ذاتية وعمرانية وثانيهما أن تلك الصياغة المقاصدية كانت متأثرة بإنفصال الحراك الاجتماعي والسياسي جزء منه عن الحراك الفقهي والعلمي الشرعي وهي ملاحظ مهمة نرجع إليها عند الحديث عن آخر فقرة في هذا البحث بإذنه سبحانه وهي فقرة آفاق مقاصدية مستقبلية .

المحور الثالث :

منهج الكشف عن المقاصد

يتكون هذا المحور من حلقة واحدة نختصر فيها القول بإذنه سبحانه ولا شك أن الحاجة لمعرفة منهج الكشف عن مقاصد الشريعة سيما عند الامامين الشاطبي وإبن عاشور أول وآخر من كتب في الموضوع على وجه الاستقراء والتجديد وليس على وجه التجميع والتركيب ... تنبع تلك الحاجة فيما يتعلق ببحث مقاصد العقيدة من كون المنهج في عمومه يظل واحدا مهما طرأت عليه التصرفات وفضلا عن ذلك فإن حسن الاطلاع على مختلف المسالك التي إستخدمها الامامان للكشف عن مقاصد الاسلام مفيد لكل طالب علم المقاصد والاصول عامة إذ يعد ذلك ضربة البداية وأبجدية عتبة ذلك العلم . ومعلوم كما أشرت إلى ذلك مرارا هنا بأن عملي هو حوصلة فيها من التصرف قدر صغير لما إستقر عليه الباحثان المقاصديان الريسوني والنجار ومنشأ ذلك التصرف أمران أولهما أن الباحثان ليسا على إتفاق كامل في قراءة ذلك المنهج عند الامامين رغم أن الجذر المشترك أوسع بكثير من مساحات الاختلاف وثانيهما هو التركيز على ما أستفيد منه في رسم منهج للكشف عن مقاصد العقيدة .

ومعلوم عند كل طالب علم قبل ذلك مسبقا بأن قضية المنهج في كل شئ وأمر دون أدنى إستثناء محددة بشكل كبير جدا حتى أنها تحدد في أحيان كثيرة سيما في العلوم الاجتماعية عموما رسالة المضمون محل البحث وكل غفلة عن قضية المنهج في سوق وبحث وقراءة أية فكرة فضلا عن نظام كامل أو نسق شامل قد تحدث من الزلل ما لا يحيط به ذلك الغافل وعادة مالا يقدم الباحث تعريفا عن منهجه المسلوك تاركا ذلك لمن بعده من القراء والناقدين ولا يخفى عن طالب علم بأن كثيرا من المواد العلمية و المضامين الفكرية سيما في ذات العائلة لا تختلف معطياتها العلمية كثيرا ولكن تختلف المناهج التي بها تساق وترسم وتفكك ويعاد تركيبها ثم ترسل على موجات البث ليلتقطها الناس من ذوي الاهتمام وأختلاف تلك المناهج لمعطيات لا تختلف كثيرا هو المحدد في رسم صورة عن الموضوع المطروق . فطبيعة المنهج

إذن محددة لحسن إرسال وإستقبال الرسالة من جهة ولوزن المادة الفكرية أو العلمية تقديما وتأخيرا وتكبيرا وتصغيرا مع ملاحظة أن كل مادة علمية ترسم في العادة في ثناياها طبيعة المنهج الذي تساق به وتقدم وترسل فإذا ما إختلفت معايير ذلك المنهج عن طبيعة تلك المادة فإن خللا ما يجب تلافيه .

أسوق في البداية المساحات المشتركة بين الامامين في منهج الكشف عن مقاصد الشريعة وهي أولا فقرة الاستقراء . الاستقراء معناه لغة جمع مختلف القراءات بعضها إلى بعض لتشكيل وحدة مقروءة تستخدم في توليد خلاصة أما إصطلاحا فهو منهج يقوم على تتبع المعطيات المقدمة ثم فرز عائلاتها وجمع متقارباتها ومماثلاتها ثم النظر في العلاقة الرابطة بين كل تلك المعطيات أو الادلة الجزئية لتوليد أدلة وخلاصات وحصائل أكثر شمولا وعموما . وكل ذلك متولد عن جذر قرأ الذي يعني جمع . فالجمع عمدة الاستقراء .

إشترك إذن الامامان في الاخذ بمنهج الاستقراء سواء عبر " تتبع الادلة والكليات الظنية والقطعية وقراءتها ضمن وحدات خاصة وعامة متكاملة وإستنباط مقاصدها " أو عبر تتبع النصوص ذاتها وتتبع المسكوت عليه منها . إشتراك الامامان في منهج الاستقراء طلبا لمقاصد الشريعة معناه إستخدام الملكات العقلية في مجالها لمعرفة إتجاه الشريعة ومختلف الرسائل التي تريد إرساءها في نفوس الناس وذلك في الحقيقة ينطبق على كل رسالة من أي مصدر كانت ولاي محطة إستقبال أرسلت إذ لابد أنها تحمل رسالة عامة وأحيانا رسائل جزئية ولابد لكل مهتم بإستقبالها من حسن إدراك ذلك حتى يفقه بقدر المستطاع الموقف المناسب إتخاذه .

كما إشترك الامامان في منهج الفهم والعمل بالاوامر والنواهي التي جاءت بها الشريعة ضمن منهج الكشف عن مقاصد الشريعة وهي النقطة الثانية محل الاشتراك وذلك يعني أن الاوامر مصالح والنواهي مفاسد مما يجعل الالتزام بها حسن فهم وحسن تنزيل سيما في الامور العادية للناس دون حالات الطوارئ والضرورات يحقق مقاصد ا لشريعة والمصالح المجنية للناس من خلال ذلك الالتزام سوى أنه ينبغي التحري دوما فيما إذا كان ذلك الامر صحيحا صريحا أو محل ظن فضلا عن وهم وكذلك النهي .

كما إشترك الامامان ضمن ذلك المنهج في فقه علة تلك الاوامر والنواهي وحسن فقه العلل مفيد دوما وخاصة عند تخلف المآلات المرادة للشريعة من وراء ذلك الامر أو ذاك النهي إذ حسن فقه العلة مصلحة عقلية معنوية في الحالات العادية لحياة الانسان يزيده ذلك حسن فهم ومتعة عقلية وحسن إعتقاد وتصديق ومناعة ذهنية ويذكي من إخلاصه وإتقانه وإحسانه في أثناء تأدية الامر أو إجتناب النهي وهو كذلك مطلوب حتما في حالات الطوارئ والضرورات التي لو جهل الانسان فيها العلة ومآلها لصرفها إلى غير مآلها المطلوب فيحدث عكس مقصود الشارع منه تماما أي تتحول الشريعة من رحمة إلى نقمة

ومن حركة تحرير وتكريم إلى حركة إستعباد ومهانة . طبعا مجرد الالتزام العملي من لدن من سماهم الناس بالمقلدين في فروع الشريعة يحقق مقاصدها ومصالحها ولكن ذلك لا يرتقي بهم إلى التحضر العقلي الممدوح في القرآن بكثرة وشدة ولكن الانكى من ذلك كله أن جهل علة تلك الاوامر والنواهي مفسدة محققة يوم يختلط الخير بالشر وهو الاكثر في الحياة العامة للناس وكذلك يوم حدوث الطوارئ فلا يستبعد أن يقتل الانسان نفسه حقيقة لا مجازا لجهله بعلة الحكم وهو يظن أنه يلتزم بالشريعة وهذا حدث ويحدث .

تلك هي إذن بأختصار مناطق الاشتراك في منهج الامامين للكشف عن مقاصد الشريعة أي أن ذلك المنهج عندهما يقوم إشتراكا على ثلاث فقرات كبرى عظمى مقدمة وهي : الالتزام بالاوامر والنواهي ومعرفة عللها وإستقراء الشريعة . وهو منهج كما ترى يجمع بين الاتباع والتجديد . منهج عمدته النص القطعي الثابت والاجتهاد من لدن الانسان في محلات الاجتهاد . وبذلك جمع ذلك المنهج بين الحسنيين : حسنة تقديم النص كلما كان صحيحا صريحا إلتزاما عمليا وفقها لعلته كلما كان ذلك ممكنا عقلا وهو الاغلب إلا في تفاصيل قليلة جدا وصغيرة جدا لا يضير العقل جهل الحكمة منها وله أن يقول أن الحكمة منها هو العبادة المحضة والاتباع المخلص والدينونة المطلقة وحسنة الاجتهاد فيما هو محل له عبر الفقه وعبر العمل . وتلك هي الوسطية المقاصدية التي تلفى المنهج الاسلامي بعمومه يتوخاها عرضا ودعوة وحوارا .

إلى جانب ذلك الاشتراك من لدن الامامين في منهج الكشف عن مقاصد الشريعة تلفى تركيزا من جانب هذا أو ذاك على نقاط أخرى من مثل إعتماد اللغة العربية دليلا هاديا إلى معرفة تلك المقاصد وهو أصل فقهي معتبر في فهم النصوص والمقاصد وواقع حياة الناس وليس في كل الحالات محل خلاف بينهما ولا بين كل عالم وطالب علم . كما تلفى في ذات الصدد إعتبار بعضهم لسكوت الشارع مغزى وهو مقصود عند من قال به عدم الابتداع في العبادات وإجراؤها على كيفياتها وصورها المعنية في قوله عليه السلام " صلوا كما رأيتموني أصلي " و" خذوا عني مناسككم " . كما هو مقصود من ذلك عند بعضهم أيضا بأن المسكوت عنه من لدن الشارع هو مقصود للشارع أي مقصود إجراؤه على مقتضى الاصول المنصوص عليها من جهة وعلى مقتضى هاديات العقل والتجربة والمصلحة والعرف وتواضع الناس من جهة أخرى . فالقول إذن بأن المسكوت عنه فقرة مهمة في برنامج منهج الكشف عن مقاصد الشريعة قول صحيح وفق المعنيين المذكورين أعلاه وذلك على أساس أن العبادات معللة في أصولها ومبادئها وذلك بصريح العبارة في كل العبادات الطقوسية المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج أي في القرآن والسنة معا ولكنها غير ذلك في تفاصيلها وخاصة تلك المتعلقة ببعض الصور والهيئات وخاصة في الصلاة والحج بخلاف

الموزونات والمكيلات عامة فهي معقولة المعنى وذلك أدعى إلى القول بأن مقصد محاربة البدعة سيما الذي خصص له الامام الشاطبي عملا ومؤلفا ضخما هو الاعتصام كان وراء القول بأن العبادات غير معللة ولك أن تتصور المسألة حين يكون المرء متأثرا في عصره ومعايشاته بما يلقاه من إبتداع جلي واضح فيما لا يحتمل سوى الاتباع من مثل صور العبادات ولكن التفصيل في العبادات بين أصول معقولة المعنى معللة بالنص الصحيح الصريح وبين فروع وتطبيقات غير معقولة المعنى مهم وذلك بالرغم من أن الاولى عندي هو القول بأن كل شئ معلل أبدا دون أدنى إستثناء حتى صور وهيئات العبادات وكل مادق من تفاصيلها وذلك على قاعدة أن ما لم يكن معقول المعنى إنما مقصده الاسنى خلوص الاتباع وحقيقة التصديق وإسلام القلب وحصول الخشوع والانابة والتقوى وهي مقاصد عظمى كبرى يقينية مطلقة عامة جاءت بها الشريعة في كل أمر ونهي ودليل جزئي وكلي مبثوثة بالنص والاستقراء في كل موضع . فلم الاقتصار على منهج الفقهاء في إهمال البعد الروحي من الصياغات القانونية للفقه ولم لا تعالج قضايا القلب وحالات النفس جنبا إلى جنب مع حالات الجارحة ؟ إن ذلك أجدى بالفقه والمقاصد كليهما وهو بالمقاصد أحرى توسيعا لدائرة الدعوة .

فبالخلاصة فإن منهج الكشف عن مقاصد الشريعة عند الامامين عليهما رحمته سبحانه يقوم على ثلاثة مسالك كبرى هي الاوامر والنواهي من جهة وفقه عللها من جهة أخرى وإستقراء الشريعة بالتفصيل والجملة لمعرفة إتجاهاتها العامة من جهة ثالثة فما كان من المقاصد مبثوثا بالعبارة والاشارة فهو معلوم وما كان لابد من الكشف عنه فالاجتهاد طريقه . وما عدا ذلك مما إختلف فيه الامامان في ذلك المنهج فيتعلق عادة وفي الاعم الاغلب بتفاصيل وجزئيات المنهج ومن ذلك مثلا أن هذا إعتمد الاستقراء بكثرة وبمنهج مغاير لما إعتمده ذاك أو أن ذلك فصل أكثر من غيره في ضروب صياغات الاوامر والنواهي وما شابه ذلك وكل ذلك لا ينقص من القول بأن معالم المنهج واحدة في مجملها ذات ثلاثة أعمدة كبرى جمعت بين المنطوق والمفهوم وبين النص والعلة وبين الاتباع والاجتهاد وبين الجزئي والكلي أي جمعت أطراف الوسطية الاسلامية المنشودة .

تنبع أهمية التذكير بذلك المنهج بمعالمه الثلاثة الكبرى لمواجهة تيارين بارزين في الامة اليوم أحدهما يهمل النظرة المقاصدية في الشريعة إلتزاما بزعمه بالنص وكأن النص كيان جامد ميت خاوي الوطاب لا يحمل نبضا ولا يبعث برسالة ولا يتفاعل مع داعيات واقع الناس بشتى ضروب التعامل وثانيهما يهمل أولوية النص ومركزيته في البنية التشريعية الاسلامية وأحقيته في تصريف حياة الناس بما يحمله من مقاصد إستصلاحية تحرر الانسان وتكرمه إلتزاما بمنهج الاستقراء بزعمه وكأن الاستقراء عملية عقلية لا ترتكن إلى أصل ثابت ولا تستند إلى نظام تعليلي صارم في الكون والخلق والاجتماع .

إستئناف نظرية المقاصد من الجويني والغزالي والشاطبي وإبن عاشور بمزيد من التثبيت والاجتهاد كفيل بإجراء الحوار العلمي المطلوب بين كل تلك التيارات من جهة وبتحقيق الوسطية المقاصدية الاسلامية وهي التي عناها عليه السلام بقوله " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ـ الصنف الوسطي ـ الذين ينفون عنه تحريف الغالين ـ وهو الصنف الاول ـ وتأويل الجاهلين وإنتحال المبطلين ـ وهما صنفان في الضرب الثاني ".

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الاولى : مقدمة أولية

توطئة لابد منها:

كل ما تقدم ضمن المحاور الثلاثة المنصرمة بسائر حلقاتها السبع كان بمثابة مقدمات عامة مهمتها إحتضان مادة هذا البحث في مقاصد العقيدة عبر تفكيك عناصره وتسليط الضوء بما تيسر من إختصار على قضيتي العقيدة والمقاصد ومنهج الكشف عنها .

تكمن أهمية هذا المحور الذي نحن بصدده في كونه يحاول تحديد معالم المنهج العقدي في القرآن الكريم فما معنى ذلك وما الحاجة إليه وما هي تداعياته ؟

المعالم هي الرسوم الدالة على الطريق والمحددة لاتجاهه أو على أي أثر كان بغرض حماية السالك من التيه ومن شأن المعالم في بحث القضايا النظرية إحتضان ما يليها من الجزئيات والتفاصيل ورسم المنهج العام لاي عمل . المنهج معناه مجموعة من المسالك والوسائل والخطوات المضمونية والاجرائية التي يعتمدها كائن ما لتيسير إخراج عمله إلى الناس بالصورة التي يريد .

القرآن الكريم خاصة دون السنة والسيرة عامة لاسباب نتعرض إليها بإذنه سبحانه في إبانها رسالته الاولى هي الاقناع بعقيدة التوحيد وما يلي ذلك مهما كبر شأنه أو صغر ليس سوى فرع عن تلك الرسالة الام فهل إعتمد القرآن الكريم في رسالته تلك مجموعة من الخطوات والمسالك يمكن أن تتبلور ضمن منهج معين يكتشفه كل من بذل جهدا صغيرا جدا في ذلك أم أنه نثر حشوده ومؤثراته نثرا كيفما إتفق وهل أن ذلك النثر على فرض وجوده غير مؤطر ضمن مجالات تكون منهجا يمكن أن يخضع لعملية نظر وقراءة وجمع وتبويب وإستنباط أم أنه مبثوث على نحو قد يتسلل إليه التناقض أو سوء العرض على الاقل ؟

البنية المضمونية فضلا عن اللغوية للقرآن الكريم معجزة بل هي أكبر أدوات ومداخل إعجازه سيما لو تذكرنا بأنه نص على ذلك الضرب من الاعجاز نصا بلهجة التحدي وطلب المنازلة أو الاذعان لما كان العرب يومها يتبطرون بصناعة الكلمة بكل مستويات أوزانها وسحرها تماما كما يتبطر الناس اليوم بما وصلوا إليه من إكتشافات علمية وإختراعات تقنية . وبناء على ذلك وعلى غيره فأن كل دارس للقرآن الكريم يلفى بيسر شديد بأن وسيلته في الاقناع بالتوحيد رسالته الاولى قامت على منهج واضح المعالم . فالقرآن الكريم إذن إعتمد منهجا معينا سنتعرض لتفاصيله في الابان بعد قليل بإذنه سبحانه عول عليه في حسن عرض رسالته وحشد سائر المؤثرات لنجاحها في مهمتها وهي تيسير محطات إستقبال صافية مؤهلة عصرية دوما مع بزوغ فجر كل عصر بل كل يوم .

الحاجة إلى الكشف عن ذلك المنهج تتوزع إلى مطالب عديدة منها الكشف عن الاعجاز القرآني في ذلك المستوى مادة وبنية لغوية ومنها خدمة مطلب الدعوة في النفس المتشوفة أبدا إلى طمأنينة نفسية وتصديق عقلي يبعثان فيها الارادة على التغيير وكذلك في الناس وأحوالهم ويتعين ذلك فريضة من لدن المسلمين المؤهلين لذلك يوم يكون الاسلام منظورا إليه إما رقما باهتا لا يصنع التغيير المنشود فلا يحرر المغتصب ولا يطهر المدنس ولا يكرم المهان أو أمرا ولى زمانه وفات أوانه أو عبئا ثقيلا وغرامة باهظة في وجه التطور والتقدم والتحضر .

السؤال الثالث الذي طرحته على نفسي في فتح هذه المقدمة التي نحن بصددها والمتعلق بالكشف عن تداعيات الكشف عن معالم المنهج القرآني العقدي هو الاهم ضمن الاسئلة المنصرمة وذلك لان هذا المحور ـ وهو جهد شخصي خاص أقبلت عليه ضمن رحلة تشبع طويلة بمنبجسات التدبر في كتاب الله سبحانه على ضوء ما أفدته من فقهاء وعلماء ترسخ بهم الايمان فيّ ـ هو البداية على درب الكشف عن مقاصد العقيدة ذلك أن مقاصد العقيدة هي في نظري متلبسة أشد التلبس بمنهج عرضها في القرآن الكريم بمعنى أن المنهج ـ كل منهج ـ وخاصة المنهج العقدي القرآني يرسم ملامح حية ومعالم بارزة لمقاصد ذات العقيدة فهما ـ أي منهج العرض وإتجاهات المقاصد ـ ينبجسان من مشكاة واحدة . هذا المحور الذي نحن بصدده إذن هو المادة الخام التي سنعتمدها في إبانها بإذنه سبحانه عند الكشف عن مقاصد العقيدة . وذلك يعني أن على القارئ متابعتي بإهتمام وملاحقتي بروح نقدية في هذا المحور بالذات لان تداعياته كبيرة فبقدر الاصابة هنا تكون هناك والعكس هنا دوما صحيح .

المنهج العقدي القرآني فيما رأيت يقوم على مجموعة من الاحالات وتم لي ذلك بنخل القرآن الكريم مرات عديدة بإعتماد التقييد والتبويب والتجميع وتوزيع سائر الحشود والمؤثرات المعتمدة منه وهو يعرض عقيدته على الناس ويقنع بها ترغيبا وترهيبا وحوارا ومقارنة ... توزيع كل تلك المادة على ما يناسبها من بوابات أسميتها إحالات ظنا مني بأن القرآن الكريم في عمومه الاغلب لا يعتمد التلقين المباشر بل يعتمد توجيهنا في معركته التوحيدية العقدية إلى مسارب مختلفة فهو إذن يحيلنا إليها أو عليها .

وفي نهاية العمل تجمعت عندي بعد عمليات إختصار وجمع كبيرة الاحالات التالية التي إعتمدتها منهجا عقديا قرآنيا رتبت عليه أمرين هما منهج الكشف عن مقاصد العقيدة وتعيين تلك المقاصد ذاتها :

ـ الاحالة على الكون

ـ الاحالة على التاريخ

ـ الاحالة على الانسان وهذه بدورها تنقسم إلى أقسام أخرى نتعرض لها في مظانها وخاصة :

أ ـ فطرة ونفسا

ب ـ نفي الاكراه

ج ـ الميزان

ـ الاحالة على النظام السنني والسببي

ـ الاحالة على مواكبة الحراك البشري في مختلف تجلياته

خمسة معالم كبرى بارزة يحيلنا إليها المنهج العقدي القرآني في رسالته التوحيدية تجمع بين الكون المنظور المبثوث المنشور بمادته المعدة للتسخير والتدبر وبين التاريخ المسجل لقصص الغابرين مرآة صافية عاكسة للماضي في مشاهد حية رمزية وبين النظام السنني والسببي المودع في الخلق الكوني والانساني مطردا لا يتخلف سواء كان شمسا جارية لمستقر لها أو قانونا إجتماعيا يسند العاملين وينصف الخاملين

وبين الحياة بين ظهراني أهل الوحي من تنزل عليهم يعايش مسالكهم ومتفاعلا معها مهما كانت طيبة أو خبيثة وآخر إحالة هي الاحالة على الانسان هل تعلم لم ؟ لان الانسان هو مركز كل تلك الاحالات فضلا عن كونه إحالة مستقلة فهو معني بالاحالة على الكون وعلى التاريخ وعلى النظام السنني وعلى حياته زمن تنزل الوحي .

خذ إليك هذه كلمة صغيرة كبيرة وإحتفظ بها إلى حين تعيين مقاصد العقيدة : يقوم المنهج العقدي القرآني في معركته من أجل التوحيد على الاحالة على الانسان فهو عنده الوسيلة والغاية معا .

وإلى حلقة تالية مع الاحالة الاولى على الكون دمت في حفظه سبحانه .

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الثانية : الكون محراب الايمان

تواضعنا فيما سبق على تسمية المحاريب التي تحتضن الايمان ثم تبثه في الانسان بالاحالات وذلك لان القرآن الكريم في معركته التوحيدية سواء مع التثليث أو التثنية أو الدهرية وكل ما شاكل ذلك يعتمد إحالة الانسان كلا متكاملا بسائر مكوناته الفطرية والمكتسبة على حقول مطلوب منه زيارتها فإن صدق وآمن ورضي فله ذلك وإن أبى فله ذلك أيضا سوى أن ذلك يمر عبر قاعدة مؤداها تفاعل الحرية مع المسؤولية فمن كان حرا تحمل مسؤوليته ومن فقد حريته لا سلطان لسائل عليه عملا بسنة الغرم بالغنم .

ما معنى كون محراب الايمان حقل لكسب الايمان وجني ثمار العقيدة ؟

قبل البحث عن المعنى لابد لنا من الاتفاق مسبقا على أن القرآن الكريم يصدق فيه حقا وعدلا أنه كتاب الكون المنظور المشاهد المحسوس الملموس ولا يغني طالب العلم أن يؤكد له ذلك كائنا من بلغ رشده وعلمه بل لابد له من ورود معاطن الشهد بنفسه ولم لا ؟ هل هي حكرا على طبقة معينة ؟ لا

فالناس سواسية مصدرا وعقلا ومؤهلات فطرية وحسية والكون لهم جميعا وضعهم له ولي النعمة سبحانه .

أجل يا سيدي تكاد لا تخلو سورة واحدة من سور القرآن الكريم وعددها يجاوز المائة من تعريج على مسرح واحد على الاقل من مسارح الكون وليس ذلك في المكي منه رغم عناية هذا بغرس ا لعقيدة أكثر مما عني بها المدني بل إن ذلك في كليهما مبثوثا منشورا وإني لادفعك دفعا إلى تحري ذلك بنفسك حتى تزداد إطمئنانا ولا عليك أن دامت رحلتك الاستكشافية في ثنايا القرآن الكريم بحثا عن معالم الكون ما شاء لها الرحمان أن تدوم فليس من رأى كمن سمع كما تقول العرب ونشدان الطمأنينة سنة إبراهيمية كريمة في شأن لو تحدث فيه كثير من الذين لا يوقنون من المسلمين لعد بعضهم بعضا متطفلا على ما لا ينبغي له أن يرتاد مراعيه إذ قال عليه السلام لربه " أرني كيف تحيي الموتى " وقال الكليم موسيعليه السلام في نكهة مماثلة " أرني أنظر إليك ".

أدعك إذن في رحلة إستكشافية للايمان في دوحات القرآن الكريم تبحث مستمتعا عن محاريب الكون المبثوثة في كل سورة وموضع وسياق ثم أنتقل بك إلى بعض من ذلك وبعض من مقاصد ذلك :

١ ـ تضاريس الكون تحمل علة العبادة :

" يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ".

لك أن ترجع إلى ذلك بنفسك في القرآن الكريم وستلفى بأن ذكر الكون بسائر تضاريسه من معالم بارزة كالشمس والقمر والنجم والسماء والارض والريح والجبال والبحار والاشجار مرتبط دوما بلهجة المن منه سبحانه من جهة وبلهجة التعليل من جهة أخرى وذلك كما هو بارز هنا في آية البقرة السابقة التي تريد القول بأن جاعل الارض فراشا والسماء بناء ومنزل الماء ومخرج الثمر الذي يكفل الرزق الذي يكفل الحياة بدوره ويلبي للانسان حاجة حب البقاء والعافية ... إن من خلق ذلك وجعله وسخره ويسره ومن به على الانسان دون أدنى قوة ولا حول منه هو الجدير حقا بالعبادة ولو لم يكن الامر كذلك لاكتفى بالدعوة إلى العبادة والتوحيد مثنيا على ذاته سبحانه دون الاشارة إلى المصالح المتحققة لذات الانسان من خلال تكون الكون وتسخيره . وعادة ما يعدي سبحانه ذلك التعليل بالاسم الموصول " الذي ". وكل ذلك معناه سيما أنه ملا القرآن الكريم ملأ عجيبا لا تكاد تخلو منها سورة واحدة كبرت أم صغرت ومهما يكن موضوعها ووتيرة موسيقاها ... أن الكون بتضاريسه ومعالمه ومحتوياته كفيل بالنسبة

لمن ينظر فيه بتدبر وتأمل مستمعا ومشاهدا ومتذوقا وشاعرا ومستنشقا بجلب العقيدة وتجديد الايمان بل يكفيك دوما طرح سؤال " من خلق هذا " و " لم خلق هذا " و " ماحق هذا علي " و" ماحقي عليه " و" ما الحكمة من كل هذا " الخ ... . ولك أن تعلم سيدي أن الارض فراش وثير ومهاد لين لستة مليارات اليوم من الانام ولمالا يعلم عده سواه سبحانه من الهوام والدواب والسوام والحشرات والنعم في البر والبحر والهواء ولما لا نعلم من الجن والملك ولمالا نعلم مما خلق سبحانه ... فراش وثير ومهاد لين لا يشعر واحد من هؤلاء جميعا بأدنى إضطراب أو إهتزاز رغم أنها تدور في حركة لا تهدأ حول نفسها بسرعة رهيبة وفي ذات اللحظة بسرعة أخرى حول الشمس وبعد ذلك كله هي معلقة في الهواء لا يمسكها وتد سوى طبقات كثيفة من الجاذبية تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم لا تصطدم ليلا بكوكب ولا يعثرها نهارا ضوء شمس تمر عليه الفصول والاعاصير والزلازل ولا تشعر بذلك أصلا ولا يعطل من حركتها شيئا والاعجب من ذلك كله أنها تسمى أرضا وهي في الحقيقة كوكب مائي بيضاوي الشكل متحرك أبدا في حركة دائرية لا حظ للتراب فيها سوى بقدر الربع فلا ينساب الماء على جنبابها فيهراق . بلى يا سيدي تدبر هذا مليا وإستعن على ذلك بما عن لك من منتجات العلوم المعاصرة في شتى التخصصات ثم حاول تحديد موقعك أنت من بين ستة مليارات من الانام دون مالا تعلم من غيرهم فوق ربع تلك الكرة المائية ثم حدد موقع تلك الكرة المائية الموارة الدوارة من المجرة الشمسية فتلفى أنها نقطة في جلد ثور ضخم ثم حدد موقع المجرة الشمسية في شبكة عنكبوتية من المجرات التي تصل حد البلايين المبلينة وما خفي عنا أعظم وأكبر وأجل فتلفى أنها ذات النقطة في ذات الثور ثم إسرح بخيالك بعيدا وإسأل نفسك بصدق وما ذا بعد ذلك هل يوجد وجود فإن أجبت بلى يجب أن يوجد وجود فقل ماهو فهل تلفى جوابا وإن أجبت بالنفي فقل كيف يقبل عقلي النهاية ثم أطرق كثيرا محافظا على خيط الخيال ومد باصرة العقل ثم إرجع به من حين لاخر إلى موقعك أنت أي كتلة من اللحم والشحم والعظام والعصب لا تطفئ جوعة ذئب مفترس ثم قل في نفسك " كل هذا مما عقلت ومما لم أعقل خلق من أجلي وأنا لا أساوي مادة فيه عشر معشار ذرة من بليون بليون ذرة " وعندها ستسبح ربك حتما وعندها يدخل الايمان في قلبك دون إستئذان وأطرده إن إستطعت وآنست في نفسك قوة شكيمة.

٢ ـ تضاريس الكون المبثوثة أمام الابصار والاسماع دلالات باهرة على الواحد الاحد الديان سبحانه:

" وإلهكم إله واحد لا إله إلاهو الرحمان الرحيم إن في خلق السماوات والارض وإختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الريح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون ".

لابد لك من ملاحظتين هنا : أولهما أن تقرير الحقيقة الوجودية الكبرى بداية أي تفرده سبحانه بالالوهية ورد مختصرا جدا دون تفصيل سرعان ماتلاه مباشرة تفسير ذلك وهو تفسير لم يشرح الوحدانية والرحمانية والاسماء والصفات بل ركز بالكلية التامة الشاملة على أثر كل ذلك ومظاهره في الكون وهو المنهج القرآني العقيدي بخلاف المنهج الذي ساد يوما لظروف معلومة إبان نشوء علم الكلام عند المسلمين ثم بقي صنما يطاف به بعد خمسة عشر قرنا لا تبديل ولا تغيير وذلك هو معنى قول بعض المفكرين المعاصرين بأن المسلمين اليوم يتعبدون بعقيدتين واحدة قرآنية إسلامية خالصة صافية والاخرى تراثية ملوثة لئن صلحت لزمن فما تصلح لاخر . الملاحظة الثانية التي لابد لك منها هنا هي أن السماء والارض تكررتا هنا في هذه الاية القصيرة جدا ثلاث مرات وذلك يعني أن الكون الذي يحال عليه الانسان لاختبار عقيدته وتجديد إيمانه وكسبه أصلا وإبتداء ليس كونا غيبيا يحكى عنه دون أن نراه ونلمسه وننتفع به ونستصلحه لحياتنا ونسخره لانفسنا وتقدمنا بل هو ذلك الكون الممتد على مد البصر بين السماء والارض فهو واسع شاسع فسيح لا يضيق فيه ولا به مخلوق ولا يزعم زاعم تعذر معالمه عن المباشرة . لذلك عقب على الاية الشارحة لعلة التوحيد ومقصد العبادة بعد حشد المؤثرات الكونية بقوله بأن تلك المعالم آيات أي علامات وأمارات وشهود ودلائل على الايمان بالنسبة للذين يستخدمون آلة العقل.

فالسماء والارض والليل والنهار والفلك والبحر والدواب بما فيها الانسان وسائر ما يدب عليها والريح والسحاب والماء أي الغيث ... كلها أمارات عقلية لا نقلية محسوسة ملموسة فيها منافع للناس كما قالت الاية على أن عقيدة التوحيد عقيدة صحيحة سليمة تهرع إليها العقول السليمة .

٣ ـ تضاريس الكون موضوعة للتسخير والتدبر معا وتلك هي رسالة الكون في الدين والدنيا :

ثمةحقيقة لابد لك منها وهي أن الدنيا بكونها وسائر ما فيها مخلوقة لك أنت تحديدا بالذات لا لغيرك فهي جنتك في الدنيا غير أنها جنة من ضرب آخر اللذات فيها مقرونة بالالام وذلك أمر يتطلبه الامتحان لكل ممتحن . وذلك معناه أن الكون خلق لك أنت تحديدا بالذات من أجل مقصدين إثنين لا ثالث لهما أولهما ديني يتمثل في بسط مسارح الكون أمام حسك وفؤادك للتدبر والتأمل والعظة والاعتبار لعلك إن سلكت المسلك العقلي تكسب ما يسعدك من الافكار والمعتقدات وذلك هو الايمان الكفيل بجعل الانسان إنسانا سعيدا دوما حتى في أحلك فترات ألمه وضنك عيشه وثانيهما يتمثل في بسط ذات المسارح الكونية تسخيرا لك تستخدم مرافقها لمآكلك ومشاربك ومناكحك ومساكنك ولذائذك في المناظر والمشاهد والمسامع والملامس والمناشق والمشامم والمراكب والملاعب والمعالم وهل تقدم الغرب اليوم

سوى بعد أن سخر الكون المسخر له في خدمة العلم والطب ورفاهية الانسان وهل تأخر العرب سوى بعد أن حرموا السفر يوم الاربعاء تطيرا واللعب ليلا والاحتفال خميسا وجعلوا الاموات حكما على الاحياء من عروش قبورهم فينفثون عليها بعض الاطعمة ويطوي الاحياء جوعا . وفي ذلك قال سبحانه في ثاني الزهراوين " إن في خلق السماوات والارض وإختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ".

فالعقل إذن أداة كسب العقيدة عبر النظر في الكون سماء وأرضا وماء وبحرا وجبلا وليلا ونهارا . والتفكر أم العبادات لانها العبادة التي تنشئ الايمان وتثبت العقيدة وتملأ القلب تقوى وخشوعا والتفكر والذكر هنا واحد وليس ذنب الاسلام أن هرع الناس إلى الذكر العضوي المتمادي في الغفلة تمادي الذاكر في الذكر معرضين عن ذكر القلب وتدبر العقل من تداول الليل والنهار وسائر الامارات . ومن مظاهر التسخير العلمي لتضاريس الكون قوله" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ". فالعد والاحصاء والحساب مقدمات العلوم الكونية كلها بمثل ما كانت القراءة مقدمة العلوم الاجتماعية كلها وبها جميعا جاء القرآن حتيأقسم بالقلم وسطره وسمى به سورة وكان ذلك في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب حتى جعل منها أمة القيادة والريادة والشهادة على الناس بالرسوخ في العلم الديني والكوني سواء بسواء لا بحجة القوة المتجبرة .

٤ ـ تضاريس الكون ومحاريب الايمان فيه أولى بها مسالك العلم لا التقليد ولا الاهمال :

"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به من ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ".

ربما يحسن إيراد هذه الاية وأضرابها عند الحديث عن الاحالة على محراب النظام السنني السببي معلما من معالم المنهج العقدي القرآني ولكن السحر الغلاب في أي القرآن الكريم هو أن كل آية تقلبهاعلى ما شئت من وجوه العلم والعرفان فتلفاها فيه فيصلا حاكما كأنها عروس نظرية المعرفة التي ضل فيها الناس اليوم سيما في زمن دعارة العلم وفجور المعرفة . ولك أن تلاحظ في صدد الاحالة على تضاريس الكون ومعالمه لكسب الايمان وتجديد العقيدة أن مفردات السماء والارض والماء أكثر ورودا من غيرها وذلك للاشارة إلى أن عملية الاحياء المستمرة للارض تأتي دوما من إنزال الماء من السماء وكذلك عملية إحياء القلوب الصدئة المهترئة المسحوقة بوطأة المادية الحمقاء الخرقاء الكالحة العجفاء تمر دوما عبر ماء

الهداية الرحمانية وهي من ألطف الاشارات القرآنية بل ألطفها مطلقا وهي قرينة إشارة مصاحبة مفادها أن الاحياء الذي يستبعده الذين لا يوقنون من الناس يجري على حياتهم الارضية في كل لحظة من ليل ونهار من خلال إنزال الماء وإخراج الثمرات . ثم يعقب بقاعدة عظيمة لا تتأخر مفادها أن العلم هو الطريق الوحيد للخشية والتقوى والعبادة كلاهما يخدم الاخر وهو سبب له ونتيجة في ذات الان أما سبل الالهام الكاذب أو التقليد الاعمى فضلا عن عدم المبالاة وإهمال النظر وعن تلبيس الدجل لبوس العلم كلها سبل ملؤها الخطل وأتى بصيغة الحصر والقصر في ذلك وزينها بصيغة الاستمرار عبر فعل المضارع مقدما محل الخشوع والتقوى والعبادة والتوحيد دوما ليكون على وزن " إياك نعبد " لتحرير قضية إرتهان العلم بمسلك العبادة وهي أكبر آية يمكن أن تدمغ جيشا من المتعالمين اليوم يملؤون الكون طنينا كطنين الذباب القذر يستعلون بعلومهم ويستخدمونها للصد عن الحقائق الكونية البارزة وأكرم بها من فرية . فالكون إذن حتى يكون مسرحا صالحا لكسب الايمان وتجديد العقيدة لابد له من إنسان مؤهل بأدوات العلم من حس وفؤاد وكل إنسان هو كذلك إلا من أبى تنشيط تلك المؤهلات غرورا أو غفلة . ولك أن تلاحظ أن العلم في القرآن دوما أو في الغالب يستدل به بعد عرض تضاريس الكون أي أن العلم في الاسلام علم كوني خلقي قبل أن يكون دينيا بالمعنى الضيق المتأثر بالمسيحية وكنائسها حتى لما تأخر المسلمون فرطوا في أصل العلم الذي هو أصل كوني يتوسل إليه كما هو هنا في هذه الاية بالجبال وبسنة التعدد والزوجية وإختلاف الالوان وتمسكوا بالعلوم الدينية الفرعية الصغيرة فكانوا كمن أمسك بذنب فيل لم يدرك عن خرطومه شيئا . وليس ذلك سوى لان العلم الكوني إنطلاقا من الجبال والارض والسماء والماء والدواب يكسب الايمان ويجدد العقيدة ثم تسلم هذه لمختلف فروعها من عمل وغيره أما البداية من النهاية فهي مؤذن على قرب النهاية .

ماهي الصارفات عن إتخاذ مسرح الكون محرابا للعقيدة ؟:

١ـ الالف والعادة وكلاهما سرطان ينخر العقول ويقتل النفوس ويكفن الانسان في خرقة بالية يزينها له حقبة من الدهر ويظل يربت على كتفيه كما تفعل الام الحنون برضيعها إبتغاء نومه حتى إذا مات الانسان تحقق فيه قوله عليه السلام ولكن بعد فوات الاوان ولات حين مناص " الناس نيام إذا ماتوا إستيقظوا ". وحتى لا يجعل سبحانه من سرطان الالف والعادة على الانسان سبيلا بنى كونه على الحركة والتغير والحياة فهي دوما موارة دوارة في كائناتها المادية والمعنوية فكل يوم تتجدد خلايا الانسان وجلده وحياته وشمسه وقمره وليله ونهاره وسائر من وما حوله لعله يعتبر بأن الالف والعادة لا مكان لهما سوى عنده إذا غفل وحملته سفينة اللاعوة إلى شاطئ الموت .

٢ ـ طغيان الشهوة وإستكبار النفس ولابد للناس من حسن الفقه بأن الانسان لئن قسمه الدارسون إلى أجزاء فإن ذلك لاغراض دراسية وإلا فهوكل متكامل تؤثر نفسه في عقله وروحه في جسمه وذوقه في حياته بل فرده في جماعته ونوع طعامه وشرابه وبيئته وهوائها في كل ذلك . تلك فرية إنطلت على كثير من الناس ومنهم المسلمين حين يقول القائل بأن فلانا ذوعقل حصيف ولكنه قتال للناس كذاب محتال وتلك تبدلات للفطرة السليمة أخبر عنها عليه السلام لما قال " يأتي على الناس زمان يقال فيه للرجل ما أظرفه وليس في جوفه حبة من إيمان " . الانسان مبتلى في هذا الكون الفسيح بتركيبته المزدوجة فنفسه الامارة بالسوء دوما فضائية تشويش على عقله فهي ترضى السكينة والدعة دوما وتتوق إلى ما يلبي شهواتها والاسلام رحمة بتكاليفه وليس بحياده عن ذلك فالسلبي لا تعرف رحمته من قسوته أما صاحب المشروع فتعرف رحمته من قسوته من خلال معرفة تكاليفه وسائر أدوات نظامه .

٣ ـ السدر وراء سراب الغفلة وإهمال النظر والتفكير والله سبحانه أكرمنا بفضيلة العقل لنفكر وننظر ونسبر الامور ونقيم الاشياء ولا تجوز الغفلة سوى في حق النائم الذي رفع عنه قلم التكليف وما لابن آدم لا يغفل لحظة واحدة عن حياته فيظل يعمل لصونها من كل المهلكات بكل ما أوتي من قوة ويجلب لها سبل السعادة بمثل ذلك وكيف يغفل عن عقله يطلق له عنان تفكره فيما حوله وكيف تهز الانسان أصداء زلزال مدمر فيهرع إلى تأمين حياته ولا يهزه مطلع الشمس من بطن ليل داج وغروبها بعد تألقها في ظلمة جديدة وهو حدث يتكرر كل يوم على مرآى ومسمع منه وكيف لا يهزه ضوء القمر يتنزل منازل عديدة وكذا الليل والنهار وشيبته هو في ذقنه تشتعل عليه ألما وحسرة وما لا يحصى من موانع الغفلة على قلبه .

٤ ـ الاقبال على منافع الكون ومصالح الدنيا إقبال الوحش الكاسر المفترس لا يلوي سوى على إشباع بطنه ولذة فرجه ولو نظر الانسان في البهائم من حوله ثم قارن نفسه بها وبحالها لادرك أنه مكرم عليها بنعمة العقل فلم يطمس عقله فلا يجعله يتغذى من منافع الكون تدبرا وتأملا حتى فيما يضع في فيه وفرجه .
فبالخلاصة إذن فإن المنهج العقدي القرآني أحالنا أول ما أحالنا لكسب العقيدة وتجديد الايمان على محراب الكون الواسع الشاسع الفسيح بجباله وسمائه وأرضه وأنهاره وبحاره ودوابه ومائه وشجره فإن تدبرنا فيه هدينا وإن إستخدمناه لمنافعنا ومصالحنا شبعنا وأمنا وإن فعلنا الاثنتين حققنا فينا مراد خالقه وخالقنا فينا . وأجدد نصيحتي لك بإستنباط ذلك بنفسك من القرآن الكريم تزدد تصديقا وتتجدد إيمانا وتدرك حقيقة معنى قولي بأن الكون وضعه الخالق سبحانه مسرحا للايمان ومحرابا

للعقيدة ولكن ذلك يتم عبر الانسان جسما ونفسا وعقلا وذوقا . فالاحالة على الكون ولكن بواسطة الانسان ذاته .وخلاصة الخلاصة الاولى هي أن الله إستودع الاسلام الانسان خير حافظا له بعد تعهده هو سبحانه بحفظ أصله من الذكر وأولى مستودعات الانسان في الاسلام هو مستودع الكون.

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الثالثة : التاريخ حقل خصب

المحراب الثاني الذي إعتمده الخطاب القرآني منهجا للدعوة إلى عقيدة التوحيد هو محراب التاريخ وذلك عبر القصة ويمكن أن نقول بإطمئنان كبير بأن أكبر معالم ذلك المنهج كما ـ والكم هنا في خطاب لا يأتيه الباطل له دوره المعتبر ـ هي الاحالة على الكون والاحالة على التاريخ .

لو ألقينا نظرة إحصائية تحليلية مختصرة جدا عن القصة في القرآن الكريم لالفينا بأن عدد القصص تجاوز العشرين قصة دون إعتبار القصص النبوي المحمدي وما حام حوله زمن نزول الوحي وأن أطول قصة على الاطلاق هي قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل. هي أطول قصة تداولا من ناحية وتوزعا على ما يزيد على ثلاثين سورة في القرآن الكريم وتبادلا لعرض مشاهدها الكثيرة في كل مرة وسورة بما يقتضي السياق والرسالة الخاصة الجزئية من ذلك وأن أطول مشاهد تلك القصة الاطول في القرآن الكريم هي المشاهد السياسية بتعبيرنا المعاصر أي المشاهد التي تعرض الفرعونية تارة مع موسى عليه السلام وتارة مع بني إسرائيل إلى غير ذلك من مختلف المواقف . أما لو تحدثنا عن مجال القصة من زاوية الجرد العام لموضوعها في القرآن الكريم فسنلفى بأن القصة تكاد تستحوذ على محاور ثلاثة بوجه ما وبشئ من التجوز وهي : قصة آدم في مختلف مشاهدها ثم قصة موسى كما سبق آنفا ثم قصة إبراهيم عليهم السلام جميعا . أما قصة إبراهيم فتكاد تتمحض بالكلية تقريبا لقضية التوحيد وخلوص الاعتقاد وذلك مفهوم بإعتبار أن الابراهيمية يومها وإلى يوم الناس هذا وربما إلى يوم القيامة محل نزاع بين الديانات السماوية بل وغير السماوية أحيانا وصرح القرآن بذلك تصريحا في قوله " ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما " وذلك ردا على دعواهم في نسبة شركهم سواء كان تثليثا أو من ضرب " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " إلى إبراهيم عليه السلام لذلك كان محور إبراهيم عليه السلام في القصة القرآنية متمحضا بالكلية تقريبا لقضية خلوص التوحيد لله سبحانه . أما قصة موسى عليه السلام فبالاضافة إلى بعض التفاصيل الواردة آنفا فإن رسالتها العامة يتقاسمها فريقان : بنو إسرائيل وأتباع الدين الجديد وذلك على خلفية أن جدار الصد الاكبر ضد الاسلام كان ـ ولن يزال في الاغلب والله أعلم ـ يتشكل من بني إسرائيل وذلك من زاويتين أولهما زاوية فساد العبادة وزور التدين سواء عند من سماهم المغضوب عليهم لمعرفتهم بالحق والازورار عنه تفصيا منهم وفتنة للناس أو عند

من سماهم الضالين لقصور عقولهم التي توقفت عند طريقة ميلاد عيسى عليه السلام فألهته وألهت أمه . أما الرسالة العامة لاتباع الدين الجديد من خلال محور قصة موسى ضمن المحور القصصي القرآني عامة فهي قوله " أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر " وهو الدرس الذي إستوعبه أتباع ذلك الدين الجديد فأستحقوا وسام الخلافة وشرف الامانة . أما قصة آدم عليه السلام فمحورها العام ورسالتها يمكن توزيعها على ما يلي : التكريم الذي حظي به دون الملائكة إلى حد الاسجاد وزوجية التكوين الذي أهله للصعود إلى منصة الاختبار وعلاقته بالشيطان في تطهير نفسه وإتباع الحق وعمارة الدنيا .

على أنه من الاهمية بمكان أن نشير إلى معطى آخر شديد الدلالة وهو أن بني إسرائيل ولئن كان مشهدهم وافرا في قصة موسى وهي أطول قصة بكل مقاييس الطول كما شرح آنفا فإنهم كانوا عماد المحور الاخر من محاور القصة القرآنية إذ إحتلوا نصيبا وافرا في قصة إبراهيم ونصيبا آخر وافرا في مواضع أخرى كثيرة من القصة القرآنية خارج تلك المحاور الثلاثة إذ كانوا موضوع ثماني قصص كاملة أي حوالي ثلث القصة القرآنية فإذا أضفت إلى ذلك بأن موسى عليه السلام ذكر في القرآن أكثر من مائة وعشرين مرة أي بما يساوي أضعافا مضاعفة لكل من ذكر من الانبياء والمرسلين وغيرهم مجتمعين صدقت القائل بأن موسى عليه السلام وقومه بني إسرائيل ذهبوا أو كادوا بالقرآن الكريم وهي خلاصة صحيحة من حيث المعطى الكمي ولا بد لنا من إستجلاء دلالاتها .

من المعطيات الاخرى المهمة عن القصة القرآنية أمران أولهما أن أغلب القصة القرآنية قصص نبوي من مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف ولوط وزكرياء ويحي وداوود وسليمان ويونس وإسماعيل وغيرهم عليهم السلام جميعا وثانيهما أن الرسالة المحورية لاغلب ذلك القصص بل كله بوجه ما هي رسالة بث عقيدة التوحيد وإبطال ما سواه . ومعلوم كذلك أن أغلب الانبياء ذكرا من ناحية ومن إرتبطت بهم القصة القرآنية من ناحية أخرى هم من أنبياء بني إسرائيل سيما لو إعتمدنا ذلك التقسيم بعد مجئ إبراهيم عليه السلام وهو الانسب فالحاصل إذن أن بني إسرائيل وأنبياءهم شكلوا محور القصة القرآنية التي شكلت بدورها محور الرسالة القرآنية العامة بما هي أكبر إحالة ومحور إلى جانب إحالة ومحور الكون كما تقدم .

ومن المعطيات كذلك أن قصة يوسف هي الوحيدة التي تمحضت لها سورة واحدة وسياق واحد حتى أن بطلها يوسف عليه السلام لم يذكر فيما عدا ذلك سوى مرة واحدة عرضا دون أدنى تركيز وهو عرض يكاد يكون مخالفا لسنة القصة القرآنية بالكامل لو إستثنيا قصة أهل الكهف ومنها كذلك أن قصة

عيسى سيما فيما حف بولادته من البتول مريم عليها السلام إحتلت حيزا غير يسير سيما في سورتين إثنتين وقع فيهما التركيز بالكلية تقريبا على ذلك الحدث ودلالة ذلك مفهومة لمواجهة عقيدة التثليث ليس زمنها فحسب ولكن على طول الزمان والمكان .

من المعطيات المهمة جدا كذلك عن القصة القرآنية خلوها من تعيينات الزمان والمكان وأسماء الابطال وسائر المؤثرات الجانبية إلا قليلا جدا لا يكاد يذكر وهو أمر له دلالته القصوى في عبور إحالة التاريخ ضمن المنهج العقدي القرآني لمعطيات الزمان والمكان والحال والعرف وسائر المتغيرات وحفظ عبرة الدرس ومغزى الواقعة التاريخية للاجيال اللاحقة .

المطلوب مني ومنك سيدي القارئ الكريم الاحتفاظ بكل تلك المعطيات الصحيحة عن القصة القرآنية موقعا ضمن الخطاب القرآني ومضمونا داخل محور القصة ذاتها وذلك حتى يتسنى لنا جميعا الانتهاء بالخلاصات المناسبة والحصائل المرشدة .

من مقاصد القصة القرآنية بحسب التعبير القرآني :

" لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ". القصة القرآنية إذن بما هي إسترجاع لذاكرة التاريخ مقصدها جني العبرة من أحداث الماضي مهما كان بعيدا من لدن العقول التي تجيد فن الاستماع وفن التحقيق في المرويات وفن النخل والسبر وتلك العبرة مفيدة في تفصيل الحياة الحاضرة كسبا للهدى وإستمطارا للرحمة وجلبا للايمان . ولك أن تلاحظ معي أن القصة من وظائفها الكبيرة هنا تفصيل كل شئ فما هو الشئ الذي تفصله القصة وهل تحمل سوى أحداثا من التاريخ السحيق وكيف نطلق على تلك الاحداث التي لا نعرف لها زمانا ولا مكانا ولا شخوصا ولا أية ملابسات كبيرة كانت أو صغيرة أنها تفصل حياتنا المعاصرة بل تفصل كل شئ فيها . الاجابة الصحيحة على ذلك السؤال الصحيح محدد إلى درجة لا تضاهى في تحديد رسالة المنهج العقدي القرآني ضمن إحالة التاريخ .

"وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك " . الاحالة على التاريخ مقصدها إذن تجديد الايمان وغرس فسائله الندية الطرية مع مطلع كل فجر في الافئدة وبذلك تتقهقر إلى السفح أكذوبة تطور

الانسان على نحو يفقد فيه بعضا من ملكاته الفطرية الاصلية أو تنضاف إليه أخرى غير معهودة فالنفس البشرية هي هي لا تتطور من حيث تركيبتها جملة وتفصيلا من حيث مقادير غرائزها وأولوياتها .

" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين " . من مقاصد القصة أو الاحالة على التاريخ إذن نفض غبار الغفلة البشرية عن تقصي أخبار الماضي ونبأ من قبلنا ولذلك تجد الامم والشعوب اليوم ودوما حريصة على إقامة النصب والمراسم والاحتفالات بعدد من ذكرياتها وأحداثها التاريخية الغابرة تستعلي بها على غيرها ومن شأن الغافل عن الماضي العجز عن إدارة حاضره والتخطيط لما يستقبل بحكمة التجربة وعظة الخبرة .

ما معنى كون القصة التاريخية تصلح أن تكون حقلا من حقول الايمان ؟:

بعد تلك التطوافة المطولة نسبيا في البنية القصصية في القرآن الكريم نحن أمام خيارين إما أن نفصل في القصة محورا عاما تفصيلا إستجلاء لحسن الجواب عن سؤال هذه الفقرة وإما أن نأخذ عينة من مجموع قصص يزيد عن العشرين من مثل قصة موسى مثلا عليه السلام أو غيره وإما أن نحيل القارئ الكريم على القرآن الكريم بقصد الاختصار وتجنب الاطالة والاسهاب ثم نبني تحليلنا في هذا الصدد في مقام كون القارئ الكريم إطلع على أي قصة في القرآن الكريم وخاصة قصة موسى أو عيسى أو إبراهيم أو آدم عليهم السلام جميعا أو قصة الكهف أو يوسف أو غير ذلك مما فصل فيه القرآن الكريم ولو يسيرا وذلك لان منهج التفصيل هنا ربما يرهق القارئ ولا تحتمله حلقة بل حلقات متتالية علما بأن العدول عن ذلك إلى أسلوب الاستخلاص المبني على إفتراض أن القارئ حصل على ما نريد من إطلاع لاهو مأمون دوما ولا هو مريح كذلك ولكن تلجؤنا إليه ضرورات الاختصار .

يقول إبن خلدون عليه رحمة الله سبحانه بأن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الاخبار ولكن في باطنه نظر وتحقيق ومعنى ذلك أن الناس بالنظر إلى الموقف من التاريخ والماضي والقصة أيا كانت مطلقا صنفان أحدهما لا يزيد عن الاستمتاع بالسرد ومتابعة الحلقات تماما كمن يشاهد فلما أو مسلسلا محكيا بالصوت أو بالصورة أو بهما معا في وسائل الاعلام الحديثة لا يقصد من ذلك سوى قتل الوقت على حد تعبير الموتى أو التسلية والترفيه وثانيهما يحكم أجهزة إستقباله فيحكم الاستماع والتقصي والربط والتجميع والنقد والمقارنة معتبرا ذلك غذاء لعقله ونفسه فإما أن يكون صالحا فينصلح به حاله وإما أن يكون فاسدا فيفسده وثمة صنف ثالث يلغي دعوة التاريخ من إهتمامه بالكلية . القصة التاريخية

كما رأينا في حلقات ماضية من هذا البحث تنتمي لعالم المرويات ووسيلة العلم إليها هو صحة النقل ومطلوب من حاستي السمع والفؤاد الاشتراك في نخل تلك المرويات وحسن سبرها ومن ثم بناء موقف فكري وعملي على ضوء صحتها أو بطلانها ومعلوم أن التاريخ يشكل حيزا كبيرا من إهتمام الناس قاطبة تقريبا في كل الاعصار والامصار فتجد الموغلين في ذلك كما تجد القابضين والمتوسطين والمتوسطون يختلفون كذلك فمنهم الذي يجمع بين صحة الرواية والانتفاع بالدرس المناسب للعصر ومنهم غير ذلك ولكن لم تخل أمة ولا عصر أبدا من الاهتمام بالتاريخ القومي لها أو الخاص بها فالتاريخ إذن بالخلاصة الاولية الكبيرة يشكل مكونا كبيرا محددا من مكونات الشخصية الجمعية لهذه الامة أو تلك الطائفة وذلك بقطع النظر عن صحته من بطلانه وهو بذلك المعنى ذاكرة كل أمة ومرآة كل شعب حتى أن من لا تاريخ له أو كان تاريخه سودته الخيبات يستحدث له تاريخا يتباهى به بين الامم والشعوب . فالاحساس بالتاريخ إذن فطرة بشرية سيما على معنى الاعتزاز والافتخار وبناء الامجاد ومن ذلك أن الانسان ينسب لوالده ذكرا كان أم أنثى بحسب عادات الناس وكذا لقبيلته وبطنه . وعلى ذات الاساس قام المنهج القرآني العقدي بانيا خطابه القرآني على قاعدة أن أكبر أو ثاني أكبر محور فيه هو محور الاحالة على التاريخ الذي هو تاريخ البشرية جمعاء أي تاريخ البحث عن الهوية الدينية التي عادة ما تشكل أم الهوية إذ لم تخل أمة قط منذ آدم عليه السلام من نزعة تدين مزيفة كانت أم حقيقية ولذلك كان التاريخ القرآني في شكل قصص نبوي كله تقريبا فحتى مشركي قريش وهم من هم في الكفر العاري من كل منطق مهما يكن سقيما كانوا متدينين بوجه ما وذلك لما إدعوا النسبة إلى إبراهيم عليه السلام في الطواف بالكعبة مثلا بله عن سائر مناسك الحج ومراسم الاحتفاء بالكعبة وكذلك لما إدعوا نسبة الالهة المزعومة إلى الاله الحق سبحانه وذلك هو ضرب من التدين وإن يكن مغشوشا وما كان من لدن اليهود والنصارى كان أوضح مثالا في شراسة التمسك بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام وذلك يؤكد لنا بأن الشعور بالانتماء التاريخي فطرة بشرية شأنها شأن سائر الفطر والملكات وبأن القرآن الكريم قام على مراعاة تلك الفطرة تلبية ولكن بأفق إنساني أرحب وأوسع وأشد إنفتاحا فبنى منهجه العقدي على الاحالة على التاريخ بقصصه النبوي ليصحح الصورة التي حرفها العرب واليهود معا وليوحد الناس حتى على إختلاف دياناتهم على كلمة سواء تقدم التوحيد الصافي وتسل فتائل الخصام وتمهد للتعايش السلمي المشترك لعمارة الارض وفق سنة التدافع والتفاضل والانتخاب .

ولو فصلنا قليلا لادركنا بأن قصة موسى عليه السلام مثلا وهي أطول قصة إنما يقوم وتدها على ركيزتين كبيرتين أولهما أن أشد ضروب الطغيان البشري الكفيل بإحلال الفتنة التي هي أشد وأكبر من القتل

محل الحرية هو الطغيان السياسي الذي يرمز له يومها فرعون وفرعون ليس شخصا بعينه ولكنه مؤسسة سياسية مقدسة يتداول عليها أبناء أسرة متسلطة كلما هلك والد ورثه على رقاب العبيد وهم من بني إسرائيل ولد ودلالة ذلك هي أن مقصد الاسلام ليس إرغام الناس على دين ما ولو كان الاسلام ولكن مقصده هو إزالة الفتنة بما هي صد للناس عن حقهم في حرية الاختيار وأول وسائل تلك الازالة هي إزالة الفرعونية أي المؤسسة السياسية المتسلطة على رقاب الناس تقول بلسان الحال أو المقال " أنا ربكم الاعلى " و " ما أريكم إلا ما أرى ". وإستبدال ذلك بمؤسسة سياسية منتخبة بأي شكل من أشكال الاصطفاء على أن روحه دوما هي حرية الناس . أما الركيزة الثانية في قصة موسى عليه السلام فهي أن بني إسرائيل الذين فضلهم الله سبحانه على العالمين في زمانهم إنما سلبت منهم الخلافة وأوسمة التفضيل العالمية بسبب ظلمهم المركب فهو ظلم تمثل في إنحياز طائفة منهم للفرعونية الظالمة على حساب قومهم المقهورين كما تمثل في حملهم لالوية الغدر حيال أنبيائهم الذين هم منهم فلم يكن عصيانهم لهم عن جهل كما هو حال النصارى ولكن كان بسبب مرود على النفاق والكذب سول لهم ضروبا من التحايل على الحق لم تعرفها البشرية في تاريخها الطويل وهو عصيان فكري بائس لا يلجأ إليه إلا أشد الناس إسفافا ويختلف عن مجرد العصيان السلوكي وحتى الفكري سواء عند المسلمين أوعند المسيحيين أو عند المشركين وسائر أنواع الكفر الاخرى وهو عصيان فاق حتى ضروب الالتواء والازورار الذي عمل به المنافقون على عهده عليه السلام وفي كل عهد سيما من بعده . فالقصة إذن تحمل درسين لوارثي النبوات والرسالات أولهما أن الظلم إذا إندلع في ساحة المؤسسة السياسية الحاكمة وتحول إلى فتنة تئد حق الناس في إختياراهم وحرياتهم ما ينبغي سوى شن حرب ضارية ضروس ضده وكل توان وصمت عن ذلك هو عين المهكلة وساعة الناس يستوي من غالب مع من داهن وثاني الدرسين هو أن بني إسرائيل ورثوا ضربا من التحايل على البشرية في غاية القبح واللؤم والوقاحة بسبب رغبة فيهم جامحة للثأر لما يعدونه مجدا نبويا تليدا مسلوبا منهم بغير حق فما ينبغي أن يمكنوا في الارض فضلا على أن يكونوا بطانة للصالحين أو حلفاء لهم في أي معركة كانت .

أما قصة إبراهيم فمحورها كماسبق هو خلوص التوحيد وهو خلوص يقوم على النظر العقلي من لدنه تمثل ذلك في مجادلته للنمرود في سورة البقرة وإستخدامه عليه السلام لطاقات ذهنية بالغة الذكاء والدهاء والحيلة أفحم بها عدو الله وإضطره إلى معاقرة الفساد الذي أودى بملكه كماتمثل ذلك في نظراته الثاقبة في الكون الفضائي في رحلة عقلية عجيبة هدي بعدها بإذنه سبحانه إلى الحق المبين كماتمثل ذلك في نشدانه للطمأنينة النفسية من خلال مشاهدته بأم عينيه لعملية إحياء الموتى وكذلك في إرادته العالية

التي حملته على تنفيذ أمر ربه له بذبح إبنه إسماعيل فلذة كبده بمدية في يمينه وفي علو كعبه الجامع بين خلوص ا لتوحيد وبين إستخدام الحيلة الاسلامية المطلوبة وهو الامر الذي جعل قومه بأسرهم يستيقنون في أنفسهم حقيقة ما يدعو إليه سوى أنه إضطرهم كما إضطر النمرود إلى أرتكاب الحمق الاسود وحل بهم الهلاك . والدرس من القصص الابراهيمي في القرآن عامة هو أن التوحيد معركة عقلية ونفسية طويلة الامد تشترك فيها السياسة والعمل الشعبي مع حدة الذكاء وإتساع الحيلة وهو توحيد لا يتوقف عند حدود الاضرحة والموتى والقبور بل يتعداها إلى باحات السلطان النمرودية مرورا بالعمل الدعوي الشعبي العام .

أما قصة آدم فمحورها هو أن الشيطان حقيقة ضمن سنة الابتلاء الربانية وقانون التوازن الكوني ولئن كان كيده ضعيفا فهو مسخر دوما لغواية إبن آدم ولئن إختلفت مظاهر الغواية وسوسة وتسلطا فإن الثابت أنه عدو لابن آدم يثأر دوما من معركة قديمة في الجنة الاولى ولا يهون من تلك الحقيقة وتداعياتها على الانسان أن الانسان اليوم أو غدا فريسة سهلة القنص في حبائل ذلك العدو وأشد الاعداء ما كان لا يرى ثم تستر الشهوات آثاره الدامية . فالعبرة إذن من قصة آدم عليه السلام هي التكريم الرحماني لذلك الكائن الجديد مختلف التكوين وسطا بين الملك وبين الشيطان وهي كذلك جدلية المعركة الدامية التي لا يهدأ لها أوار بين الانسان وبين الشيطان .

أما قصة مريم عليها السلام وعيسى عليه السلام فتحمل إلينا القصور العقلي الذي عليه أولئك الذين ألهوا ولو جزئيا عبدا سواء لانه ولد من غير مس من ذكر أو لانه ولد من غير أب إذ بدل أن يكون ذلك دليلا على قوة الله سبحانه غير المحدودة وتصريفه لخلقه بما لا يعلم سواه من الصور والاشكال والمسالك وأمارة على بدائع عظمته كان ذلك الحدث سببا في ضلال ملايين مملينة يزحمون اليابسة في كل زمان ومكان وهم اليوم مثلا مثل المسلمين عددا وأحيانا أكثر عددا والدرس من ذلك لنا هو أن توقف العقل في عمله الطويل عند الجزئيات التي لا تستكمل رحلتها نحو كلياتها وحقائقها الاولية وعللها الاساسية مثلبة لا تليق بالانسان وذلك فضلا عن كون القول بأن المسيح الصليب يحمل على عاتقه ذنوب أتباعه إلى يوم القيامة فرية أخرى لا تستقيم عقلا قبل عدم إستقامتها دينا فيكف يجمع الناس اليوم بين ذلك وبين حضارتهم المبنية على الحرية والمسؤولية ؟ ذلك هو الوهم الاكبر وذلك هو الازدواج المؤدي بحياة قامت على العرج والحول .

فالخلاصة إذن في خاتمة هذه الاحالة على التاريخ ضمن معالم المنهج العقدي القرآني مؤداها أن القصة القرآنية حقل خصب إعتمده الخطاب القرآني لكسب العقيدة الصحيحة وتجديد الايمان وذلك على أساس أن التاريخ ذاكرة الناس ومحط إفتخارهم وأن شبكة السنن الحاكمة في الكون بإذنه سبحانه لا تتخلف أبدا فهي دوما مطردة لا تحابي هؤلاء ولا تسخط عن أولئك وأن فن القصة من الزاوية الفنية المحضة فن عرفته كل الحضارات سيما الحضارة العربية قبل الاسلام إلى حد التأهل لصناعة الكلمة العربية على غير مثال سابق وهو فن كفيل بصقل الاذواق وتقريب الحقائق وبسطها أمام العقول منداحة يسيرة وأن رسالة القصة القرآنية عموما متركبة من حشد المؤثرات لقضية التوحيد ومن تذليل العقبات أمام ذلك وخاصة عبر إزالة عقابيل الفتنة السياسية التي تحجز عن الناس حرياتهم وتكبت إراداتهم .

في التاريخ إذن حقل خصب للايمان كسبا وتجديدا وهو الامر الذي قام عليه المنهج العقدي القرآني وهي إحالة تحرر الانسان من آسار التقليد الاعمى ومن قبول المرويات المزيفة وبناء الاوهام الكاذبة وتكرمه بحسن إستخدام آلة السمع والفؤاد لنخل الحقائق وسبر المعطيات وهي إحالة بطلها الانسان فهو من يستخدم الاحالة على الكون وهو ذاته من يستخدم الاحالة على التاريخ وفي كلا الحقلين يجني عقيدة صحيحة وإيمانا صحيحا

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الرابعة : النفس طفلك فأحسن الرضاع وأحسن الفطام

ليس ثمة أروع في النظام الاسلامي من خصيصتي الشمول الافقي الكمي إستخلاصا لمملكة المالك الحق سبحانه من طغيان الطواغيت والتوازن العمودي الكيفي تلبية لسائر حاجات ومطالب المملوك الحر تفضلا غرمه المسؤولية . أولم تفشل سائر الانظمة بسبب إخلالها في رعاية تينك الخصيصتين غير أنه فشل حافظ على حد أدنى من الوجود لما كان داخل ذلك النظام البديع ذاته فالهارع إلى كهوف التصوف السلبي نشدانا للطهر وإن زكى نفسه نظريا فإنه كمن ظل طول حياته يعد خيله ليوم الكريهة فلما قرعت ساحته هاله ما عاين بأم باصرته وولى هاربا لا يلوي على شئ ومثله الكارع من صنوف العلم وضروب المعرفة لا يعجزه أن يبث لكل طالب حاجته منها وزيادة فإذا ما تعرض لاول صدمة نفسية بسبب مصيبة مفاجئة إهتز وإنسحق تحت مطارق الالم النفسي فغدا خرقة بالية تطؤها الاقدام القذرة بعد ما كان في عيون الناس جبلا أشما . إحدج من حولك تلفى من هذا وذاك كثرة كاثرة ثم قل في نفسك : ألم يكن هذا قمينا بالسعي إلى توازن في شخصيته دون إجحاف من عقل على نفس ولا من نفس على عقل تأهبا

لصارفات الايام المتقلبة تقلب الماء في مراجله الغالية . إما إذا ما نظرت من حولك خارج ذلك النظام البديع فإنلا لاف عجبا عجابا من لدن من يسعى ليل نهار لتلبية لذته البدنية وغروره المتكبر ثم يضن على نفسه بغدوة يطلق فيها سراح روحه لعله ينفض عنه أثقالا مثقلة من الحزن والكآبة والقلق الذي يكاد يلقي به في مهاوي ردى الانتحار كلما إزدادت ثرواته وتبرج ماله .

الاحالة على الانسان هي قلب المنهج العقدي القرآني :

دعنا نقرر ذلك بوضوح منذ الان قبل فوات الاوان لعله يساهم في رسم كيان عمراني للمنهج الذي نحن بصدده . خلاصة ذلك الامر هي أن مختلف الاحالات من لدن القرآن الكريم في سعيه لبسط عقيدته أمام الناس منطلقها الانسان ووسيلتها الانسان وغايتها الانسان وموئلها الانسان فالاحالة على الكون وعلى التاريخ أي القصص وعلى النظام السببي والسنني في دنيانا وعلى مواكبة حراك الناس زمن الوحي ... كل تلك الاحالات التي إعتمدها القرآن وهو يبسط العقيدة ويقنع بها ـ كما ترى معي الان بجلاء ليس بعده سوى العمى ـ بطلها الانسان فهو المدعو إلى النظر في الكون لكسب العقيدة وتجديد الايمان والتسخير وهو المدعو إلى النظر في التاريخ الانساني عبر ملأ القرآن بالقصة وهو المدعو كما سنرى في حلقات قادمة بإذنه سبحانه إلى النظر في العالم السنني وفي معالجة الوحي لحراك الناس زمن نزوله . ذلك الانسان هو ذاته الذي ترجع إليه أصداء كل تلك الاحالات كأنه جهاز مزود بعدد من المنافذ المطلة على ما حوله تلتقط الخبر والصورة والحدث عامة ثم تجري عليه إختباراتها وفحوصها ثم تقرر في شأنه الموقف المناسب فنظره في الكون يجني منه ثمرة وكذلك في القصة وشبكة السنن ... . فالانسان إذن حيال كل الاحالات القرآنية التي توخاها لغرس العقيدة في الناس هو بطل المشهد منطلقا وعملا ومرجعا وثمرة . إذا كان كل ذلك كذلك فأضف إلى ما تقدم هذا : الانسان منتصب في الكون ينظر فيه دون عناء الالتفات فكل شئ مبسوط أمام ناظريه ثم تأتيه الاخبار تترى وهو منتصب دوما لا يغذ سيرا ليس مطلوب منه سوى شحذ آلة السمع ثم آلة الفؤاد وكذا في عالم السنن والاسباب ... إن ذلك الانسان ذاته مطلوب منه اليوم النظر في كون نفسه وقصة حياته وملكة عقله . نظر في الكون فجنى شيئا ثم في التاريخ الغابر فجنى شيئا فلم لا يكمل رحلة النظر ولكن بنفسه في نفسه وهل يحسن الانسان أمرا أكثر من إتقان النظر بنفسه في نفسه . تلك هي موضوعة هذه الحلقة وما يأتي بعدها ضمن الاحالة على الانسان وهو أمر لا يترك أدنى إعتراض على قولنا بأن الانسان هو بطل المنهج العقدي القرآني بأسره منطلقا وكسبا ومرجعا وثمرة . تلك هي أكبر قاعدة نظرية دار عليها البحث في مقاصد العقيدة إلى حد الان : الانسان هو محور العقيدة .

العلم بالنفس مفتاح السعادة والجهل بها نار الشقاء :

ربما بالغت في التركيز على ذلك في مواضع أخرى من مثل " الانسان ذلك المكرم " وما سواها مما لا أذكر تحديدا مواطنه مما يجعلني هنا ألتزم الاقتصاد ما إستطعت دون أن أمل من توجيه الدعوات الحارة ـ صيحات نذير عريان ـ إلى كل قارئ كريم بأن يفتح مصحفه الشريف متتبعا أثر محور كبير في ا لقرآن الكريم وعيا وتسجيلا وهو محور مشاهد القيامة في القرآن الكريم وسائر ما تعلق بالحديث عن النفس في تقلباتها العجيبة السريعة في السراء والضراء سواء بسواء. دعني أبسط لك شيئا من ذلك لا يغني أبدا عن تولي الامر بنفسك فما حك جلدك سوى ظفرك كما قالت العرب . ودعني قبل ذلك أذكر بأن بث القرآن الكريم لمشاهد القيامة نعيما وعذابا يوم القيامة أمام الناس في هذه الدنيا وبثه لمشاهد تقلب النفس بوتيرة وشكل وأسباب ليس لادوات اللسان والقلم من سبيل لمجرد وصفها لفرط تناهي دقتها وإزورارها وخبئها وتناقضها في ذات اللحظة ... دعني أذكر بأن كل ذلك تعرفه كل نفس بشرية مطلقا لان المخاطب لها هنا هو صانعها الذي صنعها وركب فيها تلك التقلبات العجيبة حتى لتنصرم أحيانا فيها تخوم الايمان والكفر فلا يكاد يفصل بينهما سوى خيط رقيق دقيق شفاف لو تعرض لنفخة نسيم من جناح بعوضة لا ترى سوى بالمجاهر العصرية المتقدمة لانصرم ... ولذلك قال سبحانه عن ملأ فرعون وينطبق الحال على كل نفس توغل في التقلب " فجحدوا بها وإستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ". ولذلك فإن دنيا الافكار وعالم النظريات والحجج والبراهين التي تفحم العقل إفحاما فيؤمن بها لانها من جنس عمله لا تفعل فعلها في النفس وهي مغايرة للعقل رغم إحتواء الانسان عليهما في خليط عجيب مدهش وسبب ذلك هو أن إستجابة النفس لا تأتي عبر البراهين ولكن عبر مجال عملها وهو حسن العرض الذي يتجنب أي إساءة تجرح كبرياءها ولو كان منا من يد عليا دفعتها الرحمة إلى غوث محتاج شديد الحاجة . بلى لو كان منا لم تفح رائحته التي لا يلتقطها سوى صاحب اليد السفلى سوى في آخر لحظة قبيل إنبساط اليد لتناول حاجتها . فالقرآن الكريم إذن وهو يعالج النفس في كل أحوالها ترغيبا وترهيبا ورقة وزجرا ولينا وغلظة بالفضيحة المغلظة المكشوفة أحيانا وبالتستر أحيانا إنما هدفه دغدغة مشاعرها وإثارة عواطفها لتحبيب الخير إليها وتكريه الشر وبناء هيكلها على نظام خلقي عماده الشكر والصبر وهما قوام النظام الخلقي الانساني بأسره ومصداق ذلك دينا " إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والاناة " فالحلم هو الشكر والاناة هي الصبر ومصداقه واقعا خلاصات تجارب الناس . القرآن الكريم إذن وهو يعالج النفس البشرية يتسلل إليها من مداخلها المؤثرة وهي تحديدا الترغيب لتحصيل ما تنشده من لذائذ وشهوات ولذلك يبسط لها نعيم الجنة في الاخرة ويعرض عليها قصصا وأمثالا ترغبها في

ذلك لكسب سعادة في هذه الدنيا وهي بعد الترغيب الترهيب لتجنب ما تكرهه من آلام ومصائب ولذلك يبسط أمامها في لوحات فنية رائعة الجمال أخاذة ساحرة سلابة عذاب النار يوم القيامة ومصائر الشقاء مقدمة لذلك في هذه الدنيا . إن ذلك المدخل للمعالجة هو الانسب لقربه من الطبيعة البشرية المبنية على النفور إلى اللذات وإن تكن مهلكة مأفونة العواقب وعلى النفور من الالام وإن تكن نافعة مأمونة العواقب وبالخلاصة هنا فإن العلم بحقيقة النفس البشرية على النحو الذي صنعت عليه صنعا هو مدخل التربية وبوابة التزكية وعماد ذلك الجمع دوما بين الترغيب والترهيب وبين خلقي الشكر والصبر وفي المقابل فإن الجهل بذلك أو تنكبه مضلة مضلة .

مشهد تبادل التبرئ بين أخلاء الدنيا يوم القيامة:

" إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين إتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين إتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار ". هل ثمة أقسى على كل نفس بشرية تعيش اليوم في الدنيا من تمثل مشهد مهين مماثل؟ إن ما يحمل النفس البشرية على نبذ تبعات مثل تلك المشاهد المخزية سواء في الدنيا أو في الاخرة هو ماركب فيها من ماء العزة وحب الذات وبذرة التكريم وهو ماء مخلوط في ذات التركيبة النفسية البشرية بماء الرخص وتحمل الاذى والوسطية الاسلامية المهيمنة على كل شئ وأمر تقتضي أن يكون الماءان معتدلين فإن طغى ماء نبذ الاهانة على ماء قبولها ما عرض مجاهد نفسه للاسر وسقطت ضروريات حياة الناس وعم الفساد وإن طغى الماء الاخر إستحال الانسان المكرم عبدا مملوكا لعبد مثله يسوده ويبيعه في سوق النخاسة . لذلك نلفى القرآن طرق تلك البوابة من مداخل النفس البشرية لايقاظها على فجر التحرر من الاستعباد وهو يقول لها بأن الكون والتاريخ وسائر الاحالات والمحاريب مبسوطة لكل الناس الذين هم جميعا سواسية في خلق الرحمان إبتداء وتكوينا ورسالة أما النهاية فالناس وحدهم يملكونها لا يملكها غيرهم فلا داعي إذن رغم ضائقات الدنيا ونكباتها إلى إهانة النفس بذلة الاتباع إلا لواحد فحسب في الحياة بأسرها وهو الرسول عامة ومحمد عليه السلام خاصة بما هو خاتم . وحتى ذلك الاتباع له عليه السلام ليس فيه حبة خردل لا من تقليد ولا من إهانة .إن هذا المشهد المخزي يسوقه المنهج العقدي القرآني لاثارة حمية الكرامة في النفس البشرية وهي لاشك تنتفض إنتفاضة الثائر النحرير إذا أعتدي على عرضه . يسوق القرآن ذلك المشهد المهين في لوحة فنية حية لا يخيل لكل قارئ ألقى السمع شهيدا سويأن القيامة فلم مصور تصويرا حيا دقيقا مفصلا مؤثرا منقولا عن حقيقة مادية ملموسة . قلت في نفسي يوما : لم تندمج مشاعر المشاهد في فلم أو أي عمل فني مصور إلى حد الحلول والاتحاد فيبكي مع الباكي ويسعد مع

الساعد كأنه بطل العرض الحقيقي لا المصور ثم يظل ذلك الحالّ باهتا شاردا شاحبا ينظر من مكان بعيد ويسمع من جبل أبعد إذا ما عرضت عليه الصور الفنية الساحرة من القرآن الكريم عن لذائذ جنة تهفو إليها النفوس غريزة وجبلة وعذابات نار تتجنبها حبا في البقاء ؟ هل العيب في عارض تلك اللوحات أم في نفس المعروضة عليه . قرأت كثيرا لعدد من أصحاب التجارب الكبيرة في علم النفس من مثل علمين على رأسيهما نار " دي الكارنيجي " الامريكي المعروف بمعاهده التي تحمل إسمه و" إبراهيم الفقي " العربي المشهور بإنتاجه الخصب فإرتسمت في ذهني قاعدة حكمت فيها قول بعض الحكماء " العلم هو ما بقي في ذاكرتك بعد نسيان كل شئ " وتلك القاعدة يقنت في نفسي لشدة تأثيرها فيّ ولكثرة ما جاء في الوحي الكريم يصدقها وهي قولهما بأن النفس البشرية هي التي تصنع صورة العالم من حولها لا تصنع الصورة المادية ولكنها تصنع أثر تلك الصورة فيها فإن كان ذلك الصنع حسنا من لدن النفس كانت الصورة المادية حسنة تقبل عليها النفس بتفاعل إيجابي حتى ليضحيان عبدين لخالق واحد يؤديان ذات الدور وإن كانت الاخرى كانت الاخرى حتى ليحل النشاز الكوني محل التناسق فيه وتلك هي علة الشرك به سبحانه أعظم الاثم طرا . وعبر عن ذلك شاعر بقوله " كن جميلا ترى الوجود جميلا " .

مشهد تعذيب تقشعر له الجلود ولا تحتمل النفوس مجرد ذكره فضلا عن عرضه مفصلا:

"كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ". لابد لي ولك من الاحتفاظ بالخيط الناظم لهذه الفقرات التي ينفرط مني أحيانا عقدها فأنخرط دون شعور في إسهاب وتوزع وذلك الخيط هو كون عرض بعض مشاهد القيامة التي إستخدمها القرآن الكريم ضمن منهجه العقدي إنما يقصد منه التأكيد على فكرة قوامها أن الانسان مطالب بالنظر في نفسه ما يستطيبه وما يؤذيه ثم يمد ذلك النظر على إمتداد مراحل حياته وبعدها متدبرا في أن ما طاب له هو يطيب قطعا لاخيه الانسان مطلقا وما آذه هو يؤذي ذات الاخ مطلقا وهو شعور يحجز الظالم عن ظلمه ويدفع المصلح لاصلاحه . ذلك الخيط قوامه أن القرآن الكريم بعد أن دعا الانسان إلى النظر في الكون ثم في التاريخ أي القصص يدعوه إلى النظر في ثنايا نفسه ونسيجها المعقد ومرجلها المتقلب فهو لا ينفك يرغبها بنعيم الجنة ويرهبها من عذاب النار لان ذلك أدعى لاذعانها وأنفع لها وتلك هي الموعظة المؤثرة أي التي تدخل على النفوس دون إستئذان فلها في أعماق النفس أصداء وأخباء إن باشرت شغافها حصل التلقيح فحملت النفس بييضة الخير تماما كما يحدث في الكائنات المادية سوى أننا نلمس أثر ذلك وليدا ملموسا أما في إثر اللقاح النفسي بماء خير الموعظة فنلمس برد خير أو سعار شر . أليس حقا أن النظام الديني هو جزء لا يتجزأ

من النظام الكوني وأن المادة والروح لا ينفصلان إلا كما إنفصل سديم الارض قديما عن سمائها ليؤدي كل واحد منهما دوره ضمن سمفونية راقصة سابحة مسبحة تجري لاجل مسمى ومستقر مسمى .

لك أن تقرن المشهد السابق المتعلق بتبرئ المتبوع من التابع بالمشهد الحاضر لتدرك أن إهانة الانسان لنفسه بجعلها ترضى بالاتباع لكل ناعق بحق أو بباطل هو الذي عرضها لمصير من العذاب المادي والنفسي الرهيب . هو عذاب نفسي لان صاحبها يدرك بالتجربة الحية في النار بأن جلده إذا ما أكلته النار سيتجدد ليعذب مرة أخرى دون إنقطاع فلا أمل له في النجاة وهو عذاب بدني لان الالم الذي يحط على الجلد مهما كان صغيرا ترفعه شعيرات وريدية متناهية الدقة بسرعة لا توصف إلى مركز الجهاز العصبي في رأس الانسان فتحدث حالة طوارئ عامة في كامل البدن الذي إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى فهو في عذاب كامل شامل غير موضعي ولا محدود وفي عذاب نفسي وهو الاشد لانه يعلم يقينا بحكم التجربة الاولى على الاقل بأن الجلد الناضج يستبدل بآخر جديد لادامة حالة التعذيب . هل ثمة إنسان يحمل ذات النفس التي يحملها كل إنسان يطلع على مثل هذه الصورة المؤلمة جدا ثم يصر على إثم الاتباع مثلا ؟

مشهد الموت في القرآن الكريم كفيل بزرع الرهبة من الظلم زرعا ناميا :

ذكر القرآن الموت ومشاهده كثيرا غير أنه أسهب نسبيا في موضعين على غير العادة وهما موضعا قاف والقيامة . عندما يذكر ساسة التربية النفسية مختلف الوعاظ المحيطين بالنفس يذكرونها دوما بما هي مقبلة عليه يوما غابت عنها فيه بالكلية كل مشاهده ومواقفه وملابساته فلا تعلم كيف تموت ولا أين ولا متى ... عندما يذكرون ذلك يبدؤون عادة بواعظ الموت حتيأن القرآن الكريم لم يحاول إقناعنا ولو مرة واحدة بالموت لانه مشاهد كما أنه لم يدعنا ولو مرة واحدة إلى الاكل والشرب لانه غرس فينا ذلك جبلة ولم يكن قوله " وكلوا وإشربواو لا تسرفوا " سوى قصدا لعدم الاسراف الذي عادة ما يصاحب الاكل والشرب . بلى يذكرون واعظ الكون وواعظ الحدث الماثل وواعظ التاريخ ولكن سيد الوعاظ كلهم هو واعظ الموت حتى قيل كفى به واعظا ومن أجل ذلك أمرنا عليه السلام بكثرة ذكره وليس بمجرد ذكره وبزيارة القبور وبالمناسبة حتى للنساء كلما كن مكلفات بأصول الدين والعلم مثل شقائقهن من الرجال وما أغمض فيه من لدن من يكون بعضهم يوم القيامة محل براءة من أتباعه بتهمة التزوير ليس سوى قول على الله ورسوله بغير حق وأكرم به من إثم عدل الشرك بل هو الشرك ذاته كلما

كان الشرك ظلما عظيما . سبب حيوية ذكر الموت والاكثار منه وإرتياد مواطنه من مقابر وتفكر في أحداثه وغير ذلك هو كون الانسان مجبول على غريزة حب البقاء التي هي أكبر غريزة في الانسان وهي التي تفسر سائر بقية غرائزه ومنها الغريزة الجنسية ولك أن تنظر معي الان كيف أن الاسلام يعالج ما يمكن أن ينشأ من ظلم وبغي وعدوان من قبل النفس الكادحة لضمان البقاء أي بحتمية الموت ولكنه ليس موت اليائسين والمنتحرين والمستقيلين من الحياة بل هو موت قال فيه رسول الاسلام عليه السلام " الموت تحفة المؤمن " هوموت الجسم وحياة الروح لذلك قلت فيما سبق بأن الانسان بهذا المعنى لا يموت خلق للخلود من جنة ماقبل الارض إلى جنة الارض بالنسبة للمؤمن دون غيره إلى جنة الخلد وملك لا يبلى .

" وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ..." ثم يسهب المشهد في عرض حي مؤثر لك أن تراجعه بكل تأن وتوقف وتدبر وتأمل في سورى قاف . إنه ليخيل إلي بأن نفوسنا في قبضة سجان يغفل عليها أحيانا في هذه الدنيا فلا يؤنبها إلى قليلا وربما لا يعاقبها بالمرة رغم الاشارات الحمراء الواضحة ولكن إذا نفخ في الصور أمسك ذلك السجان بتلابيبها ثم ألجم فاها وأوثق عقالها بالاصار والاغلال الحديدية الثقيلة وألقى بها وحيدة معزولة في سيارة كل ما فيها يوحي باللؤم والشؤم وسوء المصير يقودها ملك غليظ شديد تتوعد نظراته وسائر حركاته وسكناته كل من حوله وهي كطير مهيض الجناح لا يتسع لها مكانها مغلولة مكممة الفم بين سائق السيارة وبين قرينه ومساعده حتى لالتقاط نفس في يوم قائظ خانق تكاد تقع فيه الشمس على رؤوس الخليقة لا ترى فيه عليمدى البصر سوى نفوس مقبوض عليها مغلولة موثوقة مكممة يحيط بها ملكان غليظان شديدان يكادان يسطوان بها قبل بلوغ باحة قفص الاتهام وإنتصاب المحكمة التي لا يتسع مكانها لملايين مملينة من الشهود ضدها جاؤوا يومها بالذات للانتقام منها فالارض تقول ظلم أديمي والسماء تشكو إلى ربها قسوة تلك النفس وما لايحصى من الناس والجنة والملك والنعم ومالا نعلم إحتشدوا كلهم شهودا ضد نفس تكاد تقضي قبل كل ذلك ولكنها لا تقضي .

"ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق وإلتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ". مشهد آخر من مشاهد الموت والايقاف في قفص الاتهام في المحكمة العليا والاخيرة لا إستئناف عليها و لا تعقيب . مشهد لا يحتاج لو تدبرت معي مليا لاي تعليق أبدا . مشهد يمكن لك أن تعيشه بكل جوارحك في هذه الدنيا . تسألني كيف ؟ أنظر فيمن حولك غنيا ثريا مترفا يسعى في الارض فسادا أو حاكما جبارا طاغية من سلالة فرعون أو قارون أو هامان أو حتى

من عتاة جنودهم وأرصد ساعة حتفه ثم إقترب منه قبيلها وبعيدها أكثر ما يمكنك الاقتراب وأرصد بعين الايمان وباصرة اليقين خلجات روحه وهو يودع ملكه قائلا بلسان الحال " ما أغنيعني ماليه هلك عني سلطانيه " وتدبر في كل تفاصيل المشهد مليا وقل " كم تركوامن جنات وعيون " و " فما بكت عليهم السماء والارض " . أنا ضمين وزعيم بأنك لو ظللت قريبا من إيمانك الذي صاحبك وأنت ترصد ذلك المشهد الحي لمن تعرف من الظالمين العتاة لولجت محراب العقيدة من بابه الرحب وباحته الاوسع . تسألني لم لا يذكر الناس الموت وينتفي الظلم ؟ لن يكون ذلك سوى مرة واحدة في حياة كل إنسان إذا بلغت التراقي وبلغت القلوب الحناجر وإستبدت حشرجات سكرات الموت بجسم سمين سمنه السحت كان صاحبه قبل ثواني معدودة في حال الحادث الفجئي مثلا يزرع الرعب في القلوب ويجعل الهامات السامقة الفارعة تتطأطأ ليس حبا فيه والله ولكن خوفا من بطشه أو طمعا في فتات مائدته حتى لتستوي راكعة ركوع المؤمن في الصلاة عندما يكون أشد إطمئنانا حتى لو نصبت فوق عجزه الراكع كوب ماء مترع ثمل لحسبته صار إلى ما صار إليه سليمان عليه السلام والجنة في رهقهم يكدون خائفين .

لو تسألني ما الذي يجعل الايمان في قلبي يطفح كيله حتى لكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا سبحانه لقلت لك بكل صراحة : هما أمران لا ثالث لهما أولهما ليس هذا محله ويتعلق بتفكري في الكون الفضائي رغم أن حصيلتي المعرفية فيه مزجاة جدا أما ثانيهما فهو مانحن بصدده أي التفكر في قوة الظالم المعربد بماله أو بجاهه كيف تتحول بعد أيام قليلة معدودة وبسبب يغفل عنه كل الناس إلى ضعف لا يقدر معه على دفع طنين ذبابة عن رأسه . إني لاشد ألما والذي برأ النسمة عندما أشاهد جيشا من الناس يستوون راكعين يهوون مقبلين ظهر كف يد لملك لما تجف آثار قبر الملك الذي سبقه . أقول في نفسي : هل أن لحطام الدنيا كل هذا السحر الذي يجعل الانسان المكرم يرضى لنفسه هذا الهوان فلا يقبل منه مثلا حتى أن يقبل بطن الكف لا ظهره فضلا عن أن يسلم بيده كما يفعل كل الناس مع بعضهم بعضا . أقول في نفسي : ماذا كان سيحدث من تفاعلات بيولوجية أو نفسية لو قبل الراكع الخانع المسكين خد ملكه كما يفعل رجل آخر ليس للملك عليه من سلطان . إشتغلت في الادارة ببلاد عربية لمدة تزيد عن عقد من الزمان وإطلعت بنفسي بما فيه الكفاية على كيفيات إنبناء العلاقات بين الرئيس والمرؤوس وبين هؤلاء وبين المواطن المسحوق فوجدت في الاغلب أن الكرامة الانسانية إستثناء حقا لا تمت لان تكون أصلا بأي حال وأن ماء حياة الانسان الذي قال فيه عنترة العبسي " لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فأسقني بالعز كأس الحنظل " ... يهراق على جنبات العزة والكرامة رخيصا هينا وفي أكثر الاحيان لا يستحق أن يهراق

لان الرئيس لا يملك للمرؤوس سيما في قطاع الوظيفة العمومية يومها على الاقل شيئا . كنت شديد الاشمئزاز من ذلك وحين أخلو لنفسي وأحاسبها يشتبه علي الامر حقا فأكاد أتهم نفسي بأن الشعور بالكرامة والعزة في مغلظ وغائر عميق بأكثر مما يلزم فإذا إنتقلت من تلك الصورة الادارية البسيطة إلى الصورة السلطانية التي تكبرها لاقطات التصوير وتبثها الفضائيات أنصعق حقا وأحتقر المشهد بأسره وفي محاولة لفك التهمة عن نفسي أقول في نفسي هاهو محمد عليه السلام أفضل من وطئ الغبراء وأظلت السماء طرا ينهى عن مجرد أن يقوم له أصحابه توقيرا لا خوفا ولا طمعا بل ينهى أن يوصف بأي وصف سوى صفة الرسالة أوالنبوة ويعلل ذلك بأنه إبن إمرأة كانت تأكل القديد . ثم أراجع نفسي وأعاود إتهامها بالمثالية وبعدم إستقامة أركان هذه المقارنة وكيف يستقيم قصر مشيد منيف لو حمل إليك طيفه في المنام لخلت نفسك في بعض قصور الجنة مع حصير قديم بال نام عليه عليه السلام فأثر في جنبه . الان آن لك أن تبكي سيدي القارئ فهاهي دمعات أبت إلا أن تهجر مآقيها تسيل على خدي الان . آن لي ولك أن تذرف دمعا على سنة هجرها الملوك من سلالة محمد عليه السلام وقلب لها رعاء الشاء من غيرهم ظهر المجن . آن لك أن تبكي فالبكاء شكر وهو صبر كذلك وليس كالبكاء بلسما وحماما شافيا دافئا يطهر النفس من أدران الجاهلية . آن لك أن تبكي بكاء الموقنين الواثقين القانتين غير القانطين والمقسطين غير القاسطين . بكاء الرجال الذين لا تزيدهم النكبات والمحن إلا شكرا وصبرا وحسن خلق وتأطيرا للنفس على الحق إطرا بالحكمة وفصل الخطاب .آن لي ولك سيدي أن نعمر نفسا بمادتين لا غنى لها عنهما : الرجاء في رحمة الرحمان سبحانه وأفضل الرجاء يوم تدلهم الخطوب وتحلولك المسارب ويستبد اليأس بالناس أما يوم السراء فلا يفتخر أحد عن أحد برجائه لان اليائس يوم السراء زائد على الدنيا لا ترحب به حتى القبور المظلمة ثم الخوف من الرحمان وليكن الرحمان دوما في نفسك سواء رجوته أم خشيته فما تسمى سبحانه بالمنتقم والمعذب أبدا وأفضل الخوف منه سبحانه يوم طاعتك لا يوم معصيتك لان من طبيعة العاصي الامتلاء خوفا ومن عصى ولم يخف فقد ضاقت عليه نفسه بما رحبت فكيف تتسع له أرض أو بطن أرض فليكن الخوف أو بالاحرى الوجل قرينك عقب كل طاعة .

كلمات ونحن نوشك على الانتهاء من هذه الرحلة لابد لك منها : النظر في نفسك بعد الكون والقصة محراب من أوكد وأشد محاريب العقيدة نبضا بالحياة وعماد ذلك حسن الخلق شكرا وصبرا وخوفا ورجاء وترغيبا وترهيبا . كلها كلمات مزدوجة متقابل ظاهرها تناسبا مع نفسك مزدوجة التكوين " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ". إذا عرفت نفسك عرفت بيسر شديد ربك وما لا يعطيه لك الكون أو القصة إفتراضا غير صحيح لمعرفة نفسك على درب معرفة ربك تستكمله بالاقبال على القرآن الكريم

فإن كنت غير مؤمن بعد لا يضيرك ولا يضيره أن تعده وثيقة بشرية وركز على ما فيها من آيات وأمارات ودلائل وبراهين وحجج في عالم النفس ونحن بصدده الان وعالم العقل ولسنا بصدده الان فإن وجد ذلك إلى نفسك سبيلا فلا تجحده وإحترم خيارا إختارته نفسك وإن كنت مؤمنا فجدد إيمانك بذلك .

ضاق المجال علي كما ترى عن ذكر مشاهد أخرى معروضة في القرآن الكريم أمام النفس ترغيبا لها في الطاعة لنيل لذائذها وقطف شهواتها وهو مالم أطرقه هنا بالمرة لضيق المجال وترهيبا لها في المعصية لتجنب ألم تخشاه فما ضاق المجال هنا عنه فلا يضيق به القرآن الكريم فدونكه قراءة في أحوال النفس حال السراء والضراء والبأس كيف تبطر هنا وتفرح بغير حق وكيف تنفر هناك وتيأس وكيف تجحد حقا وتستر عيبا وتصرف خائنة عين وتعتمل حسدا إلى حد إدخال الجمل في قدر ضيق وكيف تتحرر فتجد ريح الجنة حقا فتعشق الموت عشق الواجد الولهان ثم تضيق هي ذاتها وتتبرم فتضن بدرهم على يد محتاج ... تلك هي نفسك التي بين جنبيك لم تخلقها أنت ولم تستشر في خلقها إنما خلقت ثم أودعت فيك وأنت مستأمن عليها هي محراب لكسب العقيدة وتجديد الايمان في كل تقلباتها السريعة قد يعود بك قطارها بعد رحلة طويلة شاقة في كمد الحسد والبغضاء والكراهية والحقد بلمحة بصر بل بأسرع من ذلك إلى مشهد حب وأخوة وود وبر وإحسان لذات من كان موضوع حسدها قبل عشر معشار ثانية من زمان . هي نفسك تحدث معها طويلا أكثر مما تفعل مع أي شريك آخر ولتكن لك معها خلوات مطولة وراتبة . إقطع سكونها بالمغامرة وهدوءها بالسفر ورتابتها بالحادث وإحملها حملا على التفكر والتدبر في كل حادث يعرض لك أو لغيرك مما يتناهي إلى سمعك . ستعمل هي على جرك لارضائك إلى إستخلاص العبرة بسرعة مذهلة تخلصا منك . لا تنهزم أمامها وجرها جرا جميلا كلما أقبلت عليك إلى ذات الساحة التي فرت منها قبل قليل أو كثير . بلى أغدق عليها من شكرك وثنائك كلما فعلت خيرا وهذه كذلك من القواعد النفسية التي أفدتها من علم النفس دون أن يتحول ذلك إلى العالم الخارجي فيصبح رياء ولاحظ أنها تجرك إلى ذلك جرا فتظل معها في الملأ في معركة حامية الوطيس لو يسمع الثقلان تحاربكما لفرا فأوصد عليها كل منافذ الثناء على نفسها أمام الملأ ولكن عوضها عن ذلك ثناء في خلوتك بها ولا تعاتبها على ثناء الناس عليها هي ستغلبك حتما في المعركة ولو بالنقاط إن أفلت من الضربة القاضية فكن على حذر بعد إفلاحك في قمع شهوة ذكرها من أن تتسلل إليك في لحن القول . إنها تمتلك قدرة فائقة عجيبة في الازورار والتحايل والخديعة والغش . لك أن تلاحظ أنك كلما ذكرت لها الموت أقرت به ولكن بسرعة البرق جعلتك تذهل عن مواصلة ذكره وتصور مشاهده ومابعده . دواؤها الشافي في ذكر الموت فهو أدعى إلى المطامنة من غلوائها وكف شرها وأذاها . أذكر لها من هو أقل منها حظا في الدنيا ثم

لاحظ أنها ستحمد الله سبحانه ثم سرعان وفي سرعة البرق تعرض عن ذكر ذلك . هي تدعوك إلى المزيد دوما لا تقنع أبدا . لاحظها وهي تعاني من ويلات الازمة تظل تتضرع وتجتهد في الدعاء والعبادة وتقدم لك تفسيرا مقنعا محكما بأن الدنيا بأسرها تآمرت عليها لتوسيع نكبتها وتظل تذكر لك فلانا السعيد بأهله وفلانة السعيدة بمالها حتى لتوشك أن تقتلك حتى إذا ما فرج الباري كربها أشركت أو كادت وأضحى كل ما عانته سابقا مجرد ذكرى أو حلما مزعجا لا تلتفت إليه ولا تريد منك أن تذكرها به ثم تظل تطلب المزيد وتغير لهجة دعائها وفق مقتضيات المرحلة ثم لاتشبع من شئ ولا تقنع بشئ أبدا ولولا بعض الخجل فيما أجد في نفسي أنا مثلا ومن المؤكد أن الناس مثلي يجدون مثله ... لولا بعض الخجل مني لطلبت إلي نفسي مال فلان وسيارة علان ودار هذا وإمرأة ذاك بل أحيانا وذرية فلان وشخصية علان ... أقول في نفسي لنفسي : ما هذا ؟ إلهذا الحد من الغواية والمروق ؟ أسليها بذكر من هو دوني فتأخذني في ذات تلك اللحظة إلى من هو فوقي . أعياني أمرها والله . أذكرها بأني ودعت العقد الخامس من عمري وبدأ أقراني بالرحيل واحدا بعد الاخر ثم أشير إلى الذقن المشتعل شيبا وأذكر لها نعم المنان عليها سيما بعد ضيقها فيما خلا ... يخيل إلي أنها لا تستمع إلي إذ سرعان ما تصرفني إلى حديث آخر ملؤه الشكوى والضيق والتبرم والسخط .

الاحالة على النفس محراب لكسب العقيدة وتجديد الايمان فألزم التفكر وذكر الموت ومشاهد القيامة من نعيم وعذاب فهو محور كفيل بزرع التقوى . ذلك هو جانب واحد من جوانب الاحالة على الانسان وهو الجانب الذي لا ينتهي الكلام فيه صدقا وعدلا .

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الخامسة : الانسان الحر مستودع العقيدة

مازلنا بصدد مباحث الاحالة على الانسان ضمن التنقيب عن مختلف المحاريب التي وجهنا الخطاب القرآني إليها لاكسابنا العقيدة الصحيحة السليمة وقلنا فيما سبق بأن الانسان إحالة مستقلة من ناحية ومتعددة الوجوه من ناحية ثانية وهي من ناحية ثالثة وأخيرة إحالة تبسط نفوذها على ما جاء قبلها من نظر في الكون وهو الحاضر المادي الماثل للابصار ومن نظر في الماضي والتاريخ بقصصه وآثاره وهو الغائب البعيد كما تبسط نفوذها على ما سيأتي بعدها من نظر في النظام السنني وفي مواكبة الوحي لحراك الناس زمن نزوله .

القرآن إعتمد آلية نفي الاكراه وهي أقوى من مجرد إعلان الحرية :

ضمن بحث الاحالة على الانسان مر بنا في الحلقة المنصرمة بأن الخطاب القرآني ظل يوجه النفس البشرية طويلا ضمن ما كاد يكون محورا قرآنيا مستقلا إلى مظاهر النعيم والعذاب سيما يوم القيامة متوسلا إلى ذلك بالطرق على الاوتار الحساسة شديدة الرهافة في تلك النفس من مثل الترغيب والترهيب والخوف والرجاء وغريزة حب البقاء ومآثر الصبر والشكر أي أنه خاطب الفطرة المستترة في الاعماق كاشفا مختلف تقلباتها عاملا دوماعلى تزكيتها وتربيتها وذلك هو البعد الاول ـ البعد النفسي ـ من الاحالة على الانسان .

أما اليوم فلنا موعد متجدد مع الاحالة على الانسان يتعلق بإرادته وفي حلقة ثالثة وأخيرة بإذنه سبحانه نبحث ما يتعلق بعقله وبذا نكون قد أحطنا بمكونات الانسان الشاملة . البعد الارادي في الانسان له علاقة بالحرية فالانسان يعرف بكونه حرا أو عبدا بمدى تصريف إرادته على النحو الذي يرضى تماما كما يعرف بكونه عاقلا أو سفيها بمدى تصريف عقله وتفكيره على النحو الذي ينفعه ويفيده ويجلب مصلحته ويدفع عنه المفاسد وبكونه قويا أو ضعيفا نفسيا بمدى صبره وشكره وخوفه من خالقه ورجائه فيه .

خلا القرآن من خطاب الحرية فظن الجاهلون أنه كتاب الاكراه :

دعني بداية أقرر حقيقة تاريخية كبيرة وهي أن المشركين في زمنه عليه ا لسلام هم أكبر من عارض العقيدة الاسلامية وجابه الاسلام ليس بالحرب فحسب بل بداية عبر المواجهات الفكرية الحضارية فلم يكن مبلغهم من العلم حيال قرآن أفحمهم إفحاما وأعجزهم إعجازا في كل المجالات التي حاولوا طرق المواجهة فيها سوى أنهم قالوا بأنه سحر أو أن صاحبه مجنون أو يلقى إليه من كاهن أو جهة أخرى غير معلومة أو كتبه هو أو حيلة من بني هاشم أومن قريش لتسجيل الضربة القاضية على حلبة تنافس القبائل العربية والبطون القرشية . ولم يقل واحد منهم مرة واحدة مهما كان ضلوعه في سائر ا لعلوم الوسائلية كاللغة أو التاريخية كالقصة متقدما أو متأخرا وحتى في سطوة الاشتباك مع محمد عليه السلام بأنه إكتشف في القرآن الكريم خللا أو نقصا أو تناقضا أو أمرا يمكن أن ينهدم به ولا يظن اليوم سوى زنيم بأن ذلك المطعن في بنية القرآن وعلومه التي جاء بها سيما القصة والتمثيل والتشريع وبناء العلاقات بين الناس لم يكن المقصد الاسنى من لدن العرب المشركين الذين دوخوا الدنيا يومها في فن

صناعة الكلمة على نحو أنهم لو ظفروا بعشر معشار قلامة ظفر من خلل في القرآن الكريم لانهدم السقف من أسه على محمد عليه السلام وصحبه ولاضحت خرافة الاسلام أثرا بعد عين .

لا بل إنهم لفرط الافحام عبر الحجة والبرهان لجؤوا إلى الاساليب الخسيسة من مثل محاولات الاغتيال وإدعاء السحر والجنون والكهانة وكلها تهم لم تصمد طويلا ثم لجأ أولئك الذين كانوا بالامس القريب يحاربون القرآن سرا إلى الاستمتاع بسحر بيانه العذب الاسر وهو الامر الذي ملكهم ملكا وملأ عليهم حياتهم ليلا بينما كانوا نهارا يحاربونه بالسيف والاشاعة الكاذبة حتى إنفضح أمرهم بين بعضهم بعضا فتحطم جدار الصد الادنى إليهم والاولى بهم وبدأت رحلة بداية النهاية لهم من هناك .

هل يزعم ساقط سافل اليوم بأن العرب المشركين خانتهم بعض مناقبهم اللغوية فلم ينتبهوا إليأن القرآن الكريم كان خطابه رافضا لحرية الارادة الانسانية بفعل خلوه من كلمات الحرية سوى ما تعلق بالعبيد وهو ما يعني بأنه يريد تحرير العبيد حتى يكونوا في مستوى أسيادهم ثم يستعبد محمد عليه السلام ومن جاء من بعده من رجال الكهنوت والدين الناس جميعا أسيادا وعبيدا ؟

أجل يا سيدي زعم ذلك الزعم السافل الساقط المغرور رجل دعي في تونس إسمه العبدلي أستاذ لسانيات بالجامعة التونسية عام ١٩٩٨ حين قال أمام الطاقم الحاكم والدبلوماسي بأسرهما بجامع عقبة إبن نافع بمدينة القيروان بمناسبة الاحتفال الرسمي بذكرى ميلاده عليه السلام بالحرف " البنية اللغوية القصصية في القرآن لا يطمأن إلى نسبتها إلى الله لفرط إهتزازها " . ألست تقول مطمئنا بأن مشركي العرب في عهده عليه السلام كانوا في منزلة لا تقارن بهذا الدعي المغرور إذ برغم أنهم هم وحدهم في الدنيا بأسرها صناع الكلمة ونحتتها وكل من سواهم بين أيديهم طالب علم ليس أكثر لم يجرؤوا ولو مرة واحدة بل ولو هزلا على الغمز في القرآن ؟

هل يمكن أن نصدق اليوم بأن المشركين العرب تغاضوا عن كون الخطاب القرآني لم يتضمن في ثناياه الحرية لفظا أو معنى مجاراة لمحمد عليه السلام أو لان الامر اللغوي بمختلف تراكيبه وصياغاته وحقائقه ومجازه وإستعمالاته التي لم ينحتها القرآن الكريم نحتا إلا من خلال إستخداماتهم هم أنفسهم ... خفي عليهم فأنطلت عليهم حيلة محمد عليه السلام .؟

إذا كان ذلك غير ذلك بشكل صارخ لا تصدقه العقول ـ ليست التي تعرف العربية ولكن التي تعرف أن العربية صناعة العرب المشركين أكبر أعداء القرآن ـ فكيف يقول بعض الادعياء الاشقياء اليوم بأن خلو القرآن الكريم من ألفاظ الحرية ومشتقاتها دليل على أنه كتاب إستعباد وقهر فكري ولا يؤمن بالحوار والحرية الانسانية وما إلى ذلك من الادعاءات السافلة التي لا يجدر سوى طرحها حتى من مجرد عناء الرد والبحث لولا أن ما نحن بصدده اليوم يستدعي ذلك ؟.

الفكرة التي جاءت الفقرات المتقدمة لاعادة التذكير بها هي أنه طلع علينا اليوم في هذا الزمان النكد من المغرورين من المنتسبين إلى العروبة من يغمز في الامر الذي تباهي به القرآن كثيرا وعده مفخرة معجزاته أي في بنيته اللغوية وهم يدركون أنه إذا سقطت تلك المعجزة البيانية فقد سقط ما بعدها سوى أنهم يتجاهلون أن العلم المادي اليوم لا يمضي عليه عام واحد تقريبا حتى يكتشف من صدق المعجزات القرآنية ما به يهرع أشد علماء الكون في الغرب رسوخا إلى الاسلام .

إن أي أمر في البنية اللغوية في القرآن الكريم لم ينبجس من صناع الكلمة المشركين العرب في زمانه وهم أرباب اللغة العربية وملوكها الذين ينحتونها نحتا مما يشبه العدم لا يمكن وصفه سوى بالسقوط والسفالة الغرور . وإذا كان القرآن الكريم قد حاز بجدارة بين الناس قديما وحديثا على تزكية العرب المشركين له وهم أول وأكبر أعدائه فما ينبغي لخفافيش الدجى سوى التواري إلى جحور الموت وكهوف الخيبة .

نفي الاكراه أقوى لغة وبيانا وحقيقة واقعية من الدعوة إلى الحرية :

حبس القرآن مصطلح الحرية على تحرير العبيد في مشروعه الواقعي الكبير نحو تجفيف منابع الرق ولم تكن الدعوة من لدنه إلى ذلك باردة خطابية بل ضمن ذلك في تشريعه الخصوصي سيما في كفارات حنث اليمين وقتل النفس بتفصيل في ذلك لا يتسع المجال إليه والظهار وهي الامور التي تقع دوما بين الناس بما يعني أن خطته ناجحة عمليا حتى مع من يتلكأ في ذلك ولم يسعفه إيمانه بالمبادرة إلى ذلك .

إقرار نفي الاكراه لغة أقوى من إيجاب الحرية بل هو شرطها السابق لها دوما معناه أن النفي أقوى من الايجاب دوما ذلك أنك لو طلبت من ولدك الصغير مثلا ألا يتخذ بهيمة ما ظهرا فإنه يظل يتجنب ذلك وله فيما سواها بديل مناسب وعلى ذات السياق جاءت شهادة الاسلام ومفتاح العقيدة لا إله إلا الله

مفتتحة بالنفي أو النهي والنتيجة واحدة وعزر ذلك عقب أعظم آية في القرآن في أعظم سورة وأولها وأطولها بقوله " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله" فقدم الشرط الاول للايمان بالله وهو الكفر بالطاغوت تماما كما قدم في شهادة التوحيد الشرط الاول لحسن إخلاص التوحيد وهو نفي الالوهية عن كل أحد وشئ . ولذلك كانت عناية الشريعة بالمنهيات أكثر من عنايتها بالمأمورات فقد رتبت على إنتهاك الاولى حدودا وقصاصا وتعازير تصل حد القتل الجماعي في صورة ما إذا إجتمع قوم على قتل واحد وذلك لان المنهي عنه دوما يكون أشد إعتبارا من لدن الناهي ويعكس حرصه عليه لانه عنده هو أجلب للشر من مجرد التهاون في الطاعة ولامر آخر هو أن الطاعة حقل لا حدود له ففي كل ثانية ولحظة من حياتك على مدى قرن مثلا فيها محل طاعة ما ولا يتأتى لتشريع أن يشرع للناس شريعة في كل لحظة إذ يغدو ذلك عبثا معبوثا أما المنهيات ومنها نفي الاكراه مطلقا هنا فهي محددة العبارة ومحددة المحل وأكثر صراحة ووضوحا . ففي اللغة إذن النفي والنهي أشد قوة وصراحة وصحة وجلاء ووضوحا لانه يرسم دائرة معينة محددة من الحقل لا ينبغي وطؤها مهما كانت الظروف وهذا أمر يفهمه الصبي الذي ما زال يحبو لو زجر مرة في إثر وضع يده على تنور ساخن .

أما في مجال الحرية والاكراه فلو دعا داع مطلقا إلى الحرية فسيظل المدعو دوما في حاجة إلى تبيان الحقول التي هو حر في معافستها وذلك أمر غير يسير تبيانه لان تلك الحقول ليست معدودة ولا محصورة ثم لامرآخر أشد أهمية وهو أن الحرية هي الاصل الذي من أجله خلق ا لانسان وجاء إلى هذه الدنيا فتقرير ذلك هو من باب الغباء أو من باب الالتفاف على ذات الحرية أو من باب تقرير الشئ المقرر في الفطر والعقول وكذلك لامر آخر أشد أهمية وهو أن إطلاق الحرية بإطلاق معناه أن الانسان حر كذلك في كبت حرية غيره وإنتهاك إرادة من سواه ذلك هو المعنى الاولى الصحيح المتبادر إلى ذهن كل واحد فينا عندما يؤمر بممارسة حريته بإطلاق دون أدنى قيد ولذلك أغضى القرآن عن الدعوة إلى الحرية باللفظ لا بالمعنى لكل تلك المعاني السالفة وغيرها كثير مما لا يتسع له المجال الان وفي المقابل بادر إلى الاداة الاولية الاساسية أي مفتاح الحرية الاول فشدد عليه وذلك عبر مصطلح " نفي الاكراه " الذي تكرر في القرآن لفظا في مناسبات غير يسيرة أما معنى فهو رسالة القرآن طرا.

رسالة نفي الاكراه لها خطان متوازيان لا يصطدمان سوى عند سفهاء العقول أولهما أن نفي الاكراه أقوى تأسيسا لحق الحرية الذي هو تابع لحق الحياة سواء كان ذلك لغة أو إصطلاحا وذلك على أساس أن إثبات أمر بحاجة أولا لكي يتأسس على أسس متينة إلى نفي ضده وهي قمة البلاغة اللغوية العربية لمن يتذوق ولو قليلا ولمن لا يتذوق ذلك يكفيه أن العرب المشركين أول وأكبر أعداء القرآن هم من قال بذلك وليس

القرآن ولاخطابه هو من أسس لذلك بل هو لم يزد على أن خاطب أشد وأكبر أعدائه بلغتهم التي نحتوها هم وإختاروها هم . أما الخط الموازي الاخر لرسالة نفي الاكراه فهو أن الظالم الطاغي الذي جره تنعمه بالحرية وبالحياة وبزينتها وسلطانها إلى كبت حريات غيره زهوا بقوته أو بجبروته المالي أو بنسبه الشريف لابد له أن يلقن بداية بأنه مأمور قطعا بنفي إكراهه لغيره على إعتناق دينه أو مذهبه أو لغته أو جنسيته أو فكرته أو الاصطفاف وراءه في أي صغيرة أو كبيرة . فأداة نفي الاكراه إذن موجهة للناس جميعا من أجل صد طغيان الظالم النزاع دوما إلى إستخدام الاكراه ضد غيره الضعيف ومن أجل فتح حدود الحياة الكريمة أمامهم جميعا مباحة حلالا زلالا لا يعكرها ظلم ظالم وذلك بعد وصد ظلم الظالم وتقرير مبدإ كوني عظيم أنه لا أكراه في الحياة وكل إكراه تبطل مقتضياته من مثل الدين والنكاح والمعاملات المالية وغير ذلك فإذا ولج الناس الحياة كريمة خالية من الاكراه آمنين من إكراه الظالم لهم فإنهم ينعمون حقا بفرحة الحياة وطعمها ورتب الفقهاء ذلك في قاعدة تقول " الاصل في الاشياء الاباحة والحلية " ورتب علماء الاصول قاعدة الاستصحاب وغير ذلك كثير مما يدل على فقههم لمبدإ نفي الاكراه مؤسسا للحرية .

وبذا يترجح لدينا بما لا يدع مجالا للشك بأن الخطاب القرآني إستبدل الدعوة إلى الحرية لفظا في الاغلب سيما خارج دائرة الرقيق بإقرار مبدإ كوني عظيم بنى عليه خطابه بأسره وهو نفي الاكراه بإعتباره مؤسسا فلسفيا ومنطقيا وعقلانيا ونفسيا وواقعيا للحرية المنشودة وحتى تعمل تلك الحرية عملها وتؤتي ثمارها لابد لها من صونها من الاكراه وتحريمها كما حرم الانسان بالكرامة والزمان والمكان بالحرمة بنفي الاكراه لانه نهي صريح واضح مبين فإذا ما كانت تلك الثقافة القرآنية غير مبثوثة في عالمنا الاسلامي اليوم بما فيه الكفاية فالذنب ذنب من؟ ذنب من أسس للحرية من منابتها وجذورها الاصلية بماء نفي الاكراه حتى تظل شجرة وارفة الظلال دوما تؤتي أكلها حين بإذن ربها أم ذنب من حصر المنهيات فيما ورد بصيغة لا تفعل كذا من المنتسبين إلى العروبة ؟ فإذا ما حملت لام نفي الاكراه في آية البقرة على النفي لا على النهي بكونها داخلة على إسم وليس على فعل فإن الامر يتعاظم لغة ومعنى ويصبح أشد توكيدا بإعتبار أن الاكراه في الدين أعلى شئ وفيما يليه من دونه أولى وأحرى عقلا ومنطقا ... أمر منفي في النظام الكوني والخلقي والاجتماعي فهو إذن فطرة وسنة وقانون وناموس وهي الصيغة التي جاءت على منوال بنية شهادة التوحيد ومفتاح الجنة ولا تصاغ بمثل تلك القوة في التأسيس سوى الحقائق الكبرى من مثل الالوهية والحرية وهما أول وأكبر ثابتين من ثوابتنا نحن المسلمين : التوحيد لله سبحانه ثم حرية الانسان حرية لا إكراه فيها .

نفي الاكراه العقدي لا يقتصر على عقيدة التوحيد بل يشمل كل العقائد مهما كانت محرفة مزورة :

" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيرا ...". ربما ورد هذا في مواضع أخرى كثيرة على نحو لا يستحق الاطناب هنا سوى أنه إقتضاه السياق المؤكد بأن القرآن يفتح حرية الاعتقاد والتدين لكل الناس وعلى كل المعتقدات على قاعدة الحرية المطلقة وتحمل ا لمسؤولية المطلقة والدليل أنه دعا المؤمنين بالاسلام إلى الجهاد عند إقتضاء الامر من أجل الدفاع عن أصحاب العقائد الاسلامية من أصحاب الصوامع والبيع والصلوات أي من يهود ونصارى وغيرهم على أن أولئك المؤمنين بالاسلام يدافعون عن المساجد وعن الاسلام وأن تلك في حقهم فريضة مفروضة وأن من مات منهم مجاهدا في سبيل حق يهودي مسالم أو نصراني مسالم أو مجوسي مسالم أو صاحب أي دين ومعتقد سماوي كان أو غير سماوي مسالم مات شهيدا في سبيل الله سبحانه . ذلك بإختصار معنيالاية ومقتضاها في حقنا مسلمين في كل زمان ومكان. وجاءت بعد آية إعلان حق الجهاد لاول مرة في الاسلام معللا ذاته بوقوع الظلم وليس بإنحسار الاسلام ولا بكثرة أتباع الديانات الاخرى ولا بأي حق آخر سوى حق الانسان كل إنسان في حريته كاملة مطلقة في إختيار سائر وجوه حياته دينا وفكرا ومعيشة وعلما دون أدنى إكراه بقطع النظر عما إذا كان الاسلام يعده مؤمنا أو كافرا .

الاسلام لا يقسم الناس في مضمار الحرية الخالية من كل إكراه إلى مؤمنين وكفار بل إلى مسالمين وظالمين . أخر ذكر المساجد في الاية لايصال رسالة حية لنا مؤداها أن الدفاع عن العقائد التي يعتبرها الاسلام منحرفة أولى بالدفاع عن الاسلام ذاته ورمزه المسجد في حال حاجة أصحاب تلك العقائد المنحرفة إلى دفع الظالم عنهم ولو كان ذلك الظالم مؤمنا مسلما عابدا ضل طريق الاصلاح وهو فقه لما عرفه المسلمون الاوائل بنوا دينا وحرروا إنسانا وعمروا أرضا وفتحوا عمرانا وأشاعوا حضارة وبنوا مدنية ولما تنكبناه نحن لا أقمنا دينا ولا عمرنا دنيا سوى بالظلم . ولك أن تسأل على عود ضمير " فيها " في الاية فيجيبك المتحذلقون الملتفون على أكبر حقيقة بشر بها القرآن هي حقيقة حرية الانسان بأن الضمير يعود على أقرب كلمة وهي المساجد هنا والصحيح أن إسم الله يذكر في كل من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد لانها ديانات توحيدية في الاصل ومازال لاصل ذلك التوحيد أثر مهما يكن باهتا وشاحبا أو لا أثر له في الحياة فكل مكان يذكر فيه إسم الله سبحانه جدير بالتحريم والصون والتكريم وكل مكان فيه إنسان مسالم غير باغ ولا عاد قمين بالتحريم والصون والتكريم . فعلة الجهاد سواء لتحرير المسلمين أو غير المسلمين من الناس المسالمين مهما تكن دياناتهم هي الظلم وليس سوى الظلم لان رسالة الاسلام

السنية هي تحرير الانسان وتكريم إبن آدم حتى يكون أهلا لاختيار مستقبله بعد موته ودينه في حياته ثم يتحمل مسؤوليته تبعا لتلك الحرية وذلك الاختيار .

فقه رجل عظيم كبير من مثل إبن تيمية عليه رحمة الله سبحانه ذلك جيدا حين قال بأن آيات حرب الكفار في القرآن الكريم يجب أن تحمل على الظالمين وليس على مجرد الكفر وهو الامر الذي علمناه محمد عليه السلام.

حكمة القرآن في نفي الاكراه هي نفي الفتنة التي تعني الحيلولة دون تأهل الانسان كل إنسان من معرفة كل البدائل الممكنة في الكون والتاريخ والواقع لاختيار دينه وسائر مناهج حياته على قاعدة الحرية والمسؤولية ومن أروع روائع القرآن الكريم أن مناسبة نزول آية نفي الاكراه في البقرة مباشرة بعد أعظم آية في القرآن تعرفنا بربنا سبحانه وتثبت فينا الثابت الاول توحيده سبحانه كانت إقدام بعض المسلمين في المدينة من الانصار على حمل أبناء لهم تنصروا قبل مجئ الاسلام على الدخول في الاسلام فنهاهم القرآن على إكراه أحد في الدخول في الاسلام حتى لو كان ولدا وفلذة كبد وحتى لو كان المكره على الدخول فيه هو الدين الحق دين الله سبحانه . بلى يا سيدي إعتبر القرآن تلك فتنة وكل إكراه هو فتنة لانه يحجب الرأي الاخر . بعض المتدينين المتعجلين يظنون أن الاسلام على درجة من التكوين الزجاجي البلوري الرهيف الذي لا يحتمل الخدش فلا يتصورون كيف أن الله يدعو من جهة إلى الاسلام ويعتبره الدين الحق وما عداه ضلال وهو يمنح للانسان الكافر والملحد كل هذه المساحات الشاسعة من الحرية وعندما يصر الكافر على كفره لا يقاتله كلما كان مسالما كافا أذاه عن الناس . هؤلاء هل فقهوا حبة خردل من رسالة الاسلام وثوابته في الجمع بين التوحيد والكرامة : توحيد الاله الحق وكرامة الانسان. هؤلاء هل تنتصر بهم دعوة ويتقدم به إسلام ويكونون سفراء معتمدين لدى غير المسلمين؟

تقرير الاسلام لنفي الاكراه سنة في الكون وفي الخلق لوضع الفتنة عن الناس كل الناس معناه أن الفتنة أكبر وأشد من القتل لان هذا مادي ينتهي بإنتهاء المقتول أما القتل المعنوي وهو الفتنة لا تموت لان الافكار لا تموت بالقتل ولا بالضرب ولا بالعنف ولا بالارهاب بل إن الافكار لا يزيدها الضرب إلا رسوخا وكثرة أتباع وهذا مجرب في تاريخ الناس قاطبة .

ألم يأن للناس أن يقرؤوا السنة مجددا فيجدوا أن واقعة الحديبية بصلحها هي الفيصل في مسيرة الدعوة الاسلامية وذلك بلغة الارقام الاحصائية الدقيقة والصحيحة التي تقول بأن عدد المسلمين حتى تلك

الواقعة أي بعد حوالي ستة عشر عاما من البعثة أي بعد ما يربو عن ثلاثة أرباع الفترة المحمدية على صاحبها السلام لم يتجاوز بضعة ألاف وأن ذلك العدد تضاعف بشكل لا يصدق حين تعرف بأنه مات عليه السلام أي بعد تلك الواقعة الصلحية وما حملته للناس من أمن وسلام ومعاهدات وإعتراف متبادل من لدن الفرقاء المختلفين ... وقد خلف ما يربو عن مائة وخمسة وعشرين ألفا من الانام المسلمة . هل تقرأ في ذلك التطور الرهيب شيئا وهل من رسالة إليك ؟ ستة عشر عاما كاملة فيها القرآن يتنزل وفيها الهجرة وبدر وأحد والخندق وغيرها كثير ولم يسلم من الناس سوى بضعة آلاف ثم لما حصل الاعتراف المتبادل وإنداحت الحرية أمام الناس فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر دون عنت ولا إكراه من أحد تضاعف ذلك العدد بما لا يصدق حقا لولا أن التاريخ جاء به وفي فترة زمنية قياسية لا تصدق لولا أن الاخبار الصحيحة جاءت بذلك . درس وأي درس لنا اليوم جميعا فهل نحن واعون بأن رسالة الاسلام هي الحرية وليست سوى الحرية وأن من أراد مخلصا وحكيما في الان ذاته نصرا للاسلام فإن المدخل هو الحرية وليس سوى الحرية . المتعجلون يعاجلونك بأن الحرية تغري الناس بالكفر والزندقة والفسوق وهذا مخالف لحصائل التاريخ وداعيات الفطرة وحصائد الواقع ولكل الحقائق التي يمكن أن ينبجس عنها عقل بشري ما أو يأتي بها وحي سماوي ما . لو كان الكبت يمنع الاسلام لما نشأت صحوة إسلامية كلما كثر الكبت من لدن الحكام الظالمين . ولو كانت الحرية تغري بالكفر أكثر من إغرائها بالاسلام لما وقع الذي وقع بعد صلح الحديبية . ثم قولي لهؤلاء : هب جدلا أن الحرية تغري بالكفر فيحسن منعها عن الناس هل أنت من خلقت الناس أم لهم خالق سواك . هذا الخالق الذي هو ليس أنت بالتأكيد رضي لهم أن يكونوا أحرارا فيكفرون به أكثر من رضاه بهم مؤمنين مكرهين على عبادته . نحن قوم جانبتنا الحكمة ومن جانبته الحكمة جانبته الحياة وأصبح بطنها خير له من ظهرها .

يذهب القرآن كعادته دوما بعيدا جدا في توسيع دائرة نفي الاكراه تأسيسا للحرية البشرية على نحو غير مسبوق وذلك حين يأمر النبي الكريم عليه السلام بإجارة المشركين ومنحهم حق اللجوء إلى واحته الوارفة ودوحته الظليلة وذلك أدعى إلى تكريم آدمياتهم المكرمة إبتداء وأصلا وأدعى إلى تحرير عقولهم التي تسلم يوما متى أدركت حقيقة الاسلام الذي لا يساوي سوى الحرية ولا تساوي الحرية سوى الاسلام فهما صنوان لا يفترقان سوى عند من جانبته الحكمة " وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " كان الاسلام يوما يمنح اللجوء لمن لا يعتقد فيه ولا يؤمن به فهل بعد هذه السماحة من سماحة ؟ وكلام الله ليس معروضا على الناس سوى للسمع فمن آمن به فله ذلك ومن كفر به لاي سبب كان فله ذلك أيضا دون أدنى حبة خردل من إكراه . وبعد إستيفاء حق الاجارة

وإستمتاع المشرك بحقه في اللجوء عند النبي عليه السلام فما بالك بمن غيره وكل من غيره هو دونه ... بعد ذلك كله وليس قبله بحال فرض الله عليه عليه السلام والخطاب لكل من يدعي النسبة إليه بأن يبلغه مأمنه فلو قتل من كلفه النبي عليه السلام من الصحابة في الطريق عدوانا من مسلم كاره لتأمين مشرك وإبلاغته مأمنه فهو شهيد على درب تأمين مشرك مستجير والقاتل عدو ظالم ولو كان مسلما مؤمنا معلوما بالعبادة والسابقية والانفاق والنصيحة . إنما قام الاسلام على وتد شامخ عتيد هو حرية الانسان وكرامته فمن هدم ذلك بأي حجة كانت هو قاطع للاسلام ولرحم رسوله عليه السلام ولعهده . وكل معترض على ذلك هو معترض عليالله سبحانه .

نفي الاكراه يقتضي عرض الحجة المخالفة ثم نقاشها وتحليلها ثم نقضها عبر البرهان وعرض الحجة المقابلة :

لست أدري إن كان المجال ضاق هنا علي مرة أخرى ربما بحكم بعض الاسهاب فيما أنف ولكن على القارئ على كل حال مراجعة أسلوب القرآن في عرض عقيدته فهو يتوخى ما يسمى اليوم الاسلوب العلمي القائم عليعرض والنقض ثم إستنباط البديل ويتباهي أكثر المثقفين اليوم وأصحاب الدراسات العليا بأن ذلك الاسلوب هو نتيجة المدرسة الديكارتية أو الجدلية أو الغربية عموما والحق الصراح كما يدرك ذلك كل من يطلع على سورة واحدة من القرآن الكريم هو أن ذلك الاسلوب العلمي سبق إليه القرآن سواء في حواره مع إبليس أو مع المشركين بالجملة أو مع بعض الشخصيات البارزة منهم ولك أن تراجع سورة الاعراف مثلا لتدرك أن الحوار من رب العزة سبحانه لم يستثن حتى رمز الشر والرذيلة إبليس إذ كان بإمكان القرآن أن يقرر حقائقه وعقائده تلقينيا دون الحاجة إلى حوار إبليس ولا غيره وكان يمكن له أن يقرر ذلك ضمن جمود المواد الفقهية والقانونية التي تصاغ بها القوانين والدساتير واللوائح فما الذي حمله إذن على ذلك المنهج الذي أعطى فيه الفرصة كاملة سانحة لابليس ولكل المعارضين على الادلاء بأرائهم التي ينقلها القرآن بلسانهم هم دون تحريف ولا تزيد ولا تغيير كاملة وكان يمكن أن يقال من لدن المتعجلين بأن ذلك هو عرض للكفر وإفساح له لعرض نفسه والاقناع بحجته وهو حمل للكفر حتى بحث الفقهاء بحثا هو عندي أقرب إلى العبث من الجد بعنوان حامل الكفر هل هو كافر أم غير كافر وهو عبث فرضته حال الامة يومها حين إرتدت إلى بحث القضايا التي تؤخر ولا تقدم . القرآن الكريم إذن قام منهجه على عرض الكفر كاملا غير منقوص في ثنايا الاقناع بعقيدته الاسلامية فهو يجادل إبليس في عصيانه ويرد عليه بأنه خلقه وأنعم عليه ويرد إبليس بحجة أخرى ويظل الحوار يحتل صفحات طويلة من المصحف الشريف ثم ينتقل إلى نقل حجة المشركين ويطيل معهم الكلام والرد حجة بحجة وبرهانا

ببرهان ثم ينتقل إلى بني إسرائيل في موضوع تأليه مريم مثلا وعيسى عليهما السلام وفي سائر المواقف والمشاهد التي لا أنقلها هنا خشية الاسهاب في الاطالة فهي في الاعراف وفي مريم وطه وفي القرآن كله تقريبا دون إستثناء .

ماهي الرسالة البليغة من كل ذلك ؟

هي تكريم الانسان وتحرير عقله وإحترام ذاته وذلك عبر وضع العقيدة الاسلامية ضمن سياق كوني إنساني إجتماعي عبر قانون المنافسة والمدافعة والمغالبة وعبر أساس الحوار مع كل صاحب رأي من إبليس إلى المشركين إلى بني إسرائيل وفي كل القضايا المثارة دون حجر ولا حكر ولا إقصاء .

الرسالة من ذلك هي أن العقيدة الاسلامية تتوسل بالحرية وليس بالاكراه إذ لاقيمة لمؤمن مكره على إيمانه بينما تظل القيمة في الكافر المصر على كفره أنه قد يحسن الاستماع يوما لمنهج القرآن العقدي فيحكم عقله ويتغلب على هواه فيؤمن أما المؤمن المكره على إيمانه سواء أكره نفسه أو أكرهه غيره فلا خير فيه ولا يقبل منه إيمان لا صرفا ولاعدلا لانه أخل بالشرط الاول وهو الحرية ولانه أهان نفسه فكيف يكرمه ربه ؟

الرسالة من كل ذلك هي أن المنهج العقدي القرآني لم يقم على نفي الاكراه في تأسيس قيمة الحرية على ذلك الاساس فحسب بل أن ذلك المنهج قام على نفي الاكراه من خلال عرض كل طروحات الشرك ومقولات الكفر مهما يكن مصدرها أمام الناس كافة في كل العصور والاماكن وعرض العقيدة الاسلامية إلى جانبها في ذات الكتاب الخالد وبينهما أداة للمقارنة يعول على فقهه من لدن العقل البشري الحر المختار ا لمريد المكرم المعلم فهل ثمة حرية متأسسة على أفضل مماتاسست عليه الحرية في الاسلام وهل ثمة حرية أوسع من هذه ؟

نفي الاكراه إعتمد على عرض الكفر والايمان جنبا إلى جنب وتجاهل الاسماء :

لم لم يذكر القرآن الاسماء سوى إسمين هما أبولهب وزيد على أساس إسم من كل فريق ولم لم يكن أكثر ذكر منطقا وعقلا إسم نبي القرآن الكريم محمد عليه السلام ولم ذكر موسى عليه السلام في كتاب المسلمين بعدد لا يصدق أي بأكثر من عشرين ومائة مرة كاملة أي بأضعاف أضعاف ما ذكر به كل

الانبياء مجتمعين ولم لم يشد بأسماء معينة من مثل أبي بكر وعمر وغيرهما ولم لم يقبح أسماء أخرى حاربته طويلا وماتت وهي على ذلك ؟

الرسالة من كل ذلك هي الامعان في نفي الاكراه على معنى أن العبرة في حجة القرآن بالبرهان والحجة وقبول العقل وإقتناع الناس وحرية إرادتهم وإختيارهم وليس في ذكر الاسماء التي قد يتخذها ضعاف العقول معبودات أو مقدسات تلهي عن الفكرة التوحيدية الساطعة أو عن الحجة مطلقا فالقرآن إذن راعي كل معاني ومقتضيات نفي الاكراه مهما كان ذلك الاكراه خفيا قد تتعلق به بعض النفوس الضعيفة وذلك هو معنى القول بأن القرآن يبني دوما العقلية العلمية في الانسان لا العقلية الخرافية أو التقليدية أو عقلية الاكراه . بلغت قمة التسامح الاسلامي في القرآن الكريم وقمة إنبناء منهجه العقدي على الحجة دون غيرها مبلغا عجيبا جعله لا يذكر صاحب الكتاب من تحمله وأنزل عليه سوى بعدد أصابع اليد الواحدة بينما ذكر موسى نبي اليهود خاصة وبني إسرائيل عامة أكثر من عشرين ومائة مرة وذكر عيسى نبي النصارى بأقل من ذلك ولكن بأكثر مما ذكر محمد عليهم السلام جميعا فما هي الرسالة ؟ الرسالة هي أن العبرة بالحجة والبرهان مقتضيان لنفي الاكراه وأن الحجة التي آمن بها أتباع محمد هي ذاتها التي بها آمن أتباع موسى وعيسى وأتباع كل الانبياء لانها مشكاة واحدة عليهم السلام جميعا . وبمثل ذلك جاء النداء بياأيها الناس ويا أيهاالانسان ويا أهل الكتاب بشئ قريب من نداء يا أيها الذين آمنوا فالقرآن كتاب الناس جميعا وكتاب الانسان كله وليس الذين آمنوا به سوى طائفة تعزر كل يوم بفريق من الناس ومن الانسان ومن أهل الكتاب وخلا من نداء الكافرين إلا في موضع واحد في الدنيا ختمه بقوله " لكم دينكم ولي دين " وبموضع آخر وحيد يوم القيامة . وكل تلك دلائل على معاني نفي الاكراه ضمن معالم ذلك المنهج .

توخى القرآن نفي الاكراه بنفي المعجزة :

لئن قامت الرسالات السالفة على حضور المعجزة المادية التي تظل أعناق الناس لها خاضعة رغم أن ذلك لم يكن هو الفيصل دوما ولا أساسا فإن رسالة الاسلام خلت من المعجزات الخارقة لقوانين العقل وماجاء ثابتا منها في عهده عليه السلام وعلى يديه لم يعول عليها لا كثيرا ولا قليلا في كسب عقيدة أو إيمان ولم تقع الاشارة إلى ذلك ولو مرة واحدة في القرآن بل إن الاشارة إلى نفي ذلك بعد نزول الرسالة الجديدة هو الاكثر صحة وصراحة وقد تقول لي ما وظيفة تلك المعجزات إذن في عهده وعلى يديه ؟ هي أولا لم تكن كثيرة بل كانت معدودة جدا ثم لم يتعلق بها منه أي تعليق عليه السلام في كون ذلك

دليلا على صدقه خاصة في إتجاه المؤمنين بل كانت من قبيل التكريم له سبحانه ومن قبيل جلب وطمأنة بعض القلوب التي لم تكن بالتأكيد على ذات مستوى العقل والفهم والطمأنينة فهي تحتاج إلى شئ مماثل ومن قبيل إرغام بني إسرائيل الذين يشغبون على المؤمنين بأن محمدا عليه السلام بدعا من الرسل إذ لم تصاحبه المعجزات والخوارق ومن قبيل حل المشاكل الواقعية كما حدث يوم نبع الماء من بين يديه الكريمتين عليه السلام لسقاء الجيش الظامئ في يوم قائظ حار ومن قبيل تعبير الكون بشجره ومعالمه عن تسبيحه بلغة يسمعها الثقلان ويفهمانها كما حدث يوم حن الجذع الذي كان يخطب إليه وبكى وسمع منه ذلك فهو تعبير منه على تسبيحه وحبه وإيمانه وإن كان كرها لا خيارا كما هو حال الانسان وما أظن أن صحابيا سيما من الذين عول عليهم في نشر الدين والدعوة إزدادا بذلك إيمانا وعبر بعض الصحابة عن ذلك بقول أحدهم بأنه أظمأ نهاره صوما تطوعا وأسهر ليله كرى للقيام والصلاة والعبادة فلم يعد يزيد في إيمانه حتى لو رأى عرش ربه بارزا وهو كلام أعجب الحبيب عليه السلام وأقره عليه وفي المقابل لما حاول بعض ضعاف الايمان من المسلمين إضافة هالة من القدسية الكاذبة على إلتقاء كسوف الشمس بموت إبراهيم عليه السلام نهرهم بشدة وخطب فيهم وبين لهم معالم العقيدة الصحيحة السليمة وكان يومها يمكنه لو كان للمعجزات والخوارق في نهجه مكان أن يصمت عن المسألة حتى يؤمن من لم يكن قد آمن أو آمن وفي إيمانه نقص وهي مصلحة ولا ريب وربما لو صمت لكان كثير من ذلك ولكن الخسارة التي تجنبها عليه ا لسلام بفصل خطابه في أثناء الحادث أكبر وهي إنبناء الدين على المعجزة الخارقة للسنن والاسباب المهينة لارادة الانسان وأي خسارة تلحق بالدين ودعوته لو صمت يومها عليه السلام وهو دليل كاف لقولنا بأن عالم المعجزات والخوارق في الاسلام لا مكان له بمعنى تشكيل المنهج وليس بمعنى إنكار الوجود الذي كان يتسم بالشخصية أقرب منه إلى الجانب النبوي فضلا عن التشريعي إلا في حالات نادرة جدا من مثل إنشقاق القمر أو من قبيل ما ذكرناه آنفا .

إن خلو المنهج القرآني العقدي من حضور المعجزة الخارقة دليلا على قوة العقيدة وصلاحيتها وليس مجرد الحضور لبعض المظاهر المذكورة آنفا معناه أن نفي الاكراه في ذلك المنهج لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا تلبس بها إذ من الاكراه أخضاع أعناق الناس لاية خارقة من السماء لا تكنهها العقول وذلك مع الاحتفاظ بفكرة أرى أن بعض من تناولها لم يوفها حقها حين يقول بأن المعجزات والخوارق صاحبت بإطلاق الرسالات السابقة وهي فكرة خاطئة لان المشكاة واحدة والعقيدة واحدة والدين في أسه واحد سيما في التوحيد والبعث والنبوة وكرامة الانسان ولان القرآن سار على نهج حواري بين الانبياء وأقوامهم قوامه حرية الارادة وحجة العقل وسطوع البرهان فلما أعرض الاقوام كانت الخارقة إلا قليلا من ذلك

فلم تكن إذن وظيفة الخارقة حمل الناس على الايمان ولكن كانت في الغالب لما أعرضوا برغم الحقائق العلمية الباهرة وكل إتجاه مغاير إنما يغمز الاسلام من حيث لا يدري . وليس معنى ذلك أن حضور الخوارق في كل الرسالات متساويا فمن المؤكد أن رسالة محمد عليه السلام تخلصت من ذلك بالكلية فيما يتعلق بمنهج الاقناع خاصة وتلك حكمة رحمانية ربما لا يتوصل الانسان إليكنه كل معانيها .

الاحالة على الانسان من لدن المنهج القرآني العقدي إذن تعني هنا فيما نحن بصدده اليوم بأن الحرية الانسانية هي الفيصل في قبول أو رفض تلك العقيدة على أساس إقرار حقيقة كونية صارمة سماها القرآن نفي الاكراه المؤسس الاول للحرية البشرية .
المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة السادسة : في الانسان ميزان لا يكذب

أطول إحالة إعتمدها المنهج القرآني على درب الاقناع بعقيدته هي الاحالة على الانسان فهو يخاطب نفسه عبر مشاهد النعيم والعذاب كما يخاطب إرادته عبر بنائها على نفي الاكراه ويخاطب عقله كما سنرى اليوم بإذنه سبحانه وذلك عبر مستويين أحدهما ما سماه القرآن ميزانا والاخر عبر شبكة واسعة من الامثال وربما نضطر لاجراء حلقة مستقلة عن كل مستوى . أطول إحالة إذن هي الاحالة على الانسان سواء بصفة مباشرة من خلال فروع هذه الاحالة التي نحن بصددها أو بصفة غير مباشرة من خلال ما مر بنا وسيمر من إحالة على الكون والتاريخ والنظام السنني وغير ذلك . ذلك فيما رأيت والله ورسوله أعلم .

ماهو الميزان في القرآن وكيف يكون إحالة من لدنه لكسب العقيدة ؟:

"الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان " الشورى

" والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان " الرحمان

" لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد " الحديد

تلك هي المواضع التي ورد فيها الميزان في القرآن غير مقصود به الميزان المادي من مثل قوله " ولا تنقصوا المكيال والميزان " .

الميزان منزل من السماء شأنه شأن الكتاب تماما .

الميزان المنزل من السماء يصحب الكتب والرسل بالحق يراد به إقامة القسط دون طغيان ولا إخسار .

ذلك الميزان ذاته بذات تلك المقاصد يعقب على ذكره وذكر مقاصده بأنه مطالب بحسب معنى السياق بإعداد القوة بسائر مظاهرها الجالبة لرفاهية الانسان والحامية له من الظلم إنتصارا لله لعبده المظلوم من عبده الظالم .

هي عائلة واحدة إذن تتكون من الكتاب والميزان والانسان والعلم والحساب والعبادة وإقامة القسط والكون والقوة ونعيم الدنيا والجهاد في سبيل الله . راجع ذلك في مواضع الميزان في القرآن .

صاحب الميزان المذكور في القرآن الكريم المطالب الثلاثة الاكثر إلحاحا وفرضية في الاسلام وهي الشورى ـ الحرية بالتعبير المعاصر ـ التي لا تقوم الجماعات بالقسط بدونها وهي كذلك العلم المكرم للانسان إذ أول صنائع الرحمان هي تعليم القرآن والبيان وليس بسوى العلم يخشى الانسان ربه ويعمر مخلفته وهي ثالثا وأخيرا إقامة العدل وحراسته بقوتين : قوة تسخير الارض لجلب النعيم طردا لافة الفقر ومخلفاتها من تخريب للعمران ووأد للعدل وقوة الحرب لردع البغاة والطغاة . الميزان إذن شرط للشورى وللعلم وللعدل والقوة أو قل هو حاضن كل تلك المقومات التي هي بدورها تعطي لمعنى إنسانية الانسان طعما وريحا ولونا يختلف عن لون الكواسر.

فماهو الميزان إذن ؟

إن قلت هو السنة النبوية عورضت بأن السنة وحي يوحى شأنها في ذلك من حيث المبدإ الاجمالي دون تفصيل شأن الكتاب وإن قلت أي أمر آخر خارج الوحي فقل ماشئت حكمة أو صوابا أو إجتهادا مقبولا أو حسن عبادة وحسن عمارة أو عدلا وقسطا وتكريما ومراعاة للفطرة ... قل ما شئت ولن تختلف منك ومني سوى العبارة أما الاشارة فهي واحدة فضلا عن الاقتضاء . الفيصل إذن في تعريف ا لميزان المنزل من السماء والكفيل بتحقيق مراد الله منا وفينا هو أن يختلف الميزان عن الكتاب والسنة وكلاهما وحي يوحى أو يتميز كلاهما عن الاخر على قاعدة الاشتراك والاختلاف . فماهو الميزان الذي أناط به الله سبحانه كل مقصد نبيل تكدح البشرية مذ نزولها إلى الارض لبلوغة طلبا للامن والسلام ونبذا للظلم والرهق؟

الميزان هو العقل الجماعي للامة الاسلامية في سائر أطوارها منضبطا بصنوه الكتاب المنزل ومنفتحا على واقعه المتغير المتطور كادحا دوما لحسن العبادة وحسن العمارة وحسن الخلافة .

الميزان هو آلة تحقق العدل والقسط ماديا . وهو كذلك تحديدا آلة تحقق العدل والقسط معنويا .

الميزان هو كل نظر وعمل يحقق قيم العدل والحق والكرامة .

هل يمسك غير المسلمين بالميزان فيحققوا خيرا ؟ أجل ولكن فيما هو من مشمولات الميزان الفطري أو الواقعي في الناس دون الجانب الشرعي الخاص في الدين سيما الاسلام . الميزان في تلك الحقول آلة محايدة من أمسك به حقق خيرا في حياته فإن كان مسلما كان الخير أكمل وأشمل وأعرق وزنا وأشد عدلا وأظهر قسطا وألصق فطرة وكان له ذلك في الاخرة جزاء وإن كان غير مسلم كان كل ذلك رغم علو كعبه وشرف شأنه منقوصا وليس له في الاخرة عليه جزاء .

لكل شئ وأمر طرا مطلقا ميزان :

وضع الله الميزان في عروس القرآن بين السماء والارض أي بعد رفع السماء وقبل وضع الارض وذلك ليقول لنا بأن كل شئ وأمر له ميزان مهما دق أو عظم أو إنتمى إلى دنيا المادة أو إلى دنيا العقول والارواح أو كان بين الامم والشعوب أو داخل تلك الامم والشعوب ففي الانسان ميزان يعدل الامر بين سائر

مطالبه وفي الامة ميزان يحرك قانون التدافع وفي الناس ميزان . تماما كما أن كل شئ مادي يوزن حتى عشر معشار ذرة من حسنة مثلا أو خاطر ولجك بأسرع من سرعة الضوء فإن لكل شئ معنوي ميزان .

لو رسمنا لذلك الميزان هيكلا لقلنا بأن رأسه التوحيد لله سبحانه وكل ميزان إنقطع عن أصله التوحيدي كان كمن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق وأن عموده كرامة الانسان ومن جز عمود ميزانه إنقطعت شبكة شعيراته العصبية التي تصل عموده بمخه فمات أو إنشل وأن ذروة سنامه العدل وما يتفرع عنه من حرية وشورى وقسط ومساواة وقوة.

أضرب لك مثلا في دقة الميزان وشموله لكل شئ وأمر مهما دق : كان عليه السلام إذا سلم على قوم فيهم النائم وفيهم اليقظان سلم على نحو يسمع اليقظان ولا يوقظ الوسنان .

ميزان الانسان عقله :

يستوي في ذلك الانسان كله كافره ومؤمنه وقديمه وحديثه أولا لان العقل مناط التكليف ومنه معرفة نفسه وربه ومصيره فإذا كان ذلك معززا بالوحي وهو ما تم لكل قوم في ا لتاريخ فإن العقل عندها يكون هاديا مهديا وثانيا لان الانسان لا يتطور في أصل عقله وأس جهازه الباطني وملكاته الفطرية ولكن تؤثر فيه أزمنته وأمكنته وحوادثهما دون إتيان على الاصل المؤصل . العقل كما تعرف عقلان : عقل فطري يميز به الانسان منذ السنوات الاولى من حياته بين النافع والضار في المادة ثم في المعقولات الحياتية العامة وهذا هو الاصل الذي تساوت فيه الخليقة وهو كذلك الاصل الذي أهل لطرق العقائد والتوحيد سيما بعد ورود الوحي وقد ورد دوما . وعقل متفرع عنه يكبر وينمو مع الايام والتجارب والمشاهدات في الكون والتاريخ والنفس قادر على كشف حقيقة الوجود معرفة وعلما . أما الهوى الذي هو مكون أصيل إلى جانب العقل في الانسان وهما عدوان لدودان خاصة في العقل الثاني ـ عقل المعقولات لا مجرد عقل الماديات ـ فإن وظيفته الشغب على العقل وذلك حتى تكتسب سنة الابتلاء في الكون والانسان لونها وطعمها وبها تتنفذ إرادة الرحمان سبحانه وعليها يترتب الجزاء في الدنيا وفي الاخرة . ولكن العقل في الانسان أقوى من الهوى وذلك لان العقل في الماديات عادة لا يشغب عليه الهوى بل يآزره ويعززه لان خطأ العقل هنا أمر لا يرضاه الهوى فهو يتجنب الموت والهلاك بكل صوره دوما فلا يبقى للهوى إذن سوى مجال الشغب على العقل حين يعزز الروح ـ وهي البعد الثالث هنا ـ لتحسين منزلة الانسان فيما

يستقبل من أيام وحتى في هذه الحالة فإن الهوى لا يشغب على كل خيار يتجه إليه العقل بل يشغب عليه سوى في الخيارات التي تسبب للبدن حرجا أو عنتا أو مشقة أو للنفس كذلك ولذلك جاءت الشريعة بضرب من التكاليف فيها نوع من المشقة ولكنها مشقة متحملة فما زاد عن تلك النسبة صار عنتا وضيقا وجب توسيعه . حاول الان إجراء حوار قصير بين عقلك وهواك في قضية التوحيد ويكون الحوار أكثر مصداقية بأحد شرطين أولهما أن تكون كافرا وأعوذك وإياي من ذلك بعد هدى وثانيهما أن تلتزم الموضوعية ما إستطعت رغم العسر هنا . ستجد أن هواك لا يشغب على عقلك كثيرا في الايمان بالله سبحانه إلا في حالة تعريضك لنفسك أو بدنك لما يعده هواك مشقة يسعى دوما لطردها وإستبدالها بالمتعة . الخلاصة من كل ذلك أن الهوى وإن كان مركبا أصيلا ومكونا من مكونات الانسان تماما كالعقل والروح فهو أضعف من قوة العقل في الانسان ولك أن تلحظ ذلك جليا عند الملحدين والكافرين عامة فإن عقولهم تعصمهم كثيرا من كثير من المثالب وليست نسبة تعاطي المهلكات البدنية والنفسية مثلا فيهم مهما علت نذيرا عريانا يتهدد وجودهم للتو وذلك هو معنى قولنا بأن ميزان الانسان عقله وأن عقله فيه أقوى من هواه وما كان غير ذلك فهو شاذ لا يقاس عليه سواء في دنيا الكفار أو المسلمين .

القرآن يحشد كل معطيات العقلانية لبناء الميزان العادل في الانسان :

قم بإحصاء كلمات : البرهان والسلطان والبينة والبيان والفرقان والحجة والعلم والحكمة والفقه والاستنباط والتأويل والتفهيم والتبين والشهادة واليقين والايمان والتصديق والميزان والقيومية والقوة والحق والمعروف والاحسان والبصائر والاستقامة والمكيال والقسطاس والامانة والسلام والميثاق والتمكين والنظر والتدبر والتأمل والتفكر والعقل والفطرة والعدل والسماع . حتى بلغت مشتقات العقل في القرآن الكريم بما يناهز المائة . ولك أن تركز على ذيول الايات سواء كانت بمعنى الامارة أو بالمعنى الاصطلاحي في القرآن الكريم فستلفى أن الامر لا يخرج عن دائرة التعقل بوجه ما حتى قال عالم كبير وفقيه عملاق هو المرحوم العقاد بأن التفكير فريضة إسلامية فيعلق الوحي عن كل تلك الايات بأنها لقوم يعقلون أن يتفكرون أو يسمعون أو يوقنون أو يؤمنون أو يعلمون ووصفهم بأنهم أولو ألباب ونهى وأحلام ووصل إلى حد القول بأن من إطمأن عقله بالدليل القاطع إلى إله آخر غيري فلا تثريب عليه كلما كان الامر خاضعا للبرهان لا للدعوى العارية عن كل دليل " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه " . ركز على كلمة " لا برهان له به " وإسأل نفسك لم قالها الله وما معناها

وماهي رسالتها إلينا .فهل يمكن أن يجد الانسان إلها آخر له به برهان ؟ إذا كان ذلك محالا فلم قالها ؟ هل يريد فتنتنا بعد إذ هدانا؟

لا هو يريد منا عقيدة نطمئن إليها عقلا ونفسا لا مجال فيها للتقليد أو حبة خردل أو أقل من ذلك من ريب ؟ وظل الخطاب القرآني يتحدى الناس بقوله " قل هاتوا برهانكم " في المعقولات وبقوله " أو أثارة من علم " في المرويات .

القرآن الكريم يستخدم معطيات المنطق العقلي السوي في الاقناع بالتوحيد :

"أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة " . لا أخفي القارئ الكريم بأن هذا الموضع وما سبقه في الفقرة السابقة في آخر آيات سورة المؤمنون أخذا مني مأخذا كبيرا وفعلا في فعلا لا يوصف وزادا من إيماني تماما كما يزداد حين أتفكر ببضاعتي المزجاة في الفضاء الكوني بالبلايين المبلينة من مجراته وكواكبه ثم أسأل نفسي وماذا بعد ذلك فالنهاية لا تقنع عقلي ولا ضدها من اللانهاية فيرجع إلي البصر العقلي خاسئا حسيرا ولكن وطابه مترع باليقين الصافي .

تدبر معي هذا مليا : ألم يكن يكفي ربنا سبحانه أن يقول لنا أنا الاله الحق ولا إله غيري فمن آمن فله الجنة ومن كفر فله النار ثم ينهي قضية العقيدة بكلمات قصيرة قليلة وينتقل إلى التشريع العبادي والمعاملاتي في سائر جوانبة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والاسرية يفصل في ذلك تفصيلا يجعل الناس اليوم لا يختلفون كثيرا حول تلك الامور التي تستهلك بأكثر من خمسة وتسعين بالمائة من حياتهم اليومية ؟ تدبر معي هذا يرحمك الله كثيرا . ما الذي يضطر الوحي إلى إعتماد لب المنطق العقلي السوي الذي يدركه كل صبي دون العاشرة ؟ ألا تشعر أنها يخاطبنا في هذه الاية بما تعقله عقولنا بيسر شديد وليس المنطق العقلي البشري السوي سوى ذلك. فمن كانت له صاحبة منا كان له ولد في العادة ومن لم تكن له صاحبة منا لم يكن له ذلك في العادة . كيف يستخدم الوحي هذا المثال البشري ا لحي المترع منطقا عقليا سليما سويا وهو يقنعنا بوحدانية الواحد الاحد الفرد الصمد سبحانه ؟ رسالة واحدة وحيدة يريد الابراق بها إلينا من خلال ذلك المنطق العقلي السوي السليم الذي يدركه كل إنسان في كل زمان وكل مكان وكل حال وهي أن المنهج العقدي القرآني عماده الاسنى العقل المنطقي السوي السليم وليس غير ذلك فإذا كان الناس قديما أو حديثا قد ضربوا بذلك عرض الحائط ولجؤوا إلى

الشعوذة التقليدية والمعاصرة أو إلى تنكب المنطق العقلي أو إلى التجريدات الفلسفية الباردة فالذنب ذنب من ؟ ذنب عقيدة غيبية ليس لها من الغيب سوى الاسم إذ هي معللة مبرهنة معقولة مفهومة بأكثر ما تكون عليه الماديات الملموسة المحسوسة أم ذنب مسلمين وأناس عامة هجروا النظر العقلي والمنطق السوي فأنى لهم الهداية ؟

أمثلة أخرى على إستخدام القرآن للمنطق العقلي السوي السليم :

" لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " و " إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ".

أرصد بالله عليك كل تلك المظاهر في القرآن الكريم ثم قيدها في قمطر خاص بها ثم تدبر في الامر مليا ثم سل نفسك هل العقيدة الاسلامية غيبية على النحو الذي فهمه المتأخرون من المسلمين إذ إمتهنت كرامتهم بعد ما كانوا سادة الدنيا ومصابيح دجاها أم هي غيبية الاصل مشهودة الاثر ؟ المنطق العقلي السوي السليم هذه ا لمرة يتعلق بالكون الذي قال كل الكافرين من حولنا بما إكتسبوا من خبرات علمية وإكتشافات عظيمة بأنه بالغ التناسق بديع البناء بشكل لا يصدق حتى قال رجل له باعه الاكبر في الغرب إلى يوم الناس هذا وهو المعروف بقانون النسبية إنشتاين بالحرف الواحد " إني أعد من لا يؤمن بالله سبحانه أحمق " . كيف نصدق إنشتاين في كشوفاته العلمية ونكذبه أو نهون من شأنه في كشوفاته العقلية المتعلقة بعقيدة التوحيد ؟ كلما تبحر الانسان في غزو الفضاء ـ رغم أن المصطلح غير مناسب كثيرا ـ علم من تناسق الابداع الخلقي في الكون أمرا لا قبل له به ولا شك أن أكبر الناس في ذلك باعا من رحلوا إلى هناك حتى أن بعضهم منع من نقل آيات باهرة في ذلك من مثل سماع الاذان وغير ذلك من الايات الروحية والمادية إلى الاعلام لان ذلك يقوي شوكة عدو بزعمهم أهانوه بالعلم وهم يستعيدون في ذلك ذات المنطق الجاهلي لابي جهل عمرو إبن هشام لما قال شيئا مماثلا عن بني هاشم ولا يتسع المجال هنا له . أنظر إلى مقادير الاوكسيجين في الهواء مثلا وغير ذلك كثير مما لا يتسع المجال له هنا الان وإقرأ في ذلك كثيرا حتى تدرك أن الكون من حولنا على درجة من التناسق والابداع في المقادير والاحجام والعلاقات والتحولات بشكل لا يصدق دقة متناهية ثم قل من يرعاه ومن أنشأه ومن خلقه ومن قدر له كل ذلك وإرجع إلى قوله " إنا كل شئ خلقناه بقدر " و" إن من شئ إلا يسبح بحمده " و " ومن كل شئ خلقنا زوجين " وإجمع بين تلك المعاني الثلاثة ينقدح في ذهنك للتو بأن التناسق البديع في الخلق الكوني

يقوم على أسس ثلاثة هي : حسن التقدير والبناء الزوجي وحركية العبادة وهي ذات الاسس التي لو تطلع إليها الناس في دنياهم لحققوا نجاحات باهرة .

إليك هذه على عجل وخذها على عجل : كل الامارات الدالةعلى وحدانيته سبحانه إنما عمادها الاكبر قانون الزوجية . تدبر فيها معي بعد إحصائها في الكتاب ثم راجعني . ذلك هو موضوع إحالة قادمة حول النظام السنني ولكن إلتقطتها الان بمناسبة إنقداح من أثر هاتين الايتين اللتين نحن بصددهما . إذا كانت كل العقول الكافرة والمسلمة اليوم تقر ببديع التناسق الكوني بشكل يسلب العقول ويخلب الانظار لدى كل الناس بالقدر الذي تسمح به إطلاعاتهم وعلومهم فإن ذلك لدليل على أن القرآن الكريم يستخدم ذلك وفق ما فعل هنا في هاتين الايتين منطقا عقليا سويا سليما للاقناع بالعقيدة الاسلامية .

فبالخلاصة إذن فإن الميزان المنزل إلى جانب الكتاب من السماء ليقوم الناس بالقسط ولو عبر إستخدام القوة العسكرية لردع الظلم وإنصاف المظلوم إنتصارا لله أن يهدم صنيعته الانسان فلن يعبد بالعبد الذي إختاره هو لعبادته ... هو المعول عليه بما هو العقل البشري سيما في حركته الجماعية مسنودا بالوحي منفتحا على الواقع في إقناع الناس ذاتهم بالعقيدة الاسلامية وذلك عبر إستخدام المنطق العقلي السوي أو عبر إطلاق عقال العقل تفكرا وتدبرا وعلما .

الميزان الانساني إذن هو مناط الاعتقاد .
المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني
الحلقة السابعة : أمثال يعقلها العالمون

الامثال في القرآن الكريم تكاد تشكل محورا لذاتها لكثرة ورودها إذ بلغت أربعين مثلا أو تكاد وإمتدت على مساحة القرآن الكريم بأسره كما أنها من جهة ثالثة تناولت الموضوع العقدي المباشر أو الخاص أكثر ما طرقت وبذا نقول بإطمئنان كبير بأن مراهنة المنهج العقدي القرآني على عنصر التمثيل الحي ضمن موازنة العقل بين الحق والباطل في كل ذلك يندرج ضمن إستخدام الميزان من لدن الانسان وضمن المراهنة على الانسان ذاته بالنتيجة رحى في قلب معالم ذلك المنهج .

وظيفة الامثال في القرآن الكريم مزدوجة : فنية وعملية :

أنوي إن يسر الله لي سبحانه تأليف شئ عن الامثال في القرآن الكريم لفرط تتبعي لهذا المحور سواء من الزاوية الفنية أو العملية ضمن ذلك المنهج منذ أمد ومعنى ذلك أني لن أطنب هنا فيها سوى بالقدر المطلوب بإقتصاد .

أول ما يشدك وأنت تطالع الامثال في القرآن الكريم جانبها الفني الساحر كيف لا وقد فعل ذلك فعل السحر في العرب المشركين إلى حد الهزيمة وليس ذلك سوى للقوة البيانية الاخاذة والبناء البلاغي المعجز وكان ذلك مقصودا من القرآن الكريم قصدا عبر عنه في ثلاثة أو أربعة مواضع تعبيرا مباشرا بلهجة التحدي والمنازلة وفي إحدى عشر موضعا غير ذلك كان يعبر عن عربية القرآن الكريم فيما يشبه ذات اللهجة وفضلا عن ذلك حشد في فتح ما يقارب ثلث سور القرآن الكريم ما يناهز نصف المادة الحرفية التي تكون تلك العربية فيما يشبه ذات اللهجة ويحقق ذات المقصد كذلك .

غير أن تلك الوظيفة الفنية لمحور الامثال في القرآن الكريم ما ينبغي أن تشغلنا عما هو أبعد قصدا من كل ذلك وهو أن وفرتها وسائر خصائصها التي شرحت بإقتصاد فيما أنف بوأتها لتكون ذات وظيفة عملية تعزر سائر أخواتها من معالم المنهج العقدي في القرآن الكريم سيما أن موضوعها الاكبر وهمها الاول في الاعم الاغلب هو بسط حال المؤمن وحال الكافر أمام الميزان الانساني الحر لينحاز بعد التعقل والتفكر والتدبر والتأمل والمقارنة وإجراء سائر العمليات العقلية الممكنة إلى فريق يختار الانحياز إليه بكل حرية وإرادة دون أدنى حبة خردل من إكراه ثم يتحمل مسؤوليته كاملة بعد ذلك .

جانب مهم آخر توافرت عليه كثير من الامثال القرآنية بشكل مباشر ولوحت به الاخرى تلويحا صريحا أو ضمنيا وهو جانب المقارنة بين حالين ووضعين ومصيرين ومآلين وعيشين ولا ريب عند العقلاء في كل زمان وكل مكان بأن أفضل طريق لحسن الاختيار الحر هو الاعتماد على منهج المقارنة حتى قال الشاعر الحكيم وبضدها تتميز الاشياء .

تلك هي طريقة القرآن الكريم في الجمع دوما بين السحر البياني والبديع البلاغي وبين الرسالة العملية سواء في المضمار العقدي الخالص أو الخاص أو في المضمار التشريعي العملي فهل من مدكر ؟

ماذا قال القرآن الكريم عن أمثاله ؟

ذلك أمر حري بنا تناوله حتى نستمع بأنفسنا لمقالة صاحب الشأن في شأنه وليست مصيبة كثير من الناس اليوم من كل الطوائف والملل في رفض الحوار أو الالتفاف عليه فضلا عن التورط في الاقتتال البغيض سوى من أثر الجهل المدقع بالاخر والاقتصار عما يرسمه عنه عدوه أو خصمه أو أي جهة أخرى غير منصفة بقصد أو بدون قصد .

" وما يعقلها إلا العالمون " يتحدث عن وظيفة الامثال قائلا بأنها مخصصة للتدبر عقلا من لدن العالمين وذلك في صيغة حصرية قصرية . أليس ذلك دليلا كافيا ضافيا بأن محور الامثال في القرآن الكريم معلم من معالم المنهج العقدي ؟ الامثال إذن تؤدي وظيفة عقلية علمية تتجاوز الجانب السحري من بيانها البديع وتتجاوز من باب أولى وأحرى مجرد الاثارة والتلاوة والقصة وهي بالتالي معول عليها في تحريك العقول وإكساب العلم بالعقيدة وجني الايمان وسمى أولئك عالمين بصيغة التعريف وحشر في هذا الجزء القصير الصغير من الاية كلمتين مما إستخدم كثيرا لكسب العقيدة وهما العقل والعلم فعقل رسالة المثل يتطلب علما مقدما حتى على مجرد الايمان كما ورد في الاثر بأن الانسان يعطى الايمان قبل القرآن .

"كذلك يضرب الله الحق والباطل " جاء ذلك في إثر ضرب مثل ومثل هذا التعليق معناه أن للمثل وظيفة عقدية بإمتياز إذ تعلق الامر بالحق والباطل وليس بالصواب والخطأ وإصابة السنة أو تنكبها . فالامثال إذن معلم بارز من معالم ذلك المنهج العقدي .

وبمثل تلك التصريحات الكثيرة والاشارات العديدة عقب القرآن الكريم على أغلب الامثال بمثل ما فعل مع القصة في القرآن الكريم وفي ذلك درس بليغ مؤداه أن القصة والمثل وكلاهما ينبجس من مشكاة فنية واحدة موضوع للتعقل والتدبر والـتأمل عبر منهج المقارنة والتحري والتقصي ومن ثم ينشأ الايمان وتكسب العقيدة .

قد يعجب بعض الناس كيف أن المنهج القرآني العقدي إستخدم آليتي القصة والمثل كثيرا ـ ما يناهز ستين موضعها بالاشتراك بينهما ـ . ومحط ذلك العجب هو أن الناس ألفوا لاسباب معروفة طويلة لا مجال لشرحها الان المنهج التلقيني الجاف المجرد الميت من جهة كما ألفوا السرد الاجوف للامثلة والقصة

وبالغ الناس في ذلك مبالغة رهيبة من جانب القاص والمقصوص عليه سواء بسواء حتى أضحى ذلك مخدرا قاتلا يصيب النفوس بالسلبية وتلجأ إليه تماما كما يلجأ أهل المخدرات اليوم إلى ما يسمونه أدوية روحية تنقلهم إلى عوالم أخرى بعيدة مجهولة يستريحون فيها لفترة وجيزة من ألام الحاضر وكوابيس المادة المؤلمة وعربدة الشهوة التي ظلت تلبى حتى ثمل الناس وسكروا ولما زاد الامر عن حده إنقلب إلى ضده هلاكا وضياعا .

القصة والمثل إذن في القرآن الكريم معالم منهج عقدي شامل كامل متكامل ولكن برسالة جديدة وعبرة جديدة تخاطب العقل وتدعوه إلى المقارنة والنظر في حال هذا وذاك ثم إختيار السبيل بكل حرية . وقد كان ذلك عند الادباء والقصاصين ومنهم نوابغ متلألئة في سماء الفن الادبي بكل ضروبه مادة للابتذال وزرع اليأس وتكريس السلبية والصرف عن العقلانية والانسانية وتيهانا في بيداوات الغفلة .

فالمثل إذن لو دققت النظر فيه مطلقا وفي القرآن خاصة خير أداة يستخدمها العقل للوصول إلى الصواب والتمسك بالحق المبين وذلك لانه يقوم على منهج المقارنة سواء صراحة أو بالاشارة والاقتضاء وهذا فن معروف في اللغة العربية وربما في كل اللغات وليس إنتاجا إسلاميا أو قرآنيا خاصا ذلك أن من عظائم الاسلام وبركات القرآن أنه خاطب أول وأكبر أعدائه الكافرين به والمحاربين له من العرب المشركين في بداية الامر بذات لغتهم وبذات أساليبهم وبذات إستخداماتهم وإستعمالاتهم التي نحتوها هم وتفاخروا بها هم وبنوا هم أنفسهم أمجادهم عليها وهم أعلم الناس طرا بالمثل وإستعمالاته وأركانه وإستخداماته وبالقصة وبسائر ضروب الفن البياني ومن يستخدم سلاح خصمه به يتحداه وبما أمضاه به وشحذ يقهره قهرا لا ريب أنه ينتصر مرتين لا مرة واحدة . من كل ذلك وغيره كثير فقه المشركون أنه وحي يوحى لا قبل لمحمد عليه السلام ولا لغير محمد عليه السلام به فآمن من كان صادقا مع نفسه محترما لعقله وجحد غيره .

نظرة عجلى في شبكة الامثال الواسعة في القرآن الكريم :

علمنا فيما سبق بأن أغلب الامثال تعرض حال الكفر ومآل أصحابه بوجه أو بآخر وذلك يعني أن رسالة الامثال في العموم رسالة عقدية خاصة ولك أن تنظر فيما يلي :

" مثلهم كمثل الذي إستوقد نارا ... "

" أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ..."

" ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا ..."
"كمثل صفوان عليه تراب ..."
" كالذي يتخبطه الشيطان من المس ..."
"كمثل الكلب ..."
"أولئك كالانعام بل هم أضل ..."
"إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ..."
"مثل الفريقين كالاعمى والبصير والبصير والسميع ..."
"كباسط كفيه إلى الماء ..."
"فأما الزبد فيذهب جفاء ,..."
"كرماد إشتدت به الريح في يوم عاصف ..."
"كشجرة خبيثة إجتثت من فوق الارض ما لها من قرار ..."
"عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ..."
"رجلين أحدهما أبكم ..."
"رجلين جعلنا لاحدهما جنتين ,..."
"لن يخلقوا ذبابا ولو إجتمعوا له ..."
"كأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ..."
"كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ,..."
"كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ..."
"كمثل العنكبوت إتخذت بيتا ..."
"رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ..."
"كمثل غيث أعجب الكفار نباته ..."
"كمثل صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ..."

" قرية كانت مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله ..."

أغلب الامثال ـ ولم أورد هنا منها سوى ما كان خاصا بالكفار ـ متعلق بالكافرين فلم يتعلق بالمنافقين مثلا سوى مثلان وبالمرتد سوى مثل واحد وما كان في شأن الدنيا فإن المقصود به الكفار الذين إنحاوزا لاختيار الدنيا على حساب الاخرة بالكلية وليس مجرد شهوة المؤمن للدنيا أو إنغماسه فيها مع إحتفاظه بالتصديق والايمان والاعتقاد وما كان من بين تلك الامثلة يغري بأن المقصود بها كذلك مرة أخرى طائفة من المؤمنين فهو إلى الوهم أقرب وذلك من مثل قضية الربا والرياء في الانفاق وذلك بحكم أن السياق يحارب يومها إما المنافقين وهو الاولى سيما أن المسألتين وردتا في سورة البقرة التي خصصت لقضية النفاق حيزا معتبرا وذلك لان الرياء في حده الادنى الذي يقع فيه كل مؤمن تقريبا له علاجه في الاسلام ولا يشنع عليه ربنا سبحانه في القرآن تشنيعا نظيرا لما يقع يومها من المنافقين الذين يتخذون ذلك ذريعة لهدم أركان الدين من سقفها وأسها وكذلك قضية الربا إذ لم يرد علينا بأن المسلمين تلكؤوا في فراقه ولكن المواجهة كانت إما ضد أثرياء الكافرين أو ضد المنافقين وكلاهما حادث وجائز .

وفي مقابل ذلك خصص المثل في القرآن الكريم حيزا معتبرا ولكنه دوما دون ما تقدم في شأن الكفار للمؤمنين وذلك من مثل :

" كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ..."

" كمثل جنة بربوة أصابها وابل ..."

" كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ..."

"ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ..."

" كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ..."

"مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ..."

" ورجلا سلما لرجل ..."

" ذلك مثلهم في الانجيل ومثلهم في التوراة كزرع ..."

" لحم أخيه ميتا فكرهتموه ..."

في الامثلة المتعلقة بالمؤمن تحتل مرة أخرى القضية العقيدية بمعناها الخاص منزلة كبيرة بمثل الشجرة الطيبة هنا وبمقابل الاصم الذي لا يأتي بخير أينما وجه وبمثل نور الله حين يشع في الانسان عبر الاسلام

والرجل الخالص في خدمة رجل واحد ولك أن تقول أن ما عدا ذلك من أمثلة خاصة بالمؤمن غير متعلقة بالعقيدة بشكل خاص مباشر تناولت أشد القضايا التي ميزت المؤمن يومها وفي كل يوم من مثل قضية الانفاق وهو أطول سلسلة من الامثال في القرآن الكريم متتالية رغم تبادل المواضيع في ذات السلسلة لمواقعها ومن مثل قضية الايمان ـ بسكون الياء ـ وهي قضية سيما يومها كانت عقدية محضة بالكلية إذ القسم يومها خاصة كان محل إشتباك بين أن يكون بأكبر معظم وهو الله سبحانه دليلا على خلوص التوحيد والحب والتعظيم وبين غيره مما يعد شركا وليس كفرا محضا كما هو مألوف في بيئات أخرى وأحيانا شركا أصغر ومن مثل قضية كرامة الانسان في مسألة تحريم مجرد ذكره بسوء على وجه الغيبة .

فالامثلة إذن في القرآن الكريم عقدية بالاساس سواء تعلقت بالكفار أو بالمؤمن وما تعلق منها بالمؤمن ولم يكن عقديا خاصا مباشرا كان يتصل بالعقيدة بصلات حميمية وطيدة هي ثوابت الدين من مثل كرامة الانسان ومخ التوحيد الذي هو التعظيم مقرونا بالحب وهو أحد مقاصد العقيدة والانفاق بما فيه من تكافل وتضامن وتعاون وتآخ وتوحد من الناس يعضد توحيدهم .

لايغني كل ما تقدم في الامثال القرآنية من الرجوع من لدن كل مؤمن يستطيع ذلك إلى مظانها فلا يشغلنك عن ذلك شاغل ثم لا يشغلنك فيها سحر بياني عن مقصد أصيل متعلق بحسن كسب العقيدة عبر الميزان العقلي الانساني عبر المقارنة بين مآل ومآل وحال وحال فلا تضنن على نفسك بما يكسبك عقيدة وسطية غيبية مبرهنة معللة واضحة يسيرة بسيطة العرض نافذة التأثير.

بقي أن أقول بأن فن التمثيل فن إسلامي خالص إستخدمه القرآن الكريم وهو ينشر أغلظ شئ وأحب أمر وأقدس قضية أي التوحيد بما يعني أن ما دون ذلك وكل شئ هو دون ذلك أولى بفن التمثيل وأحرى بالعرض ضمن أكثر السياقات الفنية أخذا وإنسكابا في النفس .

الفن اليوم بكل ضروبه يصنع الناس صنعا سيما بعد أن تيسرت له ترسانة إعلامية بصرية ساحرة تسوق طيبه وخبيثه سواء بسواء . دعوة الاسلام اليوم في زمن الفن والاعلام لا طريق لها خارج طريق الفن والاعلام أما الحجة فليس مطالب واحد منا قديما وحديثا بإنتاجها فهي كفت نفسها بنفسها ذلك وملأت وطابها برهانا سوى أنها تبحث عن المهرة والشاطرين في سوق العرض الفني الاخاذ الجذاب . كيف تتقدم دعوة وينتصر دين يجرم كثير من علمائه وحفظته الفن وما بقي منهم على المحجة البيضاء

الوسطية الناصعة مازال في نفسه ألف شئ على الاباحة وإذا كان ذلك كذلك فمتى نرتفع إلى درجة الايجاب : إيجاب قيام الدعوة الاسلامية المعاصرة على الفن ذلك المعلم القرآني العقدي الاصيل الذي به آمن من آمن وكفر من كفر جحودا .
المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة الثامنة : الانسان سبب وموضوع سنة

لو نظرنا إلى الخلف نظرة عجلى لما فاتنا أن نسجل بأن أكبر وأوسع إحالة من لدن المنهج العقدي القرآني هي الاحالة عليالانسان بمختلف أبعاده في شمول وتكامل وتوزان نفسا ترغب في النعيم وترهب بالجحيم وإرادة ينفى عنها الاكراه مطلقا حتى على ما هو حق مطلقا ويقين صيب نافع وميزانا عقليا مؤهلا لتعيير الامور والاشياء قبل قبولها أو رفضها ومنها الامثال المضروبة تحمل في ثناياها ذكرى وأي ذكرى . ثم لو حدجنا بذات تلك النظرة العجلى إلى ماهو أبعد قليلا لما فاتنا تسجيل حقيقة كبيرة مفادها أن الانسان هو محور كل إحالات ذلك المنهج فهو من ينظر في الكون وفي التاريخ أي القصة والمثل وهو من يزن ويحبس نفسه في حضرة صراخ العذاب وبهاء النعيم . فالانسان إلى حد الان مما مر بنا من إحالات يبغي ذلك ا لمنهج من ورائها الاقناع بعقيدة التوحيد هو محور كل تلك الاحالات وهو لب ذلك المنهج فهو وسيلته نظرا وعملا وهو غايته ومقصده إسعادا في معاشه والمعاد .

السنن والاسباب في القرآن الكريم وسيلة إحالة كبيرة ومهمة :

ماهي السنن والاسباب بداية ؟ السنن وتسمى كذلك النواميس والقوانين هي مجموعة الانساق الطبيعية المودعة من قبل الخلاق العظيم سبحانه في الكون وفي الخلق العابد طوعا أو كرها سواء بسواء وظيفتها حفظ نظام الكون وفق ما أراده له مالكه ومدبر أمره سبحانه لا تخرق سوى بإرادته الحاكمة على كل شئ سوى أنه سبحانه رتب أمر تلك السنن على نحو المضاء المطرد في العادة وكل ما كان بخلاف ذلك فهو إستثناء نادر الحدوث جدا . ذلك هو التعريف العام لشبكة واسعة جدا من السنن التي تتوزع بعد ذلك على مجالاتها فمنها السنن الكونية أو الطبيعية وهي تشمل كل ما يعبد الله كرها أي بغير تكليف بناء على عقل وإرادة وذلك ينسحب بالكلية على كل شئ ماعدا الانسان والجان فيما نعلم من الخلق وفوق كل ذي علم عليم ومن ذلك جريان الشمس ونور القمر وحر النار ونمو جسم الانسان وبالجملة كل ما ليس الانسان فيه بمخير ولا مكلف . ومنها السنن الاجتماعية التي تسري على حياة الناس فوق الارض قلة

وكثرة وقوة وضعفا وعلما وجهلا وغنى وفقرا وإيمانا وكفرا ومسالمة وتحاربا . القرآن الكريم إهتم بأكبر مجالين من مجال شبكة السنن الكونية والخلقية والاجتماعية الكبرى أي المجال الكرهي أو الكوني المحض الذي لا يسع الانسان سوى كشفه بالعلم والمعرفة والتجربة ثم التأقلم عليمقتضياته وأغلب ذلك من لدن الانسان في العلاقة مع السنن الكونية الغلابة حاصل بالفطرة الاصلية أو المكتسبة كما إهتم القرآن الكريم بالمجال الاخر من السنن الاجتماعية أو الانسانية أي التي تتكون لتصبح حقيقة واقعية على الارض من جراء عمل الانسان وإختياره وإن كان إختيارا غير واع أي عن جهل مركب لا غرور فيه . إهتم القرآن بالضرب الاول من السنن لامرين أولهما منحنا مفاتيح الكشف عن تلك السنن وتسخيرها لصالح سعادتنا وذلك عند الاشارة مثلا إلى أن " الشمس والقمر بحسبان " و" لتعلموا عدد السنين والحساب " و " أرسلنا الريح لواقح " و" والشمس تجري لمستقر لها " و" القمر قدرناه منازل " وغير ذلك كثير فكشف ذلك هو مفتاح علم عظيم يجعل الانسان في تناغم مع تلك السنن العابدة الخاضعة الكادحة إلى ربها سبحانه وبقدر كشف الناس لتلك السنن تتقدم حياتهم المادية والمعنوية أيضا لو أطروا ذلك ضمن منهج الخلافة والامانة والعمارة والرجوع إليه يوما سبحانه . كما إهتم القرآن الكريم بالضرب الثاني من السنن وهي المسماة إجتماعية لانها تبحث إجتماع الناس فوق الارض وربما كان تركيز القرآن على هذا الضرب أكثر بسبب أن الانسان مخير في التناغم مع تلك السنن وتسخيرها لخدمة رسالته وكذلك في مصادمتها ولقاء حتفه إن شاء وإختار ذلك . لا بل إنه لك أن تعد أن سائر القصص والامثال في القرآن الكريم من ذلك القبيل لانه يعلق على كل قصة ومثل بسنة يصوغه أحيانا في شكل قانون إجتماعي ماض مطرد كأنه معلم ثابت بارز شامخ لا يعذر كادح بالاصطدام فيه من مثل " إن الانسان ليطغى أن رآه إستغنى " . وعقب قصة يوسف عليه السلام قال " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " وغير ذلك كثير وأحيانا لا يصوغ ذلك ضمن قاعدة سننية بارزة ولكن تجنيه بسرعة ويسر في ثنايا القصة أو المثل أو الحديث عن الكون أو ما عدا ذلك . ومن ذلك ما تكرر مرتين في القرآن الكريم بذات المعنى ولكن بتصاريف لغوية مختلفة تقول واحدة منها " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " و " أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر " و" إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون " وغير ذلك لا يحصى في القرآن الكريم عليك بتدبره وقد ألف كثير من ا لناس في السنن القرآنية كتبا لا تحصى منهم المرحوم عبد الكريم زيدان. بل عمد القرآن الكريم إلى ذكر السنن صراحة فقال " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين " . وهي السنن الاجتماعية هنا وهي التي إحتفى بها الخطاب القرآني أكثر من السنن الكونية التي لا دخل للانسان فيها سوى بمحاولة الكشف والتسخير من مثل تخزين حرارة الشمس

وإستخدامها في وقت لاحق ولا شك أن العلوم سيما في الهندسة الوراثية البشرية شهدت تقدما ينذر بالخطر على البشرية جمعاء فيما لو أقدم المتألهون في الارض على الاستنساخ البشري ولم يراعوا حسن إستخدام تلك ا لمعطيات العلمية الباهرة جدا في توفير حلول علاجية لمشاكل طبية أو أمراض مستعصية ويظن بعض ا لبسطاء من المسلمين الموغلين في الجهل والامية والتقليدية أن ذلك من قبيل إنهيار مملكة الله في الارض وبداية ظهور الترهل على ألوهيته سبحانه وهو تفكير يؤدي إلى الكفر البواح والعياذ بالله وهو مبسوط في طبقات غير يسيرة من الامة فأي نخاسة هذه وأي سوء كيلة وأي مصير لمسلمين بدل أن يزيدهم التقدم العلمي إيمانا وحسن إعتقاد يزلزل أساسيات عقائدهم ويهزمهم في عقر دارهم .

الاسباب هي الوسائل التي يتخذها الانسان سواء لفهم تلك السنن أو لتسخيرها سواء كانت سننا كونية أو إجتماعية ومن ذلك قوله " وإبتغوا إليه الوسيلة " وقوله الذي تكرر مرات لا تحصى في القرآن الكريم " وعملوا الصالحات " وبالجملة فإن الاسباب هي كل الاعمال التي تؤدي إما إلى حسن فهم عالم السنن الكونية والاجتماعية أو حسن الاستفادة منها وهي عند التحقيق سببان كبيران لا يسع ما سواهما سوى الاندراج تحت أحدهما : سبب الفهم وسبب العمل . ومن ذلك مثلا في مجال الاسباب الاجتماعية قوله " هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين " فالمؤمنون سبب نصر يمسك به النبي عليه السلام وكل من نهج نهجه ثم يبارك فيه رب العزة سبحانه فيضعه ضمن سنن النصر سيما إذا توافرت شروط أخرى . وقوله " إنما يستجيب الذين يسمعون " فيه إشارة إلى أن سبب الفهم هو ا لاستماع . وهما كما ترى معي مثلان واحد للفهم وواحد للعمل وغير ذلك كثير في القرآن الكريم . الاسباب هي إذن الوسائل والادوات التي توصل إلى حسن فهم السنن ومن ثم حسن التعامل معها . ومن ذلك أيضا مثل رائع بديع لحسن الاخذ بالاسباب المفضية إلى حسن فهم السنن بقصد تسخيرها لرفاه الانسان فوق الارض .. مثل ضربه عليه السلام للمؤمنين في كل زمان وفي كل مكان وهو عندما سأله صحابي عن هذه ا لادوية التي نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال عليه السلام " هي من قدر الله " . حديث لم أجد أعظم منه يسرا ـ وكل حديثه عظيم يسير ـ في كونه يربط في علاقة يسيرة معقولة مفهومة بين الانسان وبين السبب وبين السنة وبين الفلاح .

خذ إليك هذه على عجل وإحتفظ بها حتى يحين موعدها : أغلب ما دخل علينا الدخل في عقائدنا من جهة الايمان بالقضاء والقدر حسن فهم وحسن تنزيل وحسن علاقة بين الانسان وبين الله سبحانه إذ يوم فهم عمر الفاروق عليه الرضوان مقولة نبيه عليه السلام تلك فتح بابا في مقاصد الدين كل من ولجه

تقدم وكل من أغلقه تأخر وفتح بابا مماثلا في الارض حتى أسلمت الارض والخليقة طوعا لا كرها . ولما تنكبنا حسن فهم عقيدة القضاء والقدر كفرنا بالله لانه كتب علينا الفقر والاحتلال والمديونية والتخلف والجهل والمرض .

الخلاصة الاولى هي إذن أن الخطاب القرآني وهو يقنع بعقيدة التوحيد أحالنا كثيرا كما وكيفا على شبكة واسعة شاسعة من السنن والاسباب في دنيا الكون والطبيعة وعالم العبادة كرها لله سبحانه وكذلك في دنيا الاجتماع الانساني ـ والجان جزء منه ـ وعالم العبادة الحرة له سبحانه .

موئل السنن كلها دون أدنى إستثناء هي سنة الزوجية كونا وخلقا وإجتماعا :

قال ذلك سبحانه في موضعين تقريبا في القرآن الكريم " ومن كل شئ خلقنا زوجين " . ومهد لذلك بقوله بأنه أمر نبيه نوحا عليه السلام بحمل من كل شئ زوجين في سفينه النجاة . وظل الخطاب القرآني يؤكد المرة تلو المرةعلى قانون الزوجية الذي يعني فيما يعني بوجه من الوجوه التعدد والاختلاف والتنوع حتى فاضت جنباته بذلك ومن ذلك قوله " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ". هل يمكن أن يقصر هذا الاختلاف المتنوع المذكور هنا شاملا لكل أدوات الوجود في الخلق الكوني والانساني بإفاضة وإطناب وإسهاب قلما يوجد مثله في القرآن الكريم بأسره ... هل يمكن أن يقصر ذلك على الالوان الطبيعية المعروفة فلا يتعدى إلى إختلاف الاديان واللغات والاعراق وكل شئ مختلف في الناس ومنه الالوان الحقيقية ؟ لو وجد ذلك حقا فقد حرم نعمة الحكمة وفقه القرآن الكريم حرمانا ما بعده حرمان والعياذ بالله .

لسنة الزوجية في الكون والخلق وظيفتان كبيرتان أولهما خدمة وحدانية الله سبحانه وهي خدمة عقلية فلسفية ربما لا يتسع المجال لها الان وأنصح حقا بإخلاص الاطلاع على ذلك في كتاب العقيدة الاسلامية وأسسها للمرحوم الحبنكة وهي كذلك خدمة عملية ربما نتناول الحديث عنها في مواضع لاحقة بإذنه سبحانه . أما الوظيفة الثانية لسنة الزوجية ـ أقوى وأول وأصل كل السنن طرا مطلقا دون أدنيإستثناء ـ فهي تيسير الحياة الكونية والاجتماعية للانسان إذ بدون زوجية أو إزدواج بكل معاني

التعدد والاختلاف والتنوع وبما يحدثه ذلك من تنافس وتفاضل وحركة وحياة وتبادل لا تسير الحياة وتموت الحركة وعندها تقوم القيامة وهو الوعد ا لحق عند ربك سبحانه .

خلق الله سبحانه كل شئ في الكون والخلق طرا مزدوجا أو متعددا مختلفا متنوعا ضمن سنة التكامل لا ا لتقابل المفضي إلى إنعدام الانسجام الكوني والخلقي والمؤذن بخراب العمران من أجل أن يجعلنا ننظر في ذلك مليا بقدر ما يتيسر لنا ذلك عبر التقدم العلمي خاصة ومن ذا يزدادا إيماننا بوحدانية سبحانه فهو الواحد الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد وكل تلك المعاني من الوحدانية والصمدانية وعدم التعدد وعدم الحاجة والقيومية المطلقة وعدم المثلية في شئ ... كل تلك المعاني وغيرها مما يحقق التنزيه المطلق له سبحانه واحدا أحدا ليس كمثله شئ إنما تكتسب مشروعيتها الواقعية في أذهاننا نحن من عوامل عديدة منها زوجية كل شئ فينا وحولنا . ولك أن تقول أن السموات والا راضين والملائكة والرسل والانبياء والناس والشموس والقمور والنجوم والكواكب والرياح والغيوث والمياه والبحار والاشجار والانهار والجبال والدوات والانعام والسوام والحشرات والسباع والهوام والموجودات وكذلك المعاني والقيم والاخلاق والمثل والافكار والاديان والمعتقدات والكتب والعادات والتقاليد وكل ما خطر في بالك من شئ مادي أو معنوي ... كل ذلك زوجي مزدوج متعدد مختلف متنوع ولا عبرة بذلك في صددنا نحن الان بالحق والباطل فيه كلما كان واقعا زوجيا مزدوجا متعددا مختلفا متنوعا . خذ إليك كل ما خطر في بالك دون أدنى حجر ولا حكر عليك ثم أنظر فستلفى بأن ذلك يقول بصراحة بأن الواحد الاحد الديان سبحانه وحده دون سواه واحد أحد لا يقبل ولدا ولا والدا ولا يحتاج فهو صمد له كل صفات الجمال والكمال والوحدانية مما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه محمد عليه السلام .

تلك هي أكبر وظيفة من وظائف سنة الزوجية في ا لكون والخلق وهي أكبر وأول سنة وقانون فطري ماض مطرد وتلك هي سنة الله سبحانه في خلقه . سنة بارزة ثابتة بمثابة معلم كبير واضح جلي ينادي صباح مساء ليل نهار سائر الخليقة بأن السنن في الكون والخلق داعية توحيد وحسن إعتقاد .

إن الذي ظل الانسان دوما تقريبا يتجنبه درسا بليغا من معطيات تلك السنة ومقتضياتها في تصريف حياته هو كون تلك السنة يؤمن بها إن آمن نظرا في الكون أما أن يطبقها على نفسه بقبول التعدد والاختلاف والتنوع ضمن قانون التنافس والتفاضل والتدافع والانتخاب والاصطفاء من أجل بناء عالم يتنازعه التدافع البشري ولكن على قاعدة الاعتراف المتبادل من لدن الجميع للجميع نزعا لفتائل القتال

المدمر للانسان وللعمران ... أن يعترف الانسان بذلك فيطبقه على نفسه سيما عند ما يكون في موضع الملك والحكم والقوة فتلك هي معضلة المعضلات ومشكلة المشكلات . ألا حقا قتل الانسان ما أكفره .

أول فروع سنة الزوجية أم السنن طرا هي سنة الابتلاء خاصة في العالم الاجتماعي للانسان:

أنصحك بقراءة القرآن مرة أخرى بغرض إستخراج آيات الابتلاء لفظا ومعنى من مثل الاصطفاء والتمييز والتمحيص وغير ذلك فستلفى بأن القرآن إنما نزل من أجل رسالة واحدة هي رسالة الابتلاء وخاصة في العالم الاجتماعي للانسان وإن كانت سنة الابتلاء ماضية مطردة في الخلق الكوني بأسره ولكن بآليات أخرى غير التي تسري على عالم الانسان وذلك لسبب بسيط جدا هو أن الابتلاء في الانسان يجمع بين حرية الارادة البشرية فيما يعود عليه هو بالنفع في دنياه وآخرته وبين عدم حريته في ذلك فيما لا يؤثر على خياره ذلك فهو مبتلى مثلا بدوران الليل والنهار لابد له أن ينظم حياته وفقه خلافتهما وكذلك بالشمس والقمر ولكنه غير مسؤول على ما لا يناسبه إن وجد إستثناء ما لا يناسبه من ذلك بخلاف كونه مبتلى بالدين والعقل والحرية والارادة وحياته الاجتماعية مع الناس من أسرة صغيرة وكبيرة وأناس طيبين وخبيثين وظلمة وعدول وهو هنا مخير في طريقة التعامل ومسؤول عن نتيجة تلك الطريقة وذلك الخيار ومن ثم النتيجة . ففي الانسان إذن تجتمع كل معاني الابتلاء أما فيما عداه ـ عدا الجان طبعا الذي لايهمنا أمره كثيرا ـ فإن للابتلاء معنى واحد وهو معنى التسيير غير الارادي أي الاكراه من مثل الملك والجماد ومظاهر الحياة دون الانسان.

الابتلاء سنة ماضية هي أول فروع سنة الزوجية ينسحب على الانسان مؤمنا وكافرا من حيث المبدإ وبذات الطريقة كذلك سوى أن المقصد من إبتلاء هذا وإبتلاء ذاك تختلف حتى يرتد ا لمؤمن أو يؤمن الكافر وعندها تعود أدوار الابتلاء لتأخذ مكانها الاصلي من جديد . وفي ذلك تفصيل ربما نقلته عمن كتب في ذلك من العلماء الفضلاء الاجلاء من مثل إبن القيم وغيره عليهم جميعا رحمة الله سبحانه في مواضع أخرى وربما لا يحسن هنا إعادة التذكير به خشية الاسهاب والاطالة .

الزوجية هي منشأ الابتلاء :

هذه فكرة مهمة تبين أن سنة الزوجية هي الاصل والام دوما حاكمة على ما سواها وكل ما سواها فرع عنها كما تبين أن الابتلاء ناشئة من ناشئات سنة الزوجية وهي كثيرة من مثل التدافع والحركة والحياة والتفاضل وغير ذلك مما قد لا يسعفنا الوقت هنا للتعرض له . معنى كون الابتلاء ناشئ عن الزوجية معناه أن حياة الاختلاف والتعدد والتنوع هي التي تحدث النزوع نحو التنافس والتفاضل والتدافع فتنشأ الحركة والحياة وفي خضم ذلك يبتلى هذا بذاك سواء داخل الانسان فيبتلى العقل بالهوى وكلاهما مكون رئيس من مكونات الانسان وخارج الانسان فيتبلى الانسان بمن لا يشترك معه في المزاج والخلق وربما في الرسالة وفي الهدف والمقصد وطريقة الحياة أيضا وكلاهما أي الانسان ذات المرجعية كذا والانسان ذات المرجعية الاخرى إنما كانا بقدر منه سبحانه ليس بأمر خارج عن إرادته رغم أنه لا يرضى الكفر والفسوق لعباده وكل شئ له عبد ومملوك ومصنوع سواء أطاع أم عصي ... كلاهما إذن مبتلى بالاخر وسنة التدافع تضمن البقاء لاقواهما وهو القانون المسمى قانون الانتخاب أو الاصطفاء وهو قانون طبيعي يسري عليالحياة الاجتماعية للناس ولكن بخلاف في المجرى بين المجال الكوني والمجال الاجتماعي للانسان وفق ما فصل آنفا .

الابتلاء معناه حصول إشتراك في كفل معين من الجذر الاول الاصلي وهذا معلوم بأن أصل الكون كله طرا واحد هو الخلاق سبحانه وهو مفطور على العبادة كذلك ومعطيات أخرى لا يحسن هنا جردها ضمن إشتراك الخليقة كونا وأناسي ضمن جذر عام أصلي مشترك ... الابتلاء معناه إذن حصول ذلك الاشتراك ثم حصول ضرب من الاختلاف تعددا وتنوعا وهو كذلك حاصل في ذات الانسان بين هواه وعقله مثلا فما بالك بين إنسان وأخر وبين إنسان وشيطان وبين إنسان وملك وبين إنسان وكون وغير ذلك مما لا يحصى . ذلك هو منشأ الابتلاء : قانون الزوجية الضامن لمساحة إشتراك وأخرى للاختلاف . وذلك هو الدافع نحو الحركة التي هي مراد الله سبحانه ومن ثم الحياة ومن ثم التدافع ومن ثم الانتخاب ومن ثم تتنفذ إرادة الله سبحانه إلى حين وأجل مسمى ثم عند ربك يلتقي الخصوم فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

سنة الابتلاء هي مناط قانون الجزاء :

الحديث في الحقيقة عن السنن الكبرى سيما أمهم جميعا الزوجية وبنتها الكبرى الابتلاء لا ينتهي الانسان من التحليل فيه لغزارة مادته . ولكن دعني وقد ضاق عني خناق هذه المساحة مرة أخرى

أؤكد للقارئ الكريم بأن الابتلاء هو مناط الجزاء في الدنيا والاخرة إذ بدون إبتلاء سيما في الحياة الاجتماعية للانسان فوق الارض يكون الجزاء سواء بالنعيم أو بالجحيم بلا معنى وبلا طعم أي عبثا معبوثا وتعالى سبحانه أن يكون قد خلقنا عبثا معبوثا . وهذا جلي واضح في النظام الدنيوي الذي نعيشه اليوم وهو عماد النظام الديني الذي ينبني على سنة الابتلاء مقدمة سنة الجزاء .

سنة الابتلاء إذن بعد سنة الزوجية معلم من معالم الدلالة على حسن الاعتقاد في الجزاء وإلا كان العالم مبنيا على الفوضى وعلى الظلم وعلى شريعة الغاب دون حساب وهذا محال في العقل .

المنهج العقدي القرآني إذن يحيلنا على شبكة واسعة شاسعة من السنن والاسباب كفيلة عبر النظر العقلي المتأني فيها بغرس العقيدة وكسب الايمان سيما عبر قانوني الزوجية والابتلاء وفق ما تقدم لنا ولا شك أن كل ناظر في ا لقرآن من جهة وفي واقعه السنني من حوله كونيا وإجتماعيا يعلم بيسر بأن تلك الشبكة الواسعة من السنن التي لا يسعنا التفصيل فيها هنا لضيق المجال معلم هاد إلى الحق المبين وذلك دوماعبر الانسان المستأمن على العمارة وقبل ذلك على حفظ العقيدة وصونها بحسن فهمها وحسن كسبها وحسن بث الحياة والحركة في ا لكون بنورها .

الانسان في هذا الكون الفسيح : سبب وسنة ووسيلة وغاية معا :

أحسب أن ذلك واضح جلي فليس الانسان ريشة في مهب الريح تعبث بها السنن والاسباب كما شاءت لا حول له ولا قوة في كشف سنة ولا في الاخذ بسنة ولاهو مالك لا مالك له ولا صانع لا صانع له ولا معبود ولا خالق . ذلك هو معنى قولنا بأن الوسطية الاسلامية أول ما تنسحب على العقيدة فهي عقيدة وسطية بين الدهرية والالحاد والانكار التام وبين التثليث والتثنية وتعدد الالهة بكلمة وهي عقيدة وسطية كذلك في شأن علاقة الانسان بالله سبحانه فلا هو حر في ما لا شأن له به من مثل تصريف حياة الشمس والريح وتغيير معالم الخلق الارضي والانساني إلا عدوانا وظلما ولا هو معدوم الحرية فيما شاء أن يختار من حياة وعقيدة وفكرة وسلوك . الانسان في العقيدة الاسلامية بكلمة هو : المملوك الحر . كيف تجمع بين الملك والحرية .؟ إشكال فلسفي لا يحله سوى الاسلام دين الوسطية في كل شئ .

الانسان سبب بمعنى أن له أن يكون سببا للهداية أو سببا للاضلال أو سببا للخراب وسببا للعمران وهو حر مطلقا في ذلك سوى فيما لا يملك منه شيئا كما ضربت أعلاه له مثلا والانسان سنة معناه أنه ينضوي مع سائر ا لسنن الكونية والاجتماعية في جلب النصر أو الخذلان مثلا أو في إستمطار رحمة الله سبحانه أو سخطه بقدر طاعته أو عصيانه سيما في الدائرة الاجتماعية فإن الانسان سبب ماض مطرد وسنة ماضية مطردة ليس هو واقفا على ربوة يتفرج كيف تتكون السنن والاسباب وتمضي بل هو في أم معركتها ولب معمعتها إما أن يكون فاعلا فيها أو مفعولا به وليس له من خيار ثالث . أما كونه وسيلة وغاية معا فمعناه أن الانسان يحقق بيده أمره المقدور عليه والمأمور به والمتاح له ولا يكون له ذلك بالخوارق والمعجزات إلا قليلا في زمن مضى وإنقضى وعلى كل حال ليست هي القاعدة في الكون ولا في الحياة الاجتماعية للناس وهو كذلك غاية كل تلك الاعمال " وما تنفقوا من خير فلانفسكم " و " وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى " .

الانسان إذن مرة أخرى في قلب الحدث : حدث الاحالات المتكررة من لدن المنهج العقدي القرآني وهو يقنع بالعقيدة ويروج لها ويجلب لها الانصار ويهدي به الناس . الانسان مطالب بالنظر في شبكة واسعة من النظام السنني والسببي في الكون وفي النفس عاملا على ظهور وعده سبحانه " سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " عبر الكشف عن السنن ومحاولة تسخيرها لصالحه تحت لواء أنه عبد مملوك حر .

المحور الرابع : معالم المنهج العقدي القرآني

الحلقة التاسعة : مواكبة واقع الناس

اليوم نختم بإذنه سبحانه ملف الاحالات التي إعتمدها المنهج العقدي القرآني وهو يعرض التوحيد وسائر العقائد على الناس كافة وذلك بالتعرف على إحالة أسميتها مواكبة واقع الناس وخلاصتها بداية هي أن العقيدة ظلت تتنزل على مدى عقدين كاملين من الزمن بل ونيف وكان يمكن سردها بكلمة واحدة فالعقيدة الاسلامية كما يعلم كل الناس مؤمنين بها وغير مؤمنين بها لا يتجاوز قولها جملة واحدة قصيرة ولا يتعدى النطق بها ثواني معدودات يحفظها الصبي غير المميز في وقت يسير جدا ويظل يرددها بيسر فكيف يتطلب ذلك عقدين كاملين من الزمان ولا يتعذر واحد بالشريعة لان هذه لم تحتل من القرآن سوى أصغر حيز كمي لا يجاوز في مجموعة الكلي سياق قصة واحدة من قصص القرآن التي ناهزت العشرين ولا قضية كونية واحدة ظل القرآن يعرج عليها جيئة وذهابا مرة بعد مرة . ذلك سؤال مفتاح لابد لكل مهتم بحسن فهم الاسلام عقيدة وشريعة من طرحه والبحث له عن جواب مقبول . ولك أن

تقارن بنفسك ذلك المنهج المعتمد من لدن القرآن الكريم الذي ظل عقدين ونيف من الزمان يتنزل بالعقيدة من خلال عرض الكون والتاريخ والملكات الفطرية في الانسان من نفس وعقل وإرادة والسنن والاسباب ... وبين سائر من يلقن العقيدة للناشئة اليوم أو ينافح عنها بزعمه ويكون لك ذلك كفلا من الجواب الذي تبحث عنه .

مكونات محور مواكبة حياة الناس :

لا يعدم كل من قرأ القرآن الكريم ولو مرة واحدة في حياته غنم ملاحظة كبيرة جديرة بالتسجيل مفادها أن القرآن لم يتنزل على شكل وصفة طبية جاهزة لا تحتوي سوى على وصف المرض ووصف الداء ولا على شكل تقريرات فكرية تجريدية فيها عرض الحقائق عارية مباشرة دون مقدمات ولا مخولات ولا على شكل كتاب قانوني مليئ بالاوامر والنواهي . إن أول ما يستوقف القارئ للقرآن الكريم هو كثرة أدواته وموضوعاته الحوارية مع الناس أي مع الجنس الانساني عامة وذلك من خلال كثرة مخاطبة الانسان وخاصة الكافر إبتداء ومن خلال كثرة الاستخدامات الحوارية من مثل " ألم تر " و" أرأيت " و" هل أنبئكم " و" قل " و" أتل عليهم " وغير ذلك لا يحصى مما يدل بجلاء ووضوح على أن الخطاب القرآني ـ وكله تقريبا عقدي بإمتياز حتى بالمعنى الخاص للعقيدة فضلا عن آثارها ـ خطاب حواري خالص بين الله وبين الانسان جنسا مطلقا .

المكون الاول : المحور الغزوي :

سجل القرآن الكريم من الغزوات النبوية الثلث أي تسعا من أصل سبعة وعشرين وهي التسع الكبرى ولم يكن مجرد تسجيل بل كان ذلك بإستفاضة وإسهاب كبيرين مبثوثا في القرآن الكريم بأسره إذ إحتضنت آل عمران وقائع وحصائل غزوة أحد والانفال غزوة بدر والتوبة غزوة تبوك والاحزاب غزوة الخندق والفتح الحديبية وفتح مكة في سور أخرى وبني النضيرفي الحشر وغير ذلك من مثل الاشارة إلى حنين . كان التركيز الاكبر من لدن القرآن الكريم كما وكيفا على أحد وبدر والعسرة والاحزاب والفتح خاصة بمعنى صلح الحديبية وبني النضير .

مع أن القرآن الكريم لم يستخدم لفظ الغزوة سوى في قوله " أو كانوا غزى " في معرض الرد على من تحسر على من مات من أوليائه بدون رضى منهم ولم يؤثر عنه عليه السلام إستخدام الكلمة سوى في مواضع قليلة جدا لم أتعرض أنا لها سوى في ما لايزيد عن موضعين أو ثلاثة ويساق ذلك في معرض كثرة إهتمام القرآن الكريم بالحياة الغزوية لنبيه عليه السلام متجاهلا كالعادة شخوص الارض والاسماء وسائر المعالم المادية ليخلص إلى العبرة الواعظة وفي مقابل الافراط في إستخدام اللفظ من خارج دائرة القرآن

والسنة حتى ليقذف في روع الغريب عن القرآن سواء فهما أو تلاوة بأن حياته كانت عبارة على سلسلة من الغزوات التي توحي بأنه رجل حرب من الطراز الرفيع ويحشد لذلك أسطول من غثاء المرويات الواهية بينما يتلاشى كل ما كان غير ذلك من شخصيته وعمله عليه السلام .

في تناول القرآن الكريم إذن لذلك الكم الهائل الكبير من حياته الجهادية عليه السلام مواكبة لحياة الناس يومها فهو لا يتنزل عادة إلا بعد الفراغ من معركة ما ليصحح أمرا أو يثني على آخر ويستوي في ذلك أن يكون المعاتب نبيه عليه السلام أو غيره وفي كل ذلك يقرر حقائق عقدية كبيرة من مثل أن الحياة والموت بأمر من الله وحده سبحانه وغير ذلك من المعاني الكثيرة والغزيرة التي لا يتسع لها المجال الان وكان يمكن له أن يقرر ذلك قبل المعركة بكلمة شافية كافية مختصرة سوى أن فلسفة ذلك ا لمنهج تقوم على تقرير الحقيقة العقدية من خلال واقع الناس ليكون الاقتناع بها إقتناعا واقعيا ملموسا حيا في إثر جراحات أو نجاحات ولكم تكون تلك العقيدة مؤثرة إيجابية في الناس يوم يتفاعلون معها على أساس أنها جزء من واقعهم الحي اليومي تداوي وتعاتب وتنصح وتهون وترشد وتتفهم وتعالج وتبعث الامل وتطرد اليأس وهي معهم في معاركهم اليومية لا يحتاجون لكنيسة أودير لجنيها ولا لكتاب مقدس لا يمسكه سوى الكهنة والدجالون لمعرفتها ولا تتنزل عليهم سوى يوم الكريهة فهي معهم دوما . تلك هي طبيعة ذلك الدين : دين الحركة فمن حرم نفسه نعمة الحركة وحرية الحياة في مناخ الحركة قوة وضعفا فقد حرم نفسه نعمة حسن فهمه وأصبح الدين دينا باهظا وغرامة سيئة وثقلا مثقلا أنى له أن يؤديه.

المكون الثاني : قضية النفاق وإرتباطاتها الداخلية والخارجية :

تجد في هذا المكون محاور بارزة لابد لكل دارس تسجيلها منذ البداية لان المنهج القرآني قدمها فلا يحسن تأخيرها وهي : قضية النفاق التي خصص لها سورة كاملة هي سورة التوبة فما العلاقة بين النفاق وبين التوبة ؟ هي العلاقة بين الرحمان وبين العبد المذنب مهما كان ذنبه كلما تاب ولو كانت توبة منافق طبق نفاقه الافاق . بل خصص القرآن سورة خاصة بالمنافقين وذلك يدل على أنها كانت قضية عقيدة كبرى في تلك الايام وفضلا عن ذلك تناولها القرآن الكريم كثيرا خارج تينك السورتين . النفاق قضية عقدية لا تموت كلما وجد على وجه البسيطة إنسان مزدوج التكوين فهي قضية العقيدة دوما في كل زمان وفي كل مكان وهي اليوم حية بيننا يستفيد منها هذا ويتلظى بنارها ذاك فهي قضية حية معاصرة دوما وهي عقدية بإمتياز . ولذلك فإن علاج المنهج القرآني العقدي لحراك الناس وواقعهم في ذلك الزمان الذي

تفصلنا عنه بضعة عشر قرنا من الزمان هو علاج ليس مؤقتا بل دائم مؤبد لذلك أهمل ذكر الشخوص والاسماء والاعلام وإستخلص العبرة .

قضية النفاق قضية عقدية معاصرة دوما لانها مرتبطة بأكبر تحديين واجها الاسلام عقيدة في بداية الدعوة وهما قضية بني إسرائيل من الخارج وقضية بناء الوحدة الداخلية من الداخل والنفاق هو أكبر تحد يمكن أن ينسج عرى الائتلاف بين ذلك الثلاثي الكفيل بوأد الدعوة الاسلامية في كل زمان وفي كل مكان وعلى كل حال . ألا ترى معي أن القضية بكل إرتباطاتها القديمة هي قضية عقدية معاصرة . ألا ترى معي إذن أن أنسب منهج لقراءة القرآن هي قولة " إقرإ القرآن وكأنه يتنزل عليك أنت الان ".

المكون الثالث : عرض البيت النبوي نموذجا للهداية بكل ما فيه دون أدنى تستر.

هذا أمر عجيب جدا في المنهج العقدي القرآني . عجب من فقه ذلك حسن الفقه ينقشع حالما يدرك أن العصمة البشرية منحة إلهية مقصورة على الانبياء والمرسلين تماشيا مع سنة الابتلاء والتمحيص والاصطفاء وخدمة لسنة الزوجية ومن بعد لوحدانية الديان سبحانه إذ لو وجد فينا خارج دائرة النبوة معصومون بأي شكل من أشكال العصمة الموهومة لتسلل الشرك إلينا مجددا من ناحية من خلال تقديس الاشخاص والاجتهادات ولانتفى قانون الابتلاء وهو ثاني أكبر قانون في الكون وخاصة الكون الخلقي الاجتماعي الانساني ثانيا ولتبلد العقل البشري الحر ومات التجديد ولو في دائرة واحدة من دوائر الاجتهاد وهذا ما تفطن له بعض الرجالات من مثل المرحوم شمس الدين والفقيه الكبير فضل الله وراحوا ينظرون لتجاوز آثاره . أما من لم يحسن فهم ذلك العجب من خلال تعمد القرآن الكريم وهو يعرض محمدا عليه السلام قدوة للناس كافة فهو إما أن يؤول إلى ضعف الايمان وإنبنائه على التقليد ولن يكسب صاحبه منه خيرا كما عبر القرآن ذاته عن ذلك وإما أن أن يؤول إلى ضرب من ضروب الكفر من خلال الاستهزاء مثلا بأمهات المؤمنين أو التحقير من شأنهن أو ما إلى ذلك مما تلجأ اليه النفوس الضعيفة والمريضة.

هذا المكون ليس يسيرا في تناوله الكمي في القرآن الكريم إذ توزع بسياقات مطولة نسبيا على سورتين توزعا مهما وهما الاحزاب والتحريم وطرقه طرقا خفيفا في بعض المواضع الاخرى ولكن ثقله المعنوي هو المعتبر هنا لانه يعرض الناس لامتحان عقلي كبير : الناس وقر فيهم من خلال عصمة النبي محمد عليه السلام والاحكام الخاصة بأزواجه في مواضع تشريعية أخرى لا يتسع المجال لذكرها هنا بأن البيت

النبوي معصوم وأنه لا مجال لحدوث المشكلة فيه بكل معاني المشكلة وإذا جدت المشكلة التي تصل حد الطلاق والخلاف على النفقة والخلاف بين الزوجات وتعيير بعضهن لبعض والاختلاف عليه هو عليه السلام من أثر الغيرة ... فإنه من المناسب إخفاءها وعدم إظهارها للناس وإذا تنبأ الناس وفيهم المنافقون الذين يرصدون كل صغيرة سيئة في بيت النبوة لاذاعة الشر وإهتبال الفرصة لهدم الاسلام من أسه وسقفه ... من المناسب عندها إيجاد المعاذير لها وصرف الناس عنها ... ذلك هو المناسب عندنا نحن ولكن هل إنتهج القرآن الكريم ذات النهج ؟ قطعا لا إذ لم يكتف بإعلانها بل خصص لها سورة كاملة هي سورة التحريم وتحدث عنها في الاحزاب مطولا . هل يريد فتنة الناس أم يريد تعريض النبوة وهي أس الاعتقاد لهجوم حركة النفاق وحركة الشرك والكفر وحركة بني إسرائيل ؟ لا أجد حقيقة أكبر من كون الاسلام إئتمن على عقيدته الانسان فهو يعول على عقله ونفسه وذوقه وحسن فهمه وعاطفته وإرادته وعلى جماعته بأسرها لحفظ تلك العقيدة ولو لم يكن الامر كذلك ـ عندي ـ لستر المشاكل الكبيرة الحادثة في بيت النبوة مجففا منابع الهجوم عليها من لدن المنافقين الذين وصلوا بحكم تلك الشفافية الكبيرة جدا في حياة بيت النبوة وحياة زوجاته الخاصة بهم جدا من مثل قضاء الحاجة البشرية بمثل ما حدث في سبب الافك ... إلى حد إقتراف الخطيئة العظمى حين وصفوا زوجته بما لا يليق بالانسان مجرد كتابته وهو معروف . إن الافك الذي قال فيه الله سبحانه هو خير لكم كان تتيجة للشفافية في حياة بيت النبوة والحياة الخاصة جدا لزوجته أمنا عائشة عليها كل الرضوان الرحماني . يظن بعض الناس أن التستر والاخفاء والسرية وإحاطة بيوت العظماء والزعماء والكبراء حتى من رجال الدعوة والاسلام فضلا عن الساسة الظلمة هو سبيل للامن ولكن المنهج القرآني العقدي يبين عكس ذلك تماما ومعنى ذلك أن العقل البشري سيما الموجه بالهدي القرآني من تشرب حلاوة الايمان ولو للحظة في حياته مستأمن على عقيدة السماء الذي محلها الارض تصلحها . أملي أن يعي الناس هذا وخاصة الدعاة منهم .

المكون الرابع : مشاهد أخرى كثيرة متفرقة من حياة الناس :

هذا المكون لا يمكن حصره تحت عنوان موحد بمثل ما وقع في المكونات الثلاثة المنصرمة فمنه الاسراء والمعراج ومنه قصة المجادلة التي رتب عليها قضية عقدية عليا وهي أهم صفات الله سبحانه السميع البصير ومنها معركة الروم وهي تحوي قضية عقدية كبيرة رسالتها ضرورة وحدة أصحاب الاديان السماوية تحت نداء " كلمة سواء : ألا نعبد إلا الله ونتحرر من إستعباد بعضنا لبعض ". ومنها قصة عبدالله إبن أم مكتوم ومنها قصة اليهودي الذي كاد الظلم يومها يجني عليه بسبب تهمة باطلة لولا أن الله أمد نبيه في آخر لحظة بلائحة التحقيق الصحيحة ملغيا بذلك لائحة الاتهام المزيفة وهي قضية

عقدية حية معاصرة تنبئك بأن أسنى مقاصد العقيدة الاسلامية هي إقامة القسط بين الناس وإنزال قسطاس العدل بينهم جميعا على أساس آدميتهم لا على أي أسس أخرى هي ظالمة حتما مهما إرتفعت في عيون الناس ولو كان دينا . ومنها قصة أبي لهب ومن لم يسمهم من مثل الوليد بن المغيرة وعقبة إبن أبي معيط وغيرهم ومنها قصة الهجرة وما دار فيها وحولها رغم أنه لم يركز عليها كثيرا كما فعل تماما تقريبا مع الاسراء والمعراج وغير ذلك من الحوادث الكثيرة المتفرقة التي عنى بها القرآن الكريم وكان يمكن له إهمالها لانها صغيرة وجزئية ومعزولة لم تأت في مقدمة أو أعقاب غزوات مثلا .

المكون الخامس : ربط خط حواري مباشر بين الناس مؤمنين وكفارا وبين الله سبحانه :

تجد ذلك من خلال تتبع عبارات " يسألونك " أو " يسألك " أو " إذا سألك " و" يستفتونك " وبلغ ذلك ما يقارب عشرين موضعا في القرآن الكريم وجزء كبير منها عقدي بإمتياز من مثل السؤال عن الاهلة والساعة في أكثر من موضع واحد وعن الروح وهو سؤال من بني إسرائيل ضمن هجمة منهم وفي سياق ما يشبه الندوة الصحفية في عصرنا وعنه هو سبحانه وعن ا لجبال ومنها سؤال أهل الكتاب وجزء آخر وهو كبير كذلك يتعلق بالشريعة من مثل المحيض واليتامى والانفاق والشهر الحرام والانفال والخمر والميسر وعن النساء والفرائض ومنها أسئلة تاريخية من مثل ذي القرنين .

إن ذلك الكم ينبئك بأن العقيدة لا تتنزل جملة واحدة في سلة واحدة بشكل تقريري لا يراعي شيئا وفي لمحة بصر بل ظل الوحي يتنزل بها على مدى زاد عن عقدين من الزمان محرضا على النظر في الكون والتاريخ والنفس والسنن ومتعايشا مع حال الناس ومعافسا لواقعهم ويرصد كل تحولاته ويختار ما يعلق عليه أحيانا على حادثة صغيرة جدا مغمورة يجني منها درسا وأحيانا يملا السورة بغزوة ما وأحيانا بمشكل في بيت النبوة وبعد ذلك كله فتح خطا حواريا ساخنا هادئا في الان ذاته مع الناس جميعا مؤمنين وكفارا يستقبل أسئلتهم وينسبها إليهم ويحفل بها ولا يهملها بل يجيب عليها بأساليبه المفحمة مبنى ومعنى وهو أسلوب غير معهود لا في الاديان السابقة ولا في عرف الناس مهما بلغوا من الحرية والكرامة وهو الامر الذي لما عقله الاوائل منا فتحوا الارض وصانوا العرض وكرموا الانسان ولما تنكبناه نحن ظننا أن العقيدة قالب جاهز محكم الاغلاق لا يقبل سؤالا ولا جدالا ولا أي شئ سوى القبول الاعمى أو الرفض الاعمى . كان يمكن أن يقول له واليهود يسألونه عن الروح : لاتبال بحفدة القردة والخنازير فهؤلاء كفار ولا فائدة من معرفة الروح ورغم أنه لا فائدة حقا من ذلك بإعتبار أن أمرها لا يكنهه العقل بحكم تركيبه

القاصرعلى وظيفته دون غيرها من عوالم الغيب التي لم يؤهل لفهمها سوى عند الموت وبعده ... رغم كل ذلك فإنه لم يهمل السؤال رغم غرابته ولهجة التحدي الكافر الذي فيه ورغم أن الطارحين له أعدى أعداء الاسلام في كل زمان وفي كل مكان فهل أنت يا سيدي أفقه من المنهج القرآني أم أنت وصي على منهج عرضها أم أن ما يضيرك منهم أكثر مما يضير الله سبحانه ولا يضيره كفر كافر سبحانه ولا تنفعه طاعة طائع . أفلا تكون متوسطا في مشاعرك حيال كل أحد أفلا تكون وسطيا في رضاك وغضبك أفلا تكون قرآني المنهاج عقديا أفلا تكون داعية حريصا على فقه الكتاب الذي هو عمدته في الدعوة أفلا يوحي لك بشئ ؟؟؟

خلاصة الاحالة على مواكبة القرآن لحياة الانسان وهو يعرض عليهم العقيدة :

" وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " . تلك هي خلاصة تلك الاحالة . القرآن يتنزل على مدى عقدين ونيف من الزمان ليغري النفوس ويملأ القلوب بعقيدة كان بإمكانه قولها في ثانية واحدة وجملة واحدة ثم يتفرغ للشريعة فسل نفسك لم كان المنهج عندي وعندك مقلوبا : نختصم حول الشريعة التي للشارع فيها ألف ألف مقال بحسب الحال ثم لا نتوحد على عقيدة ظل يتألف بها النفوس والقلوب والعقول على مدى عقدين ونيف من الزمان ؟ العقيدة هي العقيدة لا يصلح آخرها سوى بما صلح به أولها : أي أن إعادة عرضها على الناس جميعا والكفار بداية لا يتم سوى بذات المنهج الاول أي منهج ظل يواكب حياة الناس مؤمنهم وكافرهم على مدى كل تلك الفترة الطويلة فأعلم أنه لذلك سمى نفسه سبحانه صبورا ودعاك لان تكون صبارا أما التعجل والتهافت والاستخفاف فيحسنه كل أحد لان النفس إليه أهوى بما ركب فيها من الهوى أما إعمال العقل فيتطلب عقلا أي حجزا وقيدا أي عملية مغالبة ومدافعة وعندها فحسب يعرف من القوي من الضعيف . قرآن كريم منزل تنزيلا قال فيه العلماء بأن القرآن نزل منجما أي على مراحل متتالية وليس دفعة واحدة ومن ذات منهج التنجيم في القرآن الكريم ينبغي أن تسير الدعوة الاسلامية اليوم منجمة غير متكاملة فهي لا تتكامل سوى يوم يسود العدل الدنيا ولن يكون ذلك حتى تقوم القيامة ولكن يغلب العدل على الظلم وهذا دونه أجيال بعد أجيال وقرون بعد قرون أما من حكم هواه بغلبة السنن الكونية الماضية وأرادها مملكته لا مملكة الله في الارض فهو عبد لهواه حتى لو سماه الناس مجاهدا فها هو محمد مات عليه السلام وأغلب الكون يطبق عليه الجهل والهوى والكفر فهل كانت دعوته منقوصة أم رسالته مبتورة . عقيدة القرآن لا تصلح الناس حتى تقرأ عليهم على مكث طويل لان النفس لا يقنعها ما يقنع العقل بل يقنعها ما تجد عليه الناس وخاصة الدعاة منهم من دماثة خلق وإنتصاف من النفس وإنتصار لقيم الحق والعدل والحرية

والكرامة ولو على أنفسهم لذلك إحتاجت الدعوة في البداية لذلك الزمن الطويل . الدعوة اليوم عليها أن تستقبل أسئلة الناس وترد عليها ضمن تفاعل جدلي طردي كريم لا ترد سائلا مهما كان متهكما أو عدوا أو محاربا أو منافسا أو بليدا أو جاهلا أو منافقا معلوم النفاق وعليها أن تفتح المناخ الملائم لذلك وعليها أن تعرض القرآن على الناس كل الناس وخاصة الكفار على مكث مطول وعليها أن تعيش معهم في آلامهم وآمالهم تماما كما عاشت معهم العقيدة الاولى على مدى زمن طويل .

خلاصة المنهج العقدي القرآني :

هذه خلاصة مركزة لسائر الاحالات والمعالم التي ظهرت لي ـ والله ورسوله أعلم ـ من خلال رصدي لمنهج القرآن في عرض عقيدته على الناس .

أكبر وأول فكرة في تلك الخلاصة هي أن الانسان هو مستودع كل تلك الاحالات وذلك لانه هو المكلف بالنظر بعقله إلى الكون المبسوط أمامه وهو ذاته المكلف بالنظر بذات عقله في التاريخ والقصة التي إحتفى بها القرآن مطولا وهو ذاته المكلف بالنظر في نفسه من خلال عرض مصارع الجحيم ومنابت النعيم وبناء فطرته على نفي الاكراه مطلقا في الكون والخليقة ومن خلال تأهيله بالميزان لدراسة الامثال والسنن والاسباب ومن خلال النظر في معالجة القرآن لحال الناس وهو يتنزل عليهم طيلة كل تلك الفترة الطويلة ...

كل الاحالات السابقة إذن لئن تفرقت إتجاهاتها إلى الحاضر كونا وإلى الغائب تاريخا وقصة ومثلا ومعالجة لحياة الناس حال نزول القرآن الكريم ... لو عقدت لها موئلا لما ألفيت ذلك سوى أن الانسان هو ذلك الموئل المعول عليه بحكم ما ركب فيه من مؤهلات فطرية وملكات عقلية في حفظ تلك العقيدة والاستئمان عليها والخلافة بها وإقامة القسط بين الناس على أساسها وعمارة الكون بالخير والشهادة على الناس بالعلم بها .

الانسان هو مستودع العقيدة : أكبر خلاصة مركزة من معالم المنهج العقدي ا لقرآني . ولك أن تقول أنها محفوظة بمحض قوله " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " وعندها أقول لك حفظ سبحانه الذكر وهو القرآن والسنة وسائر ما يحفظ الاسلام دينا وحضارة بالانسان فهو من إستخلفه لحفظ الذكر ولولا أن الله سبحانه قيض لذكره الانسان برغم وجود الكفر فيه وداعيات الهوى والاحتراب لما حفظ ذكر . هو

سبحانه من إختار أن يحفظ ذكره إنسان مزدوج التكوين يظل بحكم سنة التدافع يحيا حتى يحفظ الذكر . في عالم الانسان تلك هي الطريقة الوحيدة لحفظ الذكر والعقيدة أما في عالم الملائكة فالطريقة مغايرة ولا شأن لنا نحن هنا سوى بالانسان وبالارض.

المحور الخامس : هل العقيدة معللة ؟

ذلك سؤال محوري مركزي كبير في هذا البحث إذ عليه ينبني وإليه يستند ويرتكز بماهو معلوم عقلا عند الناس كافة بأن ما كان من الاشياء والامور مطلقا معللا أو مقصدا أي يخضع أو يمكن أن يخضع لعملية بحث بقصد إستقصاء علته أو مقصده والغاية منه سواء من أجل تعميق الفهم فيه أو تعدية حكمه ولو كان خارج دائرة الشريعة ـ أي في الحياة العامة للناس قياسا مرسلا عقليا منطقيا خالصا ـ أو من أجل تسخيره لخدمة ما ... ماكان كذلك أي متاحا للعقل البشري فهمه وفقهه ومن ثم التصرف حياله بما يناسب حال السعة والضيق والحاجة والضرورة والمصلحة والمنفعة يمكن الاجتهاد في إستنباط علته والبحث عن مقصده وما كان غير ذلك أو دونه لا يقبل إلا أحد أمرين إما تأديته بطاعة مطلقة أو رفضه جملة وتفصيلا

لابد لنا في البداية من الاتفاق على تعريف للعقيدة وكذلك على معنى التعليل أو التقصيد الذي يمكن أن يصاحبها على قاعدة الاختلاف بينها وبين الشريعة تبعا لاختلاف الطبيعة مع عدم نفي الالتقاء ضمن جذر عام مشترك شأن كل المتماثلات وخاصة التماثل المصدري وهو هنا ليس مجرد تماثل بل واحد أوحد كما ينبغي لنا الاتفاق على قضية التعليل في الكون والخلق مطلقا .

تلك أسئلة لابد لنا منها قبل تعيين الجواب . لابد لنا من بحث التعليل في الكون لانه هو المؤسس لاي عملية تعليل في الخلق والاجتماع الانساني وعالم الشرائع السماوية على قاعدة أن النظام الديني ليس بدعا من النظام الكوني ولا الخلقي فهما ضميمتان وصنوان ينبعان من مشكاة واحدة . كما أنه لابد لنا من بحث التعليل في مجال المعقولات والعقائد رغم مصدرها الغيبي كما رأينا سابقا هي مستودعة لدى الانسان وفي أمانته يحفظها بإذن ربه سبحانه وآثارها ـ ولا يهمنا في العقائد الغيبية المطلقة في هذا المجال خاصة سوى آثارها لعدم تأهل العقل لادراك حقيقتها ـ في الكون والتاريخ والنفس والنظام السنني . كما أنه لابد لنا من رصد الاختلاف الحتمي ـ أي الذي يجب أن يكون بحكم إختلاف العقيدة عن الشريعة رغم وحدة المصدر ـ بين الشريعة والعقيدة في طريقة الكشف عن المقصد أو العلة .

التعليل بين العقيدة والشريعة :

تكمن أهمية الكشف عن ذلك الاختلاف في مستوى البحث عن علة أو مقصد كل منهما في كون كلاهما يشترك في جذر عام مشترك هو الاسلام عامة أي الشريعة الاسلامية بمعناها الاصولي المفيد لشمولها وكمالها وتكاملها وعمومها وإطلاقها فهي العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة في كل ضروب الحياة ودروبها ومنسحبة على كل الناس في كل زمان وفي كل مكان وكل حال . مع أنه ينبغي أن نلاحظ منذ البداية أي منذ الان بأن وحدة ذلك الجذع العام المشترك يدعو بالضرورة إلى أن نلفى أن مقاصد العقيدة بمعناها الخاص ينبغي أن تكون حاكمة على مقاصد الشريعة بمعناها الخاص كذلك وليس العكس وليس ذلك سوى لان الشريعة فرع عن العقيدة من حيث السلوك والتصرف وإن إختلفا في طريقة التحمل فالعقيدة من مشمولات المعقولات بالكلية بما هي مجموعة من الرؤى والافكار حول الحياة والانسان والوجود أما الشريعة فهي من المعقولات بالتوليد أو بالتبعية لانها سلوك محض . تلك نقطة مهمة جدا . تكمن الاهمية إذن في كون كلاهما يشترك مع الاخر في جذر عام مشترك تكون العقيدة بمعناها الخاص حاكمة على الشريعة بمعناها الخاص وليس العكس أي أن مقاصد العقيدة حال الظفر بها تنسحب على المقصد الاعلى من الشريعة كما تكمن تلك الاهمية في كون العقيدة والشريعة يجب أن يختلفا في تعيين المقاصد إختلاف تكامل بطبيعة الحال وذلك لان كلاهما يندرج تحت مجال مختلف عند البحث في التفاصيل رغم توحده عند ا لبحث في الكليات .

فالتعليل في العقيدة والشريعة إذن يجب أن يكون موصولا ومفصولا في الان ذاته تبعا لتوحد المصدر ولاختلاف المجال مع ملاحظة أن مقاصد العقيدة إن وجدت يجب أن تكون حاكمة على مقاصد الشريعة وخاصة الجزئية والكلية منها دون ربما المقصد الاسنى من الشريعة بأسرها في معناها الخاص . وربما يمكن لمزيد فهم سر ذلك الاختلاف تبعا لاختلاف الطبيعة والمجال الاطلاع في كتابات الفقهاء والاصوليين على المباحث التي تناقش إختلاف عمل العقيدة وعمل الشريعة وتأثير كل واحد منهما وإستحقاقاته وضرورة التمييز قضاء خاصة دون ديانة بين العمل المنتمي إلى مجال العقيدة وبين العمل المنتمي إلى مجال الشريعة ومن تطبيقات ذلك مثلا التمييز بين الكفر وبين الفسوق والعصيان أو بين من يقتل حدا ومن يقتل كفرا ويترتب عن ذلك من جملة ما يترتب مآل المال والمقبرة التي يدفن فيه وتصرفات أخرى . المهم هنا هو إستصحاب التمييز بين العقيدة وبين الشريعة لحسن التمييز في الكشف عن مقاصد كل منهما تبعا للاختلاف .

ماهو السر في كون الشريعة معللة بالقياس الاصولي المعروف ؟

السر في ذلك عندما يحين أوانه هو كونها تحتوي على حكم معين لواقعة معينة يؤتى به لحل إشكال معين من مثل وضع عنت أو جلب يسر أو تحقيق مصلحة أو حسنة كلما تشابه الامران أو إقتربا فتماثلا . فإذا عز ذلك فإن المجال يخرج عن دائرة القياس بشروطه المعروفة ويدخل في دائرة الاستحسان أو الاستصلاح أو الاستصحاب أو سد الذرائع أو تحكيم العرف أو ما إلى ذلك مما لا يخرج في كلمة واحدة بإختصار شديد عن نشدان مصلحة الناس وتيسير الحياة الكريمة لهم بالدين حاكما عليهم بما أنه يوفر فرصة ليسر الحياة سيما في مجال المعاملات وهو المجال الاوسع وحتى مجال العبادات ولكن بتصرف أقل سعة ولكن الجامع لكل ذلك هو يسر الحياة مع بقاء الدين حاكما لا محكوما .

هل ينطبق ذلك عليالعقيدة ؟

بداية ماهي العقيدة ؟ هي مجموعة من الافكار والتصورات عن الحياة والانسان والموت والالوهية والحساب والنبوة نابعة من الله سبحانه الذي أخبرنا بها من عالم الغيب عبر الرسل والكتب الموثقة الصحيحة الصريحة لها أركان لا تقوم بدونها وهي الاركان المعروفة وخاصة التوحيد مخها والبعث مقصدها ومآلها والنبوة وسيلتها . تلك هي العقيدة بمعناها الخاص أو الايمان كما سماها القرآن الكريم . غير أن منهج عرضها على الناس يقوم على محورية ومركزية الانسان بوصفه خليفة معلما مؤهلا مستأمنا على الارض وهو يكتسب تلك العقيدة سيما بعد إخبار الوحي عنها بالتفاصيل المعروفة من الكون ومن التاريخ ومن نفسه أي من عالم الشهادة فهي إذن عقيدة ذات أصل غيبي وأثر مشهود وتأثير في الحياة البشرية بأسرها . فمن شروطها أنها عقيدة توحد الارادة الانسانية في إتجاه غاية وهدف هي رسالة الانسان في الحياة وهي عقيدة معقولة المعنى ومركوزة في ا لفطرة لا تنكرها بل تتشوف إليها كلما تحررت من دروك الهوى وحجب الغفلة وهي عقيدة تبعث على كشف السنن والاخذ بالاسباب لتأمين حياة بشرية ملؤها السعادة القلبية والمادية وهي عقيدة تقوم على نقد العقائد المخالفة عبر البرهان العلمي والمنهج العلمي وهي عقيدة شاملة عامة مطلقة للزمان والمكان والجنس الانساني وهي عقيدة تسعى لبلوغ هدف وتحقيق مقصد إذ لا يعقل أن تستثنى من عموم قوله " وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ". فمن تنزه عن العبثية سبحانه يقتضي أن تتنزه العقيدة التي عرفنا بها عن خلوها من أي مقصد وهدف ورسالة ومعنى وحكمة .

هل ينطبق ذلك عليالعقيدة ؟ أي هل تشترك العقيدة وذلك هو مفهومها ومعناها وبناؤها مع الشريعة في التوافر على علة تعدى لتيسير الحياة عبر آلية القياس ؟ ما ينبغي أن يشتركا لسببين أولهما أن العقيدة مجالها المعقولات الصرفة المحضة لانها مجموعة أفكار وتصورات يتحملها القلب والعقل معا بتعزير من الفطرة طبعا بينما مجال الشريعة يحتوي على ما يند عن العقل مطلقا من مثل الشريعة العبادية في تفاصيلها من أزمنة وأمكنة وهيئات وصور في الصلاة والحج والصيام مثلا . والسبب الثاني لعدم إشتراكهما ـ رغم الاشتراك كما بينت آنفا ـ هو أن العلة في الشريعة تصلح لتيسير حياة عملية ملموسة محسوسة في مجال سلوكي ما أما في العقيدة فإنها خالية عن السلوك المباشر سوى ما يتعدى منها حاكما على الشريعة فمجالها إذن ـ أي العقيدة ـ ليس مجال السلوك والتصرفات حتى نبحث عن علة نعديها ليسر الحياة ولكن مجالها هو مجال الاستقراء للبحث عن الحكمة وعن الرسالة وعن الهدف وعن المقصد وعن العلة الكبرى العامة التي لا نحتاج لتعديتها إلى سلوك غير موجود في العقيدة ولكن لنفهم ونفقه أصول الرسالة العامة من خلال الاعتقاد في أصول الاعتقاد ومما يعزز ذلك أن العقيدة غيبية المصدر مشهودة الاثر الدال عليها من معالم في الكون والانسان والتاريخ والسنن متعدية الاثر لتلوين الحياة الانسانية بلونها .

أمر آخر يميز العقيدة عن الشريعة وهو أن العقيدة منصوص عليها بنصوص صحيحة صريحة بل هي أشد المناطق في الوحي وخاصة القرآن الكريم صحة وصراحة وما يزيدها صراحة أن أركانها في أصولها الابتدائية دون فروعها المختلف فيها ودون حتى التعمق في فهم ذات تلك الاصول بما لا يتأهل للعقل كنهه معينة تعيينا قطعيا في شكل وحدة تخضع إما للقبول بالجملة أو للرفض بالجملة وذلك من مثل النبوة كلما كانت معززة بما يصدقها والملائكة والبعث . جانب الغيب في العقيدة إذن عامل يساعد على حسن البحث في حكمها ومحاسنها ومكارمها ومقاصدها عبر آلية ا لاستقراء في تلك الاصول الخمسة وفي كل معطيات القرآن الكريم الذي تمحض للعقيدة بالكلية تقريبا . كما أن مسألة تعدي عمل العقيدة في آثارها في كل جوانب الحياة الانسانية عامل يساعد على حسن بحث تلك الحكم والمقاصد وذلك من خلال البحث في آثارها سيما عبر عنصر المقارنة النظرية أو العملية .

العقيدة إذن تختلف عن الشريعة في قضية التعليل إجرائيا وعمليا للاسباب المذكورة آنفا ولكن عوامل عديدة تجعلها قابلة لان يبحث الانسان في مقاصدها ومحاسنها ومكارمها وأهدافها سيما بناء على مقولة الامام الشاطبي " التعليل هو التقصيد " و" المصلحة دليل " وتحتوي الفقرات الانفة كذلك على شئ من تلك العوامل وخاصة عموم العقيدة وإطلاقيتها فهي تشبه في هذا المستوى بعض التشريعات العملية من

مثل " إن الله يأمر بالعدل ..." والبحث عن مقاصد العقيدة وفق ذلك الاساس دون تعيين العلة القياسية الاصولية المعروفة بوصفها منضبطة ظاهرة تحتمله العقيدة ومن مثل صحة وصراحة النصوص العقائدية بما يجعل الباحث ينطلق من منطلق متين لا يأتيه ريب في صحة ورود أو صحة دلالة ذلك النص وسنتعرض بعد قليل إلى أن القرآن أشار بالعبارة إلى كثير من مقاصد العقيدة بمعناها الخاص .

هل تجلب العقيدة مصلحة أو منفعة للانسان أو تدرأ عنها مفسدة أو ضرا ؟

معلوم أن مبنى الفقه المقاصدي هو الاستصلاح أي نشدان المصلحة سواء كانت في شكل وضع عنت أو حرج عنه أو ضيق أو في شكل تيسير لحياة لم يرد فيها نص صحيح صريح . ذلك معلوم في الشريعة ولكنه ينسحب على نظرية التعليل مطلقا إذ روح التعليل هو الاستصلاح . فهل تجلب العقيدة مصلحة أو منفعة للانسان أيا كان لونها ومحلها وهل تدفع عنه ضرا أو مفسدة مماثلة ؟ إن حسن الجواب عن ذلك السؤال كفيل بتعيين الجواب عن سؤال مبحثنا هذا : هل العقيدة معللة ؟

كيف نتخول لذلك ؟ إما بإستقراء نصوص العقيدة من أمر أو نهي أو قصة أو مثل أو مسرح كوني يساق للاقناع بعقيدة البعث أو ما إلى ذلك كلما حافظنا على طريقة الاستقراء وخاصة ما يجمع جزئياته إلى كلياته وإما بإستقراء أثر العقيدة في الحياة وكلاهما مطلوب ومن ذلك إعتماد منهج المقارنة . النظر والاستقراء إذن هما وسيلتا الكشف عما إذا كانت العقيدة تجلب مصلحة أو تدرأ مفسدة وإذا ما ثبت ذلك فإنها معللة مقصدة معقولة المعنى مفهومة وما علينا سوى رصد تلك المصالح والمفاسد . طبعا غني عن القول بأن إلتزام أوامر ونواهي العقيدة فضلا عن البحث عن العلل والمقاصد من وراء تلك الاوامر والنواهي كفيل بكسب مصالح ا لعقيدة ودرإ مفاسد الاعراض عنها . ولكن المشكلة في وجه من تتبع ذات منهج الكشف عن مقاصد الشريعة للكشف عن مقاصد العقيدة هي أن الشريعة أوامر ونواه أما العقيدة فليست من ذلك الضرب إلا قليلا جدا فبحسب ما تخلصنا إليه ضمن معالم المنهج العقدي القرآني فإن العقيدة لم تعبر عن نفسها في أركانها المعروفة سوى مرات قليلة جدا في ا لقرآن الكريم لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة بينما أوغلت في الانبساط في الكون والتاريخ والانسان والسنن وما إلى ذلك مما تعرضنا له . فالعقيدة إذن بما هي كتلة واحدة رغم تفرع أركانها الخمسة الكبرى عن مخها وصانعها وهو التوحيد لا تقبل التفكيك ولا الفصل ولا نصف طاعة أو نصف عصيان لذلك لم ترد في شكل أوامر ونواه صريحة إلا قليلا جدا وهي بعد ذلك لا تقبل التعدية القياسية كما هو الحال في الاصول

التشريعية لانها لا تعتمد الاوامر والنواهي ولا تعتمد مجال السلوك بل هي من مجال المعقولات الصرفة المحضة رغم غيبية مصدرها فهي عمل قلب وعقل .

ليس لنا من حيلة إذن والحال تلك سوى توخي سبيل الاستقراء الجزئي والكلي فإن عثرنا على أنها تحقق مصلحة أوتدرأ مفسدة فهي معللة مقصدة معقولة المعنى مفهومة ويمكن عندها البحث في الكشف عن مكارمها ومحاسنها ومقاصدها .
هل علل القرآن الكريم دعوته إلى العقيدة وهل رتب مصلحة عليها وحذر من مفسدة ؟

لابد من التواضع بداية على أن القرآن الكريم تتنوع أساليبه البيانية والتركيبية كثيرا في تعيين المقاصد والاشارة إلى المصالح والمفاسد فهو يصرح أحيانا ويكتفي بذكر الامر أو النهي أحيانا أخرى ويجمل مرة ويفصل أخرى وهو قليل جدا كما يلجأ وهو الاغلب في كثير من تعليلات الشريعة إلى ذكر ما يغلب على الانسان عامة أو على أهل التنزيل خاصة ولا يحتاج المرء بعد ذلك سوى إلى القياس والنظر والاجتهاد لتعيين كل ذلك وترتيبه ولكن المتفق عليه أنه كتاب يعلل كثيرا من أوامره ونواهيه وتشريعاته بصفة عامة بمختلف طرائق التعليل والتقصيد .
ذلك أمر ا لشريعة فما هو أمر ا لعقيدة ؟ بما أن العقيدة لا تعتمد إلا قليلا جدا الامر والنهي فإن أداة وصل النص العقدي سواء كان في شكل قصة أو مثل أو مسرح كوني أو أي أمر آخر وهو كثير أكثر من أن يحصى بعلته أو مقصده تختلف عن أداة ذلك الوصل في الفضاء التشريعي ويتوضح ذلك لنا بعد قليل عبر الامثلة التي كثيرا ما يعول على السياق اللغوي لحسن فهمها ورعاية السياق حاجة ملحة ومطلب ضروري لحسن فهم الاسلام بأسره تبعا لتناسق الوحي تناسق الكون وسائر الصنعة والخلقة .

أمثلة من القرآن الكريم :

" وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس ..." ــ " ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ..." ــ " لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ..." ــ " فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين ..." ــ " ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ..." ــ "يهدي به الله من إتبع رضوانه سبل السلام ..." ــ " قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ..." ــ " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ..." ــ " قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ..." ــ " ليبلوكم فيما آتاكم ..." ــ " قل أمر ربي بالقسط ..." ــ " يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم

عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ..." ــ " فأقصص القصص لعلهم يتفكرون ..." ــ " والله يدعو إلى دار السلام ..." ــ "قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ..." ــ " لتكون لمن خلفك آية ..." ــ " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ..." ــ " وإستعمركم فيها ..." ــ " ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ..." ــ " ما نثبت به فؤادك ..." ــ " إلا بذكر الله تطمئن القلوب ..." ــ

" لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ..." ــ " هذا بلاغ للناس ..." ــ " وليعلموا أنما هو إله واحد ..." ــ " إن إعبدواالله وإجتنبوا الطاغوت ..." ــ " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..."ــ

" كتابا فيه ذكركم ..." ــ " إلا رحمة للعالمين ..." ــ " لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيرا ..." ــ " خلفة لمن أراد أن يذكر ..." ــ " إن في ذلك لاية : تكررت ثماني مرات في سورة الشعراء عقب قصة كل قوم مع نبيهم ــ " ونريد أن نمن على الذين إستضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ..." ــ " ليقوم الناس بالقسط ..." ــ " أعبدوا ربكم الذي خلقكم ..." ــ الخ ...

تلك هي الاساليب الاكثر شيوعا في ا لقرآن الكريم وهو يعلل دعوته إلى التوحيد والعقيدة والايمان بالبعث والقضاء والقدر وهي أساليب تحتملها اللغة العربية ضمن السياقات المحددة لاتجاه بوصلة الخطاب فهو يعقب بعد القصة بأن فيها موعظة وذكرى لمن يسمعها وتلك هي علتها ومقصد سوقها ويعقب على المثل بذات المعنى ويدعو إلى عبادته دون سواه معللا ذلك بأنه خلق وأنعم ورزق وأحيا وأمات حتى قال " هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ " . وهو يصف عقيدته بأنها تفضي إلى السلام والتعاون والتعايش ونبذ التحارب رغم الاختلاف ويقول عن الاختلاف أن الناس مخلوقين له حتى تسير الحياة عبر سنة الحركة التي تديرها قوانين الزوجية والابتلاء وما يتولد عنهما من تفاضل وإنتخاب وتدافع .

وأحيانا يصرح بصريح العبارة بأن علة عبادته قدرته على جلب النفع ودفع الضر " قل أندعو من دون الله ما لاينفعنا ولا يضرنا ". وذلك صريح وقد تكرر مرات في القرآن الكريم في أن علة العبادة ومقصد التوحيد والعقيدة بأسرها هو إرتكان الانسان المخلوق المملوك المصنوع لمن يملك نفعه وضره وأن النكوص عن ذلك يأباه العقل لان فيه ضره الجلي الواضح . وذلك هو أصرح ما ورد في تعليل العقيدة تقريبا .

وفي تعليل إتباع النبي محمد عليه السلام يقول لانه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ... بأي وجه يقصر ذلك على الشريعة وهل كان أول ماأمر به عليه السلام العقيدة أم الشريعة ومن أولى بالمعروف عقيدة والطيب دينا في القلب والعقل : الشريعة التابعة المحكومة أم العقيدة المؤسسة الحاكمة ؟ وهل كان التوحيد سوى معروف محض والشرك سوى منكر بحت وهل كانت العقيدة سوى طيبة والالحاد أو التثليث سوى خبث ؟

يعلل أحيانا عقيدته بأنها جلابة لشفاء الصدور أو مافيها أي القلوب وهل يبحث الانسان ا ليوم عن شئ بحثه عن شفاء صدره من الامراض والخبائث والادواء النفسية التي تؤوي المستشفيات النفسية في طول الارض وعرضها ملايين مملينة من الناس بسبب عدم قدرة النفس على المقاومة في الحياة إما لضعف قاهر أو لغلبة سطوة باطشة . أظهرت دراسة لمنظمة الصحة العالمية لعام ٢٠٠٤ بأن العالم ينتحر بمعدل منتحر واحد في كل أربعين ثانية على مدار الحياة منذ سنوات طويلة ووزعت ذلك المعدل على عشرة بلدان أولى في ذلك ا لسباق المحموم نحو الموت الكريه أي الانتحار فلم تكن في تلك البلدان العشر الاول بلاد إسلامية واحدة ثم وزعت ذلك على أديان ومعتقدات المنتحرين فوجدت أن أكثر من نصف المنتحرين ملحدون ثم بوذيون ثم مسيحيون ثم هندوس ونسبة المسلمين لا تكاد تذكر أصلا ثم وزعت ذلك على الاسباب فوجدت أن موت الصديق أو القريب أو المحبوب هو السبب الاول ثم الطلاق أو الانفصال أو فشل العلاقة العاطفية ثم كان السبب الثالث فقدان الصحة البدنية والسبب الرابع فقدان مورد العيش والخامس سطوة المخدرات والخمر والسادس الاكتئاب والفصام .

كما قرن دعوته إلى التوحيد والعقيدة دوما تقريبا بتأكيده على حرية الانسان بصريح العبارة كلما كان مطمئنا إلى برهان معين لا صاردا عن سدور في غفلة أو تقليد أو خوف أو طمع ممن لا يملك له شيئا .

من ذلك أيضا ما عبر عنه في مواضع قليلة بعبارة الارادة والامر من مثل أمره بالقسط والعدل وإرادته في اليسر ونبذ العسر ـ وهو في العقيدة أولى من الشريعة إعمالا لان عسر الاعتقاد أكبر عنتا من عسر التعبد بالسلوك ـ وإرادته في أداء الامانة والحكم بين الناس بالقسط وإرادته في التمكين للمستضعفين عبر دفعهم هم أنفسهم إلى الانتصار من فرعون وهامان وجنودهما ومن كل طاغية يستعبد طائفة من المستضعفين بقطع النظر عن دين الطاغية ودين المستضعفين فإذا ما كان المستضعفون مسلمين فإنه يريد أن يجعل منهم إئمة . إن التعبير بالامر في ا لمجال العقدي وكذلك بالارادة من أقوى الادلة على مقاصد العقيدة وأهداف التوحيد .

عقيدة التوحيد تندد بمفاسد الشرك نقيض العقيدة :

إعتمد القرآن منهج المقارنة كثيرا فذكر المقاصد التي من أجلها حرم الله الشرك ودعا إلى إجتنابه وذلك عبر سيل عرمرم من القصة والمثل والكون وغير ذلك كثير ومن ذلك " فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " ـ وقال عليه السلام وهو يعلل العقائد والعبادات في حديث طويل " كمن إشتريعبدا وقال له هذه أرضي فأعمل وأد إلي فكان العبد يعمل في أرض سيده فيعمل ويؤدي إلى غيره " ومثل القرآن للكافر بالعنكبوت إتخذت بينا فهو وهن على وهن لا يصمد لاول نفخة وبالحمار يحمل أسفارا وبالكلب اللاهث دوما حال السعة والضيق سواء بسواء لانه لا يشبع من إرواء هواه ولا من الولغ في لذائذ الدنيا بالحرام أو دون شكر ولي النعمة وبالانعام بل أضل لانها لا تلوي سوى على إشباع البطن والفرج ونشدان الدفء. والامثلة على ذلك لا تحصى في القرآن الكريم .

هل العقيدة معللة إذن ؟:

أجل العقيدة الاسلامية سواء بمعناها الخاص فضلا عن معانيها وآثارها في الشريعة والحياة عامة معللة ومقصدة ومعقولة المعنى ومفهومة الغرض واضحة الهدف جلية الرسالة . تلك حقيقة نطق بها القرآن الكريم مرات كثيرة صراحة وهو يعرض عقيدة التوحيد أو البعث أو غير ذلك عبر القصة أو المثل أو النظر في السنن أو في الانسان أو في سائر الاحالات التي إعتمدها ذلك المنهج. نطق القرآن الكريم بها ضمن سياق يعلل العبادة ويقصد التوحيد ويبين المكارم والمحاسن والمزايا التي تترتبت على حياة الموحد فردا وجماعة في سائر الابعاد ا لشخصية والعامة وهو سياق واضح صريح كذلك سيما عبر منهج المقارنة في التحذير من الكفر والشرك وسائر الوثنيات القديمة والمعاصرة مذكرا بأن عاقبة الشرك وخيمة على الانسان المشرك ذاته فضلا عن سائر دروب حياته .

العقيدة معللة مقصدة بمعنى أنها تبرز مزايها وتفصح عن محاسنها ومكارمها ومقاصدها والعلل التي دفعتها إلى دعوة الناس إلى إعتناقها وبمعنى أن كل تلك الامور مفهومة المعنى معقولة عند الانسان لا يجد حرجا فيها ولا عنتا في فهمها ولا ضيقا وهو يسعى لتحققها في نفسه وفي حياته .
العقيدة معللة مقصدة ولكن بأسلوب وغرض يختلف عن طريقة الشريعة في التعليل وذكر ذلك واضحا فيما أنف من الفقرات السابقة .

العقيدة معللة مقصدة بأختصار شديد لانها مبنية في عرضها سواء ضمن أركان وهو الاندر جدا أو ضمن آثار مشهودة وهو الاكثر جدا على أكبر وأول مرتكزات البحث ا لمقاصدي أي الاستصلاح فهي معللة مقصدة لانها تعبر بصريح العبارة فضلا عن الاشارة والاقتضاء الذي تفهمه العقول عن كونها جلابة مصالح ومنافع للانسان ودفاعة مفاسد وأضرار عنه . وكل ما إنبنى على الاستصلاح عبارة أو إشارة أو إقتضاء فهو أمر معلل ومقصد .

العقيدة معللة مقصدة لان أثرها المشهود في الكون والتاريخ والانسان والنظام السنني وسائر حقول شخوصها التي تتذرع بها للاقناع بنفسها معلل مقصد بدوره فالكون للعبرة والتسخير وتنفذ إرادة الخلاق سبحانه والتاريخ للعبرة والنظام السنني للفهم والتسخير وتنفذ إرادة الله سبحانه وما كان حقله الذي يعمل فيه ويتخذه مسرحا للاقناع بنفسه معللا فهو بالضرورة معلل معقول المعنى.

العقيدة الاسلامية معللة مقصدة مفهومة معقولة بكل المعاني ومن كل الجوانب وذلك مبلغ الاعجاز فيها : أصلها غيب وأثرها مشهود ومقصدها جعل الانسان رغم حريته في تناسق مع النظام الكوني السنني والسببي والخلقي العام .

المحور السادس : منهج الكشف عن مقاصد العقيدة

أو شروط ومقومات الاجتهاد المقاصدي

إذا كانت العقيدة معللة مقصدة مفهومة معقولة المعنى على نحو يمكن من الاجتهاد من أجل تعيين تلك المقاصد والاسرار فإنه لا بد لنا من رسم منهج كفيل بجني ذلك غير أن ذلك المنهج لابد له أن ينبع من طبيعة تلك العقيدة أي من جمعها بين الغيب والشهادة ومن سائر شروط التفكير المتعلقة بها ومن الحقول المعتمدة من لدنها على درب عرض نفسها على الناس في القرآن خاصة . لابد لذلك المنهج الكفيل بكشفها من التجانس مع طبيعة تلك العقيدة على قاعدة أن العقيدة تختلف عن الشريعة رغم حكمها عليها وفق ما بينا في المحور السابق وهو إختلاف تمييز لابد من مراعاته عند رسم منهج الكشف عن مقاصد العقيدة أي أن المنهجين لابد لهما أن يتميزا رغم الاشتراك تبعا لاختلاف طبيعة حقل كل منهما أي العقيدة والشريعة .

ماهي العلاقة بين منهج الكشف عن مقاصد العقيدة وبين شروط ومقدمات الاجتهاد المقاصدي ؟ تكمن العلاقة في كون منهج الكشف عن مقاصد العقيدة لا بد له أن يمر عبر الكشف عن شروط ومقومات الاجتهاد المقاصدي وذلك لاسباب منها أن مبنى العقيدة في القرآن الكريم كما مر بنا لا يعنى بالكشف عن علة حكم لتعديتها إلى حادثة جديدة بل يعنى بإحالة نظر الانسان إلى الكون والتاريخ وإلى نفسه وغير ذلك على قاعدة إكتساب تلك العقيدة وتجديد ذلك الايمان وذلك يعني أن العقيدة مرتبطة من حيث التعليل والتقصيد بالسنن الكونية الكبرى وبطريقة بناء الكون ورصد التاريخ والقصة وبناء المثل وأبعاد الانسان . تلك المقاصد العقدية إذن موضوعة للاطمئنان إلى تلك العقيدة وذلك الايمان قلبا وعقلا وحسن تحمل منهما لها ولتكاليفها وليس لاستنساخ حكم جديد. وذلك كفيل بجعلنا نبحث عن مقاصد ا لعقيدة من خلال البحث في شروط ومقومات الاجتهاد المقاصدي المرتبطة بالرسالة العامة للاسلام وهو يتنزل في محاولة لجعل الانسان عنصرا مسبحا ضمن النظام الكوني المسبح بحمد الخلاق سبحانه .

إن البحث في شروط ومقومات الاجتهاد المقاصدي في الاسلام شريعة وعقيدة كفيل بتمهيد الطريق للبحث عن منهج الكشف عن مقاصد العقيدة لشدة الارتباط بين تلك العقيدة وبين تلك السنن الكونية في الكون والنفس والافاق من حيث الهيمنة والفوقية والعلوية والحكم على ما يليها ودونها وهو خاص بالعقيدة لخلوها من الحاجة إلى آلية القياس بالمعنى الاصولي المعروف .

فماهي تلك الشروط والمقومات ؟

ــ نظرية التعليل : ومعناها أن الخلق بأسره مخلوق وموجود وموضوع نشأة مقاصدية بعيدة عن العبثية " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق ..." . " وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون ..." . أنبأنا سبحانه في ا لقرآن الكريم بما تطمئن إليه عقولنا ومؤداه أن كل شئ خلق بقدر ولاجل مسمى ولرسالة محددة معينة " وإن كل شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ...". فالكون والخلق ومنه الانسان وكل شئ مخلوق أبدا يخضع لقانون التعليل في وجوده ورسالته ومآله . ونظرية التعليل بماهي كونية فوقية علوية حاكمة إرتضاها سبحانه لسائر خلقه طوعا وكرها لا يشذ عنها الوحي أو ما يتعلق بالانسان والوحي ألصق ما يتلعق بالانسان فما نزلت الكتب والرسل والرسالات وكانت الفطر والعقول سوى من أجل الانسان . ذلك من حيث المبدإ ومن حيث التطبيق الملموس فإن الاسلام دين معلل مفهوم معقول المعنى كل شئ فيه يستصحب علته ومقصده سواء بالاشارة الصريحة أو العبارة أو الاقتضاء إستنباطا من لدن العقول والافهام حتى مع الاختلاف . قولنا كل شئ في الاسلام معلل

مبرهن مفهوم معقول يعني الاصول والكليات والمبادئ في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة دون أدنى إستثناء وما كان أصله معللا مفهوما معقولا لا يضير أن يكون فرعه غير ذلك بل إنك تلفى الاسلام بكل تفاصيله وجزئياته حتى في العبادة والعقيدة معللا مفهوما معقولا إلا ما كان لا يتأهل العقل لفهمه وهو قليل جدا ونادر جدا حتى في العقيدة والعبادة وعديم الوجود فيما عدا ذلك وما كان ذلك كذلك فهو معلل بالطاعة ومقصد بقمع الهوى ـ هوى الشهوة وهوى العلم معا ـ إخلاصا لله سبحانه في محض الاتباع نتيجة لحصول الاطمئنان والتصديق . فكل شئ إذن بالخلاصة معلل حتى ما كان غارقا في التفصيل من مثل هيئات وصور بعض العبادات وعلتها ومقصدها ـ على قول أن العلة مقصد والتعليل تقصيد ـ إختبار الطاعة وإمتحان الاتباع وإسلام العقل فيما لا يفقه لخالقه وولي نعمته أم الالقاء به خارج حقل عمله . نظرية التعليل إذن نظرية حاكمة على الاكوان والخلق والافاق والانسان والوحي وكل شئ مخلوق مطلقا وتلك هي إرادة الله سبحانه في خلقه وفي ذلك مغزى وأي مغزى لتكريم الانسان . نظرية التعليل إذن لا يند عنها الوحي الكريم الذي بني على فقه الموازنات في العقيدة بين المالك للنفع والضر وبين الفاقد لذلك وفي الشريعة بمالا يحصى حتى بين منافع الخمر ومضارها مثلا وهو توغل في إجراء قانون الموازنات وهو قانون عقلي معلل مفهوم لم تشهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا . وينتج عن الموازنات الترجيحات والاولويات ومن ذلك فقه الخلاف والحوار الذي إمتلأ به القرآن الكريم ومنه فقه المآلات وحسن التنزيل لمصلحة الانسان وفقه الواقع الانساني نفسا ومحيطا وكل ذلك موضوع نشدانا لمصلحة الانسان من خلال تحمله للاسلام عقيدة وشريعة وعلل ذلك بقوله " أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟" و " أإله غير الله " وغير ذلك كثير .

ـــ فقه الانسان أو فقه الحرمات : أفضل التسمية الثانية وكتبت في ذلك في موضع آخر عن فقه الحرمات وكيف أسسها الشارع الحكيم عبر حرمة الانسان مطلقا وهي حرمة إستوجبت حرمة الزمان وحرمة المكان . فقه الحرمات هو بإختصار شديد العلم المفيد بأن كل مافي الكون من زمان ومكان محرم لاجل الانسان وهذا بدوره محرم فهو محرم بالكلية ومحيطه من الزمان والمكان محرم لاجله بالكلية تقريبا فهو حرام في حرام رتب الشارع الكريم على مجرد ظنة السوء به دون تلفظ فضلا عن عمل يد عقوبات كبيرة في الاخرة وعذاب الاخرة أشد وأنكى وما أجله ربنا سبحانه عقابا في الاخرة لا يعني هوانه بل يعني أن عظمته إستوجبت تأجيل العذاب به.

فقه الحرمات الشامل للانسان والزمان والمكان هو ذاته فقه كرامة الانسان ثاني ثابت في الاسلام بعد ثابت التوحيد فالانسان كما هو معلوم مملوك حر عاقل مكلف مسؤول مستعمر مستأمن مستخلف

راشد مجزي متوب عليه وهو في الان ذاته سنة وسبب في هذا الكون وفق مقولة خير من فقه العلم النبوي عمر " نفر من قدر الله إلى قدر الله " و" نعبد الله بقدر أحب إليه من قدر " أما مقولات أحد خيرة تلاميذه من مثل إبن القيم وقريبا منه محمد إقبال عليهم الرحمة والرضوان جميعا فيخشى الانسان لو إستجلبها شغبا لفرط ما خضعت العقول للتقليد وخنعت النفوس للسلبية.

ـــ فقه التطبيق النبوي خاصة والراشدي عامة : هذا مبحث طويل ربما نسهب فيه من أجل الاطمئنان إلى فكرة مهمة جدا مفادها أن العلوم والمقاصد والاصول وسائر مواد العقل التي بها يترقى إنما تستمد قيمتها العملية من خلال العمل والكسب والسعي وهو ملحظ كبير في القرآن الذي لم يذكر الايمان ولو مرة تقريبا إلا مقرونا بالعمل الصالح ذلك أن بعض الناس قديما وحديثا يعولون كثيرا على المباحث النظرية وكسب العلوم الفكرية سواء المتصلة بالشريعة أو بغيرها ولكن لا تجد لهم ركزا سواء في الحث على توثيق ذلك بالعمل أو في إرتياد حركة التغيير وقطار الاصلاح وكل إنفصام وإنفصال بين الحركتين العلمية والعملية هو إنفصام في ذات الانسان قبل أن يكون في ذات الواقع والمحيط وليس كالتوازن بين المطلبين خير حارس للانسان بالدين وفي ذلك قال أحد الفقهاء أظنه الغزالي " الدين أس والسلطان حارس فما لاأس له فمهدوم وما لا سلطان له فضائع ". العلم أس الاجتهاد المقاصدي والحركة سلطان حارس .

رصدت معالم كثيرة من معالم فقه التطبيق النبوي في العلاقة مع قضية التقصيد والاستصلاح ثم إختصرتها إلى أحدى عشر معلما أذكرها هنا دون تحليل لضيق المجال :

أ ـ العملية بدل الجدلية : لم يؤثرعنه عليه السلام يوما أنه خاض أو أقر خوضا في قضية عقدية أو نظرية عديمة الفائدة تورث الجدل والبغضاء سيما إذا لم يتوفر لها أهلها وخرجت عن محلها ومن ذلك أنه عليه السلام قال ضمن سياق معين لجارية أين الله فأشارت برأسها إلى السماء وقال لها من أنا فقالت رسول الله فقال لصاحبها هي مؤمنة وبمثل ذلك كان يكتفي من الناس حتى قال قولوا لاإله إلاالله تفلحوا وغير ذلك كثير في سنته قولا وسيرته عملا بما يفيد بما لا يدع مجالا للريب بأن منهجه يقوم على العملية ونبذ الجدلية .

ب ـ مراعاة حال الناس ولو أدى ذلك إلى تأخير واجبات وتقديم ضرورات ومصالح أخرى وذلك من مثل عزوفه عما رآه حق في حقه أي هدم الكعبة وإعادة بنائها على أسس إبراهيم عليه السلام وعلل ذلك العزوف بكون ذلك يحدث مشكلات جدلية في الناس بين مؤيد ورافض سيما في قطاع بني إسرائيل

الذين لن يدعوا الفرصة مواتية تمر دون شغب قد يقلب ظهر المجن للدين الجديد ومن مثل عدم قتل المنافقين وهم من هم عداوة وتآمرا ضده وضد شرف بيته وضد الدين الجديد وهو لا يجتهد في تحديدهم واحدا واحدا فقد تلقى فيهم قائمة إسمية من رب ا لسماء سبحانه ولم يقدم حتى على قتل بل ولا نفي رأسهم الذي تورط مرات ومرات في مالا يتورط فيه عادة سوى مجاهر بالعداوة للدين الجديد شديد التنسيق مع أعدائه من الخارج فكل موجبات قتله أو نفيه أو حبسه متوفرة بما فيه الكفاية ولكن راعى حال الناس في الداخل والخارج ومن مثل عدم تطليقه لمن أسلمت وبقي زوجها كافرا وهذا مبحث قديم متجدد لابن القيم فيه إجتهاد لم يسبق ولم يلحق ولا يتسع المجال له هنا وذلك بالرغم من نهيه عن نكاح الكافر لمؤمنة ولكن عملا بقاعدة تقول بأنه يغتفر في السابق ما لا يغتفر في اللاحق وغير ذلك كثير بما يؤكد قيام دينه عقيدة وشريعة على مراعاة حال الناس حتى لو أدى ذلك إلى تأخير واجبات وتقديم مصالح .

ج ـ سد ذرائع الشرك وذلك من مثل النهي في البداية عن زيارة القبور خشية صبإ النفوس مجددا وهي حديثة عهد بإسلام إلى طلب الاغاثة من الموتى والنهي عن النذر معللا بأنه لا يأتي بخير وتعليل إعفاء اللحية بمخالفة المشركين وأهل الكتاب ومخالفة الشيطان في القيلولة ونفي تلازم كسوف الشمس مع موت إبنه إبراهيم عليه السلام تلازما عقديا وكل تلك الامور من باب سد ذرائع الشرك لو نظر إليها مجردة معزولة لا تؤدي بالضرورة إلى الشرك ولكن الحكمة تقضي بأن يسد كل باب يؤدي إلى الضر ويفتح لو أدى إلى الخير وهو منطق عقلي سليم متناسق مع ماعليه النظام الدنيوي عند الناس . ومن ذلك أيضا التصوير وجر الثوب وقضايا أخرى كثيرة ليست محرمة لذاتها بل لاجل غيرها غرورا وتكبرا أو جلبا لداعيات الشرك أكبر الذنب .

د ـ توفير مناخ حي عملي لحسن الاعتقاد وحسن التدين وذلك من خلال شغل الناس بالحركة دوما قولا وعملا فنشاطة العسكري مثلا إستخباريا وتنفيذا فضلا عن الاعداد والتقويم يحتل معدلا كبيرا جدا من حياته يصل إلى حد عمل كل ستة أسابيع وهذا كفيل بعد داعيات الواقع يومها له بشغل الناس وملء حياتهم بالعمل الصالح بكل أصنافه وعدم شغلهم بالفراغ أبدا وعلمهم عليه السلام بأن الانسان دوما في عمل هو عبادة حتى النوم وطلب الشهوة الحلال فلم يكن للفراغ فيهم مطمع ولا حظ وجمعهم على الجماعة في الصلاة والصيام وسائر العبادات وندبهم إلى الحياة ضمن جماعة دوما في كل الاحوال الدينية والدنيوية وبكلمة سار بهم وفق نهج عماده توفير مناخ العمل والنشاط وكسب الخير والتعاون ونبذ الفراغ والسلبية والتواكل واليأس وخلود كل واحد منهم إلى خويصة نفسه لا يفكر في سواها ولا يعيش ويحيا سوى لها وفي المقابل لم تكن حياتهم مليئة بالمواد الفكرية النظرية الدسمة من مثل ماهو عندنا

نحن اليوم حيث لا يكاد الانسان يفرغ من محاضرة ودرس ومهرجان ودورة ومخيم مادة علمية حتى يندس في أخرى ولكن كان القرآن الكريم خير حاضن لتلك المادة العلمية البسيطة الواضحة البينة قوامها الايمان والعمل الصالح ليس أكثر . كانت الحياة تجمع بين بساطة القرآن في الاعتقاد ووضوح العمل الصالح وبين المناخ الجماعي الامن الملائم لترجمة ذلك وليس معنى ذلك خلو ذلك ا لمجتمع من المشاكل بل هي كثيرة سواء في داخله وخاصة من لدن المنافقين وفي خارجه ولكن كان العمل الدائب المخلص وفق علم قرآني وتوجيه نبوي واضح بسيط كفيلان بالفلاح والنجاح .

ه ـ توفير البديل المناسب عن كل أمر محل نهي وتلك هي عماد كل عملية تربوية ناجحة إذ الطبيعة كما يقولون تأبى الفراغ ومن ذلك أنه أبدلهم بالشرك وبالتثليث توحيدا وبالكائنات الماورائية التي قالت عنها الجن " وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " علما صحيحا بالجنة والملائكة والشيطان وحدد وظيفة كل واحدة منها وحقق لهم بأن غيبيتها لا تعني قدرتها على النفع والضر وبالكتب التي تأتي إليهم محرفة بالقرآن الكريم مصدقا ومصححا ومهيمنا ومقنعا وبالعلاقة المشوشة بين الله والانسان وقوى الطبيعة بعقيدة القضاء والقدر تنزل الانسان في منزلته والله سبحانه في عليائه وكل شئ فيها بقدر ومنزل محدد لا يطغى عليه ولا يخسر فيه وبالقرابين النذر الحلال والانفاق والاغاثة والتعاون وبكذب الكهنة محكمات العقول وصحيح النقول وبالرق وبالوأد تحريرا للانسان وللمرأة ومساواة بينهما في أصل الخلقة والتكوين والتكليف والرسالة والمصير وتكريما لمن أسجد له سبحانه ملائكته وبالطيرة توكلا وأملا ويقينا وثباتا وثقة وعملا وكدحا وسعيا وبالسحر عملا وقوة وأحسانا وإتقانا وغير ذلك لا يحصى عليك تتبعه بنفسك ثم تجد أن كل ما نهى عنه بأي درجة وضرب من ضروب النهي أوجد له بديلا في حياة الناس الخاصة والعامة وبدون ذلك يبقى الاسلام نظرية معلقة في الفضاء تستعصي على التطبيق فضلا عن إسعاد الانسان وتحريره وتكريمه وهو المنهج الذي بدل حياة الانسان تبديلا ولك في عمر مثلا عبرة بين وأده لفلذة كبده وبين خوفه من ربه لاجل بغلة تعثر في العراق يتحمل مسؤوليتها .

وـ تعليل العقيدة والعبادة وذلك من خلال أحاديث كثيرة منها ما رواه الحارث الاشعري وأخرجه الترمذي ويقول فيه " ... فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل إشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق وقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ... وآمركم بالصيام ... " وعلل كلا من الصيام والصدقة والذكر وغير ذلك و لايتسع المجال لنقل الحديث كاملا لطوله . وكان يمكن له الامر بالتوحيد والعبادات دون حاجة لترغيب الناس بإبراز مصالحها ومقاصدها ومحاسنها ومكارمها .

زـ الربط بين الايمان والعمل وهو مهم جدا فالقرآن الكريم لم يعرف العقيدة ولا الايمان ولو مرة واحدة بشطر كلمة وإنما إقتصر على الامر بالعمل الصالح ثمرة من ثمرات العقيدة وظلا ظليلا من ظلال الايمان وجاءت السنة القولية والسيرة العملية لتثني على ذلك فلم يعرفه عليه السلام مرة واحدة سوى في ربطه بالعمل حين قال " ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل " وكان منهجه يقوم دوما على قوله " لا يؤمن من ..." ـ " والله لايؤمن من .." ووصف صحابيا أشار إلى عمق وصحة إيمانه بصومه وقيامه بالحكمة قائلا له " عرفت فألزم " فلم يقل له إلزم فحسب بل وصفه بالعرفان والعلم لانه ربط بين العقيدة وبين العمل .

ح ـ تفويض علم المسكوت عنه من العقيدة ومن الشريعة إلى الله سبحانه لعدم قدرة العقل عليكنهه أو لا فائدة فيه حتى لو كنهه وقال في ذلك أحاديث معروفة ونهج نهج القرآن في ذلك في قوله " لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ..." وأمر بعدم التفكر في ذات الله وفي المقابل أمر بالتفكر في ملكوته وأثر رحمته وعدله وحكمته وذلك أثر من منهجه العملي النابذ للجدلية الفارغة وتعويله على العمل الصالح والطاعة مناطين لحسن الايمان وتجديد الاعتقاد .

ط ـ الربط بين منزلة الانسان كائنا مكرما محررا مستأمنا على العقيدة وعلى الخلافة وبين مجال القضاء القدري الالهي الذي لا يكنه العقل كل حدوده ولو كان ذلك لبطل النظام التعليلي الحاكم على الكون ولفسدت سنة الابتلاء وقانون الجزاء ومن ذلك إشارته إلى أن الادوية التي نعالج بها المرض من قدر الله وليست محاجة له ومضادة وأرشد إلى أنه لا يورد ممرض على مصح في شأن الابل والنعم وهي مادة عمارة الارض وينسحب على الانسان فيما هو مرض معد وأرشد إلى قضية العزل منزلة وسطى بين حرية الناس في شؤونهم الخاصة الشخصية ورغبتهم في الانجاب وطرائق تنظيمه وبين قدر الله سبحانه في كونه إذا قضى نفسا فإنها كائنة سواء عزل العازل أم لم يعزل وربط ذلك بعلوم الفرس وتجاربهم التي تعمل بالعزل وكذب اليهود في ذلك التي ترمي العازل بحول الولد وغير ذلك من الشغوبات التي تشغب بها اليهود على الدين الجديد.ومن ذلك كذلك إرشادهم إلى المغيبات أصلا وإخفائها عنهم حقيقة من مثل ساعة الاجابة يوم الجمعة وإسمه الاعظم وليلة القدر من أجل تحرير الانسان من سلطان الطمع الذي هو فقر حاضر ومن العبودية لساعة معينة وليلة معينة حتى يستحيل الدين فرصا كفرص اللهو بالورق والحظ ضربات مضروبة لا مجال فيها للعمل الدائب ومن أجل تكريم الانسان بدوام العمل والسعي والتعويل على كسبه ورحمة لله له سبحانه سواء ظفر بتلك المغيبات أو أخطأها .

ي ـ إبراز القدوات العملية الحية من أصحابه ونصبها أمام الناس تراها معالم هدى ومنابر خير ومنارات رحمة وفي ذلك تكريم وأي تكريم للانسان ولعامل القدوة الحية وإذكاء لسنن التفاضل والاصطفاء والانتخاب والتنافس الذي أشاد به القرآن وحرض عليه وحض فقال عن معاذ بأنه أعلم الناس بالحلال والحرام وعن علي كذا وعن زيد كذا وعدد حوالي عشرة من أصحابه خلع على كل واحد منهم أمام كل الناس إلى يوم القيامة لقبا علميا أو عمليا والغرض من ذلك إضفاء الطابع العملي المادي الملموس المحسوس على الاسلام فالناس دوما بحاجة إلى رواحل وزعامات وقواد وأوائل ورواد .

ك ـ إعتماد القصة بمثل ما فعل القرآن وخاصة عن بني إسرائيل إذ روى عنهم عليه السلام كثيرا من القصص من مثل قصة جريج العابد والاعمى والابرص والاقرع والساحر والشاب والشجرة وأصحاب الغار الثلاثة وغير ذلك كثير لا يحصى في الحقيقة وهو يتمثل القرآن الكريم عبر القصة فنا أدبيا ودعويا كبيرا ومدخلا لكسب العقيدة وتجديد الايمان .

تلك هي بإختصار شديد معالم المنهج النبوي في بث الاعتقاد بين الناس وتربيتهم عليه وهو من ذات مشكاة القرآن .

شروط ومقومات الاجتهاد المقاصدي إذن فيما رأيت والله أعلم هي ثلاثة وهي : نظرية التعليل الكونية والخلقية والانسانية والشرعية وفقه الحرمات أو نظرية كرامة الانسان وفقه التطبيق النبوي خير من علم العقيدة للناس . علاقة تلك الشروط ببعضها هي كونها تجمع بين الكون العام وبين الخلق الانساني وبين النظام التشريعي عقيدة وعملا في الاسلام من ناحية وبين الانسان المكلف بذلك فهما وتنزيلا بما هو محرر بالعلم ومكرم بالعقل وهو المستأمن على كل ذلك ومستودعه الامن رغم زوجية تكونه ومنه الهوى من جهة ثانية وبين خير تطبيق لكل ذلك من لدن خير الانام وهوالجانب العملي التنزيلي وهومنارة لنا وقدوة وحسن إسوة . فهو منهج يمكن إستخدامه للكشف عن مقاصد العقيدة يجمع بين النظرية وبين التطبيق وبين الغيب وبين الشهادة وبين الوحي وبين الانسان وبين الانسان وبين النبوة . ولا شك أن المجال لايتسع لبحث ذلك من خلال تجربة الخلافة الراشدة وهي أقرب التطبيقات صحة ورشدا للتطبيق النبوى وخاصة في عهد عمر بما أنه ممتد على أكثر تلك الفترة وبماواتته من ظروف الانتشار في الارض وفي العقول .

منهج الكشف عن مقاصد العقيدة إذن يقوم على مبدإ الاستقراء في النصوص العقدية في القرآن الكريم خاصة وكله تقريبا نصوص عقدية كمارأينا في إحالاته الواسعة الممتدة للاقناع بالعقيدة في المحور الرابع من هذا البحث . إستقراء يقوم على جمع الادلة الجزئية والكلية وخاصة في أكبر مجالات العقيدة وهي الكون والقصة والمثل وحال الانسان نعيما وجحيما والنظام السنني ومواكبة حياة الناس داعمين ذلك بقدر المستطاع بما تيسر لنا من التطبيق النبوي . إستقراء يقوم على ذلك ضمن كليات الاجتهاد المقاصدي عامة آنفة الذكر وضمن شروط التفكير العقدي التي تعرضنا لها في بداية هذا البحث .

قد لا نفلح لرغبتنا في طي البحث وقصره على المختصر المفيد كما يقال في دعوة كل النصوص والادلة الجزئية والاستفاضة في الاسهاب والتحليل والاطناب ومعولنا في ذلك صرف القارئ إلى الحقل المنبع في كل ذلك أي القرأن والسنة منظورا إليهما من زاوية المنهج ومن زاوية النصوص خاصة في المجال العقدي .

المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة الاولى : مقاصد القصة

إنتهينا فيما سبق إلى أن الاستقراء في مجمل الاحالات التي إعتمدها المنهج القرآني العقدي أنسب طريقة لمحاولة الكشف عن مقاصد العقيدة وهو ما سنعمد إليه بإذنه سبحانه ضمن هذا المحور الجديد وهو المحور الحاسم في البحث على معنى حسن الاستفادة من المقدمات الانفة في عملية الكشف تلك غير أن ذلك الاستقراء يتوسع ليشمل أهم حقول الاحالات وخاصة الاحالة على القصة أي التاريخ والاحالة على الكون وعلى الانسان كما يشمل الاستقراء مواضع عقدية محددة في القرآن من مثل سور الفاتحة والاخلاص والمعوذتين والكافرون وسورة الانعام سورة التوحيد الكبرى كما سماها بعض العلماء وأعظم آية ـ آية الكرسي ـ وخواتيم البقرة وكثيرا من الادلة الجزئية الاخرى من مثل النداءات الموجهة إلى الانسان وإلى الناس وبني آدم وبعضا منها مما توجه به الخطاب إلى الذين آمنوا ومواضع أخرى أقل عددا سوى أنها صيغة الخطاب فيها كان قويا من مثل الاوامر التي أمر الله بها بصيغة تفيد إلحاحا وقوة من مثل " إن الله يأمر أو أمر أو يريد ". وبذلك أظن أن المسح الاستقرائي للادلة الجزئية يشمل الامر والنهي ويجتهد في كشف العلة من الامر والنهي كما يجول مطولا في مختلف الحقول التي عول عليها ذلك المنهج لكسب العقيدة وتجديد الايمان وهو أسلوب من شأنه الجمع بين الجزئية والكلية وبين الامر والنهي وعللهما وبين الاجتهاد الاستقرائي ومعول عليه بإذنه سبحانه في إلتزام أقوم المسالك إلى الكشف عن مقاصد العقيدة الاسلامية بأكثر ما يمكن من الصحة والصواب والتوفيق والله أعلم .

في إثر تلك الجولات الاستقرائية المطولة نحاول إستخراج أكثر ما يمكن من المقاصد الجزئية والفرعية ثم نحاول توزيعها وترتيبها ضمن إستخلاصات وحصائل ثابتة مركزة تتوافر فيها الكلية والشمولية والاطلاق واليقينية وهي الحقل الذي ينتخب بدوره المقصد الاسنى من العقيدة الاسلامية ثم يعيد ترتيب المقاصد الجزئية الاخرى ضمن مقاصد ضروية أو مصالح كلية عامة.

البداية مع حقل القصة :

القصة والكون أكبر محورين من محاور القرآن الكريم كما والكم في القرآن الكريم له إعتباره ووزنه سيما إذا لم ترتبط به أوامر أو نواه صريحة واضحة فظل متروكا في الاعم الاغلب حقلا للاعتبار وإستخلاص الدروس من فحوى الخطاب ومفهوم الرسالة .

لا تتميز القصة في القرآن الكريم بثقلها الكمي فحسب بل كذلك بتنوع محاورها فضلا عن أساليبها الفنية الجميلة الساحرة وقد مر بنا بأن أثقل محور في محور القصة القرآنية هومحور بني إسرائيل في العلاقة مع موسى عليه السلام ومع فرعون وقارون وهامان ومع السحر والخضر ومشاهد أخرى كثيرة تظل تتردد في القرآن الكريم كثيرا وطويلا بحسب حاجة السياق وموضوع السورة . كما مر بنا كذلك بأن هناك محورين آخرين إحتلا حيزا غير يسير من القصة وهما قصة إبراهيم عليه السلام في العلاقة مع النمرود ومع قومه ومع طريقه إلى اليقين ومشاهد أخرى وكذلك محور آدم وأبليس في الجنة في العلاقة مع الطاعة والمعصية ومشاهد أخرى ومحاور أخرى أقل حجما وخاصة قصة عيسى عليه السلام وما صاحب ولادته من إستثناء كانت له خطورة بالغة على فريق من الناس وقصة أصحاب الكهف ويوسف عليه السلام ونوح وشيئا من ضرب آخر من ضروب النبوة ـ نبوة الملك ـ على يد داود وإبنه سليمان عليهم السلام جميعا ولفيفا آخر من القصص القرآني ضمن الاحالة على التاريخ أي على النقل .

إخلاص التوحيد لله سبحانه هو مخ محور ا لقصة طرا :

لايمكنني سوى إحالة القارئ الكريم إلى القرآن الكريم ليلتقط ذلك بنفسه فهو الرسالة الاكثر بروزا ووضوحا ليس من قصة أهل الكهف ولا أصحاب الاخدود ولا قصة عيسى عليه السلام أو نوح فحسب ولكن كذلك في أطول قصص القرآن أي قصة موسى في العلاقة مع المؤسسة الفرعونية ومع بني إسرائيل وفي قصة إبراهيم ليس في العلاقة مع طريقته في كسب التوحيد وترقيته إلى أقصى درجات الاطمئنان

القلبي والرسوخ العقلي ولكن كذلك في العلاقة مع المؤسسة النمرودية وطريقته في إقناع قومه بعقيدة التوحيد وكذلك في قصة آدم وأبليس وما دار بينهما في الجنة .

كون محور القصة بأسرها محضنا لبعث التوحيد الكامل والخالص المؤهل لخوض غمار الدعوة على بصيرة العلم وحجة البرهان لا يعني أنها إعتمدت الامر والنهي وهو ما يستوجب توخي الاستقراء عبر النظر في القصة وسائر الاحالات التي أحال عليها المنهج القرآني لكسب العقيدة وكل من إطلع على ذلك فهم الرسالة دون أمر ولا نهي . رسالة القصة في القرآن الكريم إذن هي رسالة التوحيد حسن كسب وفق المنهج العلمي القائم على حسن رصد صحة النقل ثم فحص ذلك النقل بباصرة العقل ثم إتخاذ الموقف المناسب من لدن الفاحص إما تصديقا أو كفرا على قاعدة الحرية التي هي مناط المسؤولية .

رسالة التوحيد في حقل القصة هي : أكبر عدو يواجه حرية العقيدة هو الظلم السياسي :

لك أن تستنبط ذلك دون عناء قط من كل القصص تقريبا وخاصة :

ــ قصة موسى عليه السلام أطول قصة وأطول ما فيها العلاقة مع المؤسسة الفرعونية وهي مؤسسة سياسية بإمتياز وفي العلاقة مع بني إسرائيل . فالمؤسسة الفرعونية هي التي حجبت عن بني إسرائيل حق حرية الاختيار " ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد " " لئن إتخذت إلها غيري لاجعلنك من المسجونين " والقصة مليئة بخطاب الوعيد الفرعوني والتهديد السياسي الساحق لكل حرية إرادة . وذات المؤسسة الفرعونية هي التي صدت موسى وهارون عليهما السلام من عرض كلمتهما على بني إسرائيل عرضا ليس فيه حبة خردل من إكراه وهي التي إستنجدت بالاعلام السحري المتمثل في طبقة الشعراء والسحرة ضمن مهرجان وطني حاشد هو يوم الزينة الذي جمعت له وزارة الاعلام الفرعونية وسائر خلايا حزبه الذي أحكم الخناق على الناس كل الناس وهي التي أغدقت المال على قارون فأستعبد الناس بحكم ضراوة الحاجة وكشح الفاقة وهي التي جندت هامان ضمن وزارة سيادة لها النفوذ الاعلى وإنتدبت بعصا الترغيب والترهيب معا حشودا حاشدة من الجنود الذين يضربون أبشار الناس والنتيجة أن بني إسرائيل باتوا مستعبدين بأتم معاني الاستعباد الذي تأنف منه حتى العجماوات المسخرة لذلك حتى كانوا حقلا خصبا لخطة فرعونية عنوانها " نستحيي نساءهم ونقتل أبناءهم ونحن فوقهم قاهرون".

ــ قصة إبراهيم عليه السلام وهي شبيهة بقصة موسى عليه السلام من زاوية أن إبراهيم كان عليه مواجهة المؤسسة النمرودية الحاكمة قبل أن يتمكن من دعوة الناس بحرية إلى عقيدة التوحيد وجرى ذلك ضمن مناظرة علنية شهيرة شبيهة بيوم الزينة وبلغ فيها النمرود ذروة غروره تماما كما وقع لفرعون إذ قال " أنا أحيي وأميت " وفسر ذلك بأنه يحيي من حكم عليه هو بالقتل فلا يقتله وينفذ في الاخر حكم القتل فيميته . ولو إنتصر النمرود يومها على إبراهيم لكان للدعوة الابراهيمية التوحيدية شأن آخر . وذات الامتحان العقدي جرى له مع الملك الذي أراد السطو على زوجه لولا أن الله سبحانه ألهمه في كل مرة ـ مع النمرود ومع هذا الملك ـ ذكاء بالغا وبديهة قوية إذ أجاب الملك بأن المرأة المعنية هي أخته وهي فعلا أخته في الله سبحانه .

ــ قصة أصحاب الكهف الذين إضطروا للاختباء في الكهف فرارا من بطش الملوك والجبابرة المتحكمين في أمر الناس يومها وهو ضرب من النفي سواء كان إختياريا أو إضطراريا ولو أتاح الطغاة فيهم يومها جرعة مهما كانت صغيرة من حرية الدعوة وحرية الاستماع لما كانت قصة تحمل إسم أصحاب الكهف أصلا .

ــ قصة أصحاب الاخدود وهي شبيهة جدا بقصة أصحاب الكهف سوى أن هؤلاء فضلوا أو أرغموا على النزول بأجسامهم العارية يحتضنون رضائعهم وولائدهم في قاع خندق غائر في الارض إمتلأ نارا أوقدت حتى إحمرت وإسودت والنتيجة سيان إن كانوا مختارين أو مرغمين ولا ريب في أن من حمل لواء ذلك الغدر الخائن الجبان ضد حرية الناس في أفكارهم حفنة صغيرة مهما كبرت من الطغاة المتحكمين في أقوات الناس يومها وحرياتهم .

خلاصة عامة مركزة لاكبر مقاصد العقيدة من خلال القصة :

١ ــ إكساب الناس التوحيد الصحيح الصافي من خلال النظر في التاريخ البشري أي القصة .
٢ ــ نصب معلم أمام الناس مفاده أن الحرية وحسن الاعتقاد صنوان .
٣ ــ تنبيه الناس إلى أن أكبر عائق أمام حرية الاعتقاد هو الظلم السياسي أي الذي يجمع في فنائه بين الاكراه الفكري والاحتكار الاقتصادي والعسكري .

٤ ــ السحر ليس سوى سلاح يستخدم ضمن معركة الظلم السياسي لحفظ الاستقرار لصالح ذلك الظلم ولا يخدش أولئك في شئ أن يجتمع السحر عندهم ب" ما أهديكم إلا سبيل الرشاد ". حجة فتنة الناس عن مزاولة حرياتهم الشخصية تجمع بين شعوذة السحر وعقلانية الرشد.

٥ ــ التوحيد الذي هو مخ العقيدة ليس بشئ إذا لم يواجه القوة التي تفتن الناس عن حرياتهم .

٦ ــ تكريم الخالق لمخلوقه الانساني يأبى سوى تحرير إرادته بالكلية .

٧ ــ الكون بأسره قائم على قانون الزوجية والابتلاء والتدافع والحركة والحياة في عالم الماديات والمعقولات سواء بسواء .

٨ ــ الابتلاء في عالم البشر أكبر معلم على الطريق وهو مقصد أساسي ضروري كلي عام .

٩ ــ التوحيد هو قمة الشكر للواحد ولي النعمة والصبر على درب التوحيد ضربة لازب .

١٠ ــ مآل طريق التوحيد الشاكر الصابر مآل حسن دوما بخلاف مآل طريق الكفر وخاصة الظلم الذي يزرع الفتنة لصد الناس عن حرياتهم والنفس الزكية وحدها تدرك حسن المآل في هذه الدنيا دون الاخرة كما تدرك سوء المآل .

١١ ــ التوحيد والقوة والملك والدنيا والقدرة على إقامة القسط بين الناس كثيرا ما يجتمعون حقيقة وليس في ميزان المعاني فحسب وهو ما أكدته قصص النبوة المالكة من داوود إلى سليمان وهو الوجه الثاني من قانون الابتلاء .

١٢ ــ بنو إسرائيل رمز الطعن في التوحيد والشغب على النبوة والتسلل إلى مواطن القهر لقهر الناس وإن وقع عليهم القهر فهم رمز الالتواء والكذب والخديعة والنفاق والخساسة .

١٣ ــ التوحيد الصحيح الخالص صنو الطاعة السلوكية التامة الممتلئة رضوانا أو صبرا .

١٤ ــ المعصية معصيتان : معصية شهوة وهوى يسير أمرها مهما تبرجت ومعصية إستعلاء وإستكبار وإعتراض من المملوك على المالك عسير أمرها مهما دقت وإختفت في الصدور.

١٥ ــ أشد طعنة في خاصرة العقلانية هي أن يتخذ قوم تبدل صور عظمة الخلاق سبحانه تصريفا وفق الحكمة ذريعة للطعن في التوحيد الفطري وتقديس البشر وعبادتهم وأبرز مثال على ذلك الاستثناء المصاحب لخلق عيسى عليه السلام وتدحرج العقل الاسرائيلي إلى أسفل سافلين .أأأأــ،،هههنللل تتتت المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة الثانية : مقاصد الاحالة على الكون

أذكر مجددا بأن الاحالة من لدن المنهج القرآني العقدي على صفحة الكون ذلك الكتاب المنظور محكم البناء متناسق الابداع إحتلت مع القصة أكثر القرآن الكريم وأن النظر في الكون إنما جعل بغرض مقصدين كبيرين كل ما دونهما وسواهما مندرج بالضرورة تحتهما وهما : النظر بصرا وفؤادا بنية التسخير والاستثمار والانتفاع والارتفاق في المجال المادي ومنه الجمال والزينة وكل ما يعود على الانسان بالنفع في بدنه وأبعاده الناشدة للمتعة العاجلة والنظر بصرا وفؤادا بنية التفكر والتدبر والفهم والكشف عن مختلف السنن والنواميس الطبيعية وهي رحلة عقلية خالصة غير أن تلك الرحلة تلبي سيما في مراحل التقدم غرضين أولهما تطوير الوجه الاول من النظر لاحكام التسخير الكوني والارتفاق بالخدمات الارتفاقية إلى حدود قصوى وثانيهما تطوير الوجه الثاني من النظر لحسن فهم مكونات الخلق والعلاقة بينها ومقاديرها وسائر تفاعلاتها وهو ما يخدم الجانب الروحي في الانسان عبر النشاط العقلي الذي لا بد له من الاهتداء عبر ذلك النظر إلى ولي تلك النعمة الكونية المسداة والرحمة المادية المهداة فيعرف نفسه ويعرف ربه فيسبحه ويعبده ويحمده على آلائه . ولذلك جاء الامر من لدن القرآن الكريم مرارا بالسعي في الارض وهو سعي مادي بالتنقل عده القرآن الكريم أول مظاهر قانون الكرامة الانسانية الفطرية " وحملناهم في البر والبحر " وسعي عقلي روحي ولقد غدا هذا اليوم بفضل التقدم الاعلامي يسيرا جدا لمن كان له قلب يتفكر به أو ألقى السمع وهو شهيد أي واع بما يلتقطه سمعه غير غافل أو لاه.التطور العلمي إذن يسر عمليتي السعي في الارض وذلك هو المقصد الاسنى من تأطير الوحي السماوي بأسره ضمن كلمة واحدة هي "إقرأ" فإذا لم يجد أقوام من تقدم مقتضيات القراءة سوى مزيدا من الكفر والظلم الصارخ العابر للقارات بل للكواكب فإنه من المؤكد بأن القراءة عندهم لا تعني سوى محو الامية .

لا يمكن للانسان تتبع عدد كبير ولا حتى قليل من مواطن الاحالة على الكون من لدن المنهج القرآني العقدي ـ هنا في هذا المجال الضيق وليس مطلقا ـ للتدليل على أن المقصد منه جني عقيدة صحيحة سليمة متوافقة مع أبجديات الابداع الكوني والتناسق الخلقي والفطرة الانسانية رغم أني سأذكر ببعض منها .

كما لا يفوتني بأن أذكر بأن الاحالة على الكون المادي المنظور من لدن ذلك المنهج عبر السعي في الارض عقلا وتنقلا هي ما يعبر عنها اليوم عند علماء الكونيات بالمنهج التجريبي الذي يقوم على الحس

والملاحظة والتجربة والمقارنة والتقييم وسائر العمليات المنخرطة ضمن المنهج التجريبي المعروف الذي إنبنت عليه سائر العلوم التجريبية المعروفة وهي وراء سائر مظاهر التقدم المادي في حياة الانسان اليوم .

أمثلة من القرآن المكي ومن أوائل ما نزل :

أخترت ذلك على قاعدة أن العقيدة غرست في النفوس منذ اليوم الاول لنزولها على أساس النظر في الكون ولم تكن عملية متأخرة رغم أن ذلك أمر صاحب نزول القرآن في كل أطواره فلم تكد تخل سورة واحدة من ذلك بما يفيد بأن النظر في الكون معول عليه أبدا في إنشاء العقيدة أو تجديد الايمان .

" وتكون الجبال كالعهن المنفوش " . فيه إحالة للانظار على تلك البنايات الشاهقة التي لا يبصر العربي يومها على وجه الارض سواها بل ليس في مكة وجه للارض أبدا سوى تلك الجبال الصخرية الشاهقة المتسلسة السوداء المظلمة . يريد القرآن إحداث حالة فزع في القلوب تقطع مع حالة السلبية والغفلة والاستمراء وذلك من خلال تحويل وجه الارض يومها عندهم إلى صوف ولك أن تقارن بين هشاشة صوف منفوش وبين صلادة جبال صخرية سوداء تصل السماء بالارض.

" والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ". صورة يزاولها العربي يومها صباح مساء ليل نهار وليس له بعد إمرأته بل قبلها سوى العاديات التي تجلب له الرزق وتطوي له الارض طيا وترد عنه العدا وهي مفخرته أمام الفقير وزينته يوم الزينة . لا يحتاج القرآن الكريم سوى إلى صرف الابصار إلى المتاع الارضي القريب جدا حتى يوقظ الانسان فيسأل عن سر تلك العاديات الضابحة من أعلى والقادحة شررا من أسفل : من قواها وسخرها وأنعم بها وهي كل شئ للعربي يومها ؟

"خلق الانسان من علق " أول ما نزل مطلقا . لم يكن العربي يومها يعرف أطوار الخلق رغم أن القرآن سماها ولكن العلم اليوم يتابعها لحظة بلحظة وليس يوما بيوم ويعرضها على ذات الحامل التي في أحشائها يتكون ذلك الجنين . وللانسان العربي يومها أن يسأل عن مصدر العلق ومصدر المني والنطفة ويتفكر في خلقه عامة لعله يطامن من كبريائه فيذكر أنه وهو في سورة بطشه وفورة غروره ليس سوى قطرة من ماء مهراقة نتنة قذرة يتحاشاها الناس بفطرتهم أن تدنس ثوبا أو مكانا .

" والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين ". كثيرا ما يرد ذكر الكون وما فيه ضمن الاحالة عليه في شكل أقسام من لدن رب العزة سبحانه . هل ثمة من لا يعرف التين والزيتون وجبل الطور . ذلك الثمر الذي يجنيه المرء في الصباح الباكر ناضجا طريا يانعا من شجرته يسد به جوعة أو يتمتع بأكله أو يدخر منه لعاجفات الليالي الكاسحة عندما يرخي الشتاء البارد سدوله على الكون فيهجع كل شئ ينشد الدفء . من أين جاء وكيف وما الذي جعله اليوم مثلا في عيون الاطباء خير دواء وقائي لعدد لا يحصى من الامراض والعلل البدنية ؟ وقس الامر ذاته على الزيتون الذي يغني الفلا ح الفقير والدولة المصدرة له ولم تكتمل قائمة منافعه في عيون الاطباء اليوم سواء على البشرة أو على فروة الرأس أو على الشعر في كل منابته أو على الجهاز الهضمي أو علاج بعض القروح أو إتخاذه أدما لا يحتاج من ضاقت به الشدائد إلى أدم سواه ولا يوصف بيت بالفقر وشئ من الزيتون سواء كان زيتا أو ثمرا في أحشائه مطمور .

"والضحى والليل إذا سجى " . حتى الاعمى يشعر بنور الضحى وأشعة شمسه الدافئة ومتعة الحياة بين ظهراني الضحى سيما في المروج الحافلة بثمرها والمترعة بأهازيج الناس رجالا ونساء وأطفالا يقطفون غلة أو يحرثون أرضا أو يحصدون زرعا . من جعل الضحى في مثل تلك الروعة التي لا توصف والناس اليوم في أروبا لفرط حرمانهم من الشمس ملزمون بمناولة أبنائهم حتى سن متقدمة من العمر حبوبا تعوض لهم بزعمهم وما هي بفاعلة شيئا من دفء الضحى المفقود ونعمة الشمس لذلك تراهم يهبون زرافات ووحدانا إلى بلادنا ذات الشواطئ الجميلة بشمس ضحاها الساحر . من يقلب ذلك الضحى الساحر المليئ حركة إلى ليل داج كأنه ميت مسجى ؟ رحلة في الزمان بين الليل والنهار والشمس والقمر منصوبة أمامنا كالمعالم البارزة الظاهرة وهي ذات الرحلة فينا من نطفة فعلقة فمضغة فعظام فروح فخلق آخر فوليد فرضيع فصبي فشاب فكهل فهرم وبين عشية وضحاها تتحول دموع الفرحة بالولادة دموع حزن على فقيد إستكمل أجله بعد عقود طويلة من الحياة ومآقي دموع الفرحة لما تجف . الانسان في ضحى وسرعان ما يكون في ليل مسجى .

"والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى " و " والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها " . وغير ذلك لا يحصى في الايام الاولى لنزول القرآن الكريم يغرس العقيدة ليس بالتلقين والحفظ التسجيلي الميت ولكن بالاحالة على كل ما يحوي الكون وما يدركه الحس البصري والسمعي وينتفع منه الانسان في كل لحظة من وجوده حتى نائما . لم يكلفهم

بالنظر فيما هو بعيد غريب بل في الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والارض لقطع سرطان الالف وداء العادة عندهم ولينشطوا العقول السادرة الغافلة .

" ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين " . يكفي الانسان أن ينظر في نفسه عبر المرآة أو يتفكر مباشرة بعقله ويسأل نفسه بنفسه : لماذا عينان ثنتان ولسان واحد وشفتان ثنتان وغير ذلك مما لا يحصى من الاسئلة ؟ ماوظفية العينين واللسان والشفتين ؟ سؤال يجيب عليه كل إنسان في القديم وفي الحديث سواء بسواء من حيث النتيجة وخلاصة المقصد من ذلك وإن كان التقدم العلمي يكشف عن أسرار تجعل المرء الذي يحترم نفسه يطفق بالتسبيح دون توان . إن تلك المنافذ من لدن الانسان على العالم الخارجي المحيط به هي سفاراته المعتمدة لدى ذلك المحيط تجلب له الاخبار وتوافيه بالتقارير أولا بأول وتنقلها إلى عقله قائد جهازه البشري بأسره في غرفة قيادته وهو يدرسها ويفحصها ثم يتولى إتخاذ الموقف المناسب منها قبولا أو رفضا . إذا لم تستخدم تلك المنافذ الحسية وليست عقلية بالاساس سوى لقنص طريدة أو إفتراس ضعيف أو تصريف المكر والحيلة من أجل الايقاع بالابرياء وأشباع الغرائز فإن الانسان لم يعد جديرا بإسم إنسان بل هو حيوان كاسر مفترس ليس مكلفا بالنظر العقلي في الكون لجني الايمان وتطوير العقل وتهذيب الروح والسماء بالنفس .

"والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر ".

" أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت "

" الذي خلق فسوى والذي قدر فهدي والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى "

" والسماء والطارق ... فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق ..."

"والسماء ذات البروج ..."
"فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا أتسق ..."
"فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ..."

"قتل الانسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ..."
"فلينطر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعامكم ..."

" ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا ..."

كل ذلك وغيره أضعافا مضاعفة حوته السور القصيرة الاولى نزولا وكلها تتوسل إلى غرس العقيدة وتجديد الايمان عبر أمر واحد تقريبا هو إحالة الانظار إلى مفردات الكون دون أدنى عناء سوى بذل التفكير لساعة من نهار وجعل ذلك وردا مورودا مرة كل شهر مثلا . مفردات الكون يومها لم تكن لا كثيرة ولا معقدة بل هي معالم بارزة يشعر بها الاكمة الذي ولد أعمى حقيقة من مثل السماء والارض والليل والنهار والجبال والابل والنجم وخلق الانسان من نطفة والشفق والفجر والصبح والماء والشجر من تين وزيتون وعنب وحب ... . لم يكن الاحالة على التاريخ أي القصة يومها سوى عبر إشارات خفيفة إلى فرعون وعاد وثمود لان الاحالة على مادة العلوم التجريبية كما تسمى اليوم أيسر على الناس وأولى بغرس الايمان عبر الحس أولى وأقصر وأقرب منافذ الانسان إلى العالم أي إلى المحيط الذي نكتسب منه العلم .

المقصد الاسنى من الاحالة على الكون إذن هو : كسب العقيدة عبر النظر العقلي .

وذلك كما قدمت عبر مرحلتين أولهما السعي المادي في مناكب الارض لكسب النعيم والرزق ومقومات الوجود الانساني وحفظ غريزة حب البقاء وتطويع الارتفاق الكوني إلى أقصى حدود ممكنة كما هو حال الناس اليوم وثانيهما السعي العقلي في الارض بكل الطرائق العلمية المتاحة في كل زمان من أجل حمل العقل على طرح السؤال الفطري الابدي السرمدي : من أين ولم وإلى أين ؟ رحلة عقلية روحية لابد لها أن تفضي إلى كسب عقيدة وإيمان إلا في حالة غفلة عن النظر أو جحود بعد عرفان
المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة الثالثة : مقاصد الاحالة على الانسان

محور الاحالة على الانسان ضمن سلسلة الاحالات المتعددة التي إعتمدها المنهج القرآني العقدي سبيلا للاقناع بعقيدة التوحيد يحمل معنيان : خاص وعام . أما الخاص فهو ما تناولته بشئ من الاطناب في إبانه سابقا وأكدنا فيه بأن الانسان يخاطبه القرآن في نفسه عبر الترغيب والترهيب وعبر تعليمه بمكونات جهازه النفسي المزدوج كما يخاطب عقله بإقرار سنة كونية عامة ماضية مطردة سماها القرآن الكريم نفي الاكراه وإسداء نعمة الحرية المطلقة أمام العقل الانساني ليختار طريق الخير أو الشر أو الفضيلة والرذيلة أو الحق والباطل بكل حرية إرادية ومحض إختيار كما خاطب فيه خاصية الميزان التي هي أقرب إلى العقل الهادي سواء السبيل في الانسان سيما من لدن المجموعة عبر الاجتهاد والشورى وطلب الحكمة ونشدان التجربة والتوبة والاوبة وهو الميزان العقلي الذي يمكن من الموازنة في محور الامثال القرآنية بين مصير المؤمن ومصير الكافر في الدنيا والاخرة سواء بسواء وبالجملة فإن المعنى الخاص من الاحالة على الانسان هنا معناها فتح الوحي لكل منافذ الانسان الحسية أي التجريبية في المنطق العلمي المعاصر والعقلية والتي سماها عادة فؤادا والبدنية من خلال الغرائز والرغبات والشهوات والاهواء والامزجة والنفسية من خلال النظر العقلي الهادئ في المآلات والمصائر في الاشياء والامور المادية والعقلية التاريخية والحاضرة والمنافذ الابداعية في الانسان والذوقية والعاطفية وبالجملة فهو يفتح كل منافذ الانسان على المحيط ليعلم شيئا جديدا نافعا أو ضارا فهو من يحدد ذلك . فالمنهج القرآني العقدي إذن يحيل على الانسان كلا متكاملا شاملا أو آلة أوجهازا ليحدد مصيره في هذا الكون . أما المعنى العام لتلك الاحالة على الانسان جملة فمعناه أن كل الاحالات السابقة واللاحقة مبناها ولحمتها وسداها هو أن الانسان وحده بما أهل به وزود من ملكات فطرية ومكتسبة مسؤول عن النظر في الكون وعن النظر في التاريخ وفي القصة البشرية الغابرة وفي مواكبة الوحي للحراك الحياتي اليومي زمن نزول الوحي أي أن الاحالة على الانسان تعني الاحالة على ذات الانسان وعلى محيطه الحاضر لمزاولة العلم التجريبي وعلى محيطه الغابر التاريخي لفحص ا لرواية وإتخاذ الموقف المناسب منها . فالانسان إذن هو محور الاحالة القرآنية العقدية والانسان إذن هو المستأمن على العقيدة والمحضن لها والمستودع وذلك بالرغم من أصلها الغيبي غير المشاهد بالابصار ولكنه مشاهد بالعقول والقلوب والفطر والاثار والنتائج وهي قمة التكريم الالهي للانسان الذي لم يعتبره دابة من الدواب التي لا تؤمن سوى بالحس ولكن عول على ملكاته العقلية العظيمة والكبيرة لاداء فرائض الاستخلاف والاستئمان والاستعمار والشهادة والعبادة والعمارة وإقامة القسط والعدل وتوحيد الناس ونزع فتائل الاحتراب بينهم وتنفيذ إرادة لله سبحانه في كونه وخاصة في ا لارض التي عليها يحيا الانسان ويسير .

سورة الانسان في القرآن كفيلة بجمع طرف غير يسير من كل تلك المعاني وجمع المقاصد:

في القرآن الكريم سورة إسمها سورة الانسان ولو قرأت فيها بيسر ولطف لادركت منذ اللحظة الاولى ملاحظة لابد لها أن تسترعي إنتباهك وهي أن سورة الانسان هي في الحقيقة سورة نعيم الجنة فهي تكاد تتمحض وهي سورة الانسان مطلقا لذكر نعيم الجنة وفي المقابل لم تذكر من النار سوى آية واحدة تقريبا وذلك بعد أن قررت في فتحها المختصر جدا حقيقة التركيب الانساني والتكوين البشري ماديا ونفسيا على قاعدة الازدواج وقانون الابتلاء ثم تفرغت بالكلية تقريبا لنعيم الجنة تبسطه بإسهاب وإطناب وترغيب ضمن مشاهد حية ساحرة أمام الانسان مطلقا أي الانسان جنسا . فما هي الرسالة من ذلك ؟ الرسالة هي أن الانسان خلق في الجنة وذاق من نعيمها رغم معرفة الله مسبقا بأنه سيقترف المعصية في الجنة ثم أهبط إلى الارض لتكون جنته في الدنيا مالا ونفسا إن إختار طريق ربه سبحانه ثم يعاد إلى الجنة مجددا بتكاليف صغيرة جدا هي مغروسة فيه قبل ولادته وسائر الظروف من حوله ومن قبله تدعوه إلى الايمان والتصديق والعدل والقسط ولا ضير إن أخطأ خطأ أبيه الاول آدم فتاب وإستغفر شريطة ألا يسلك طريق الشيطان الذي لم يعص بجارحته ولكن عصى بعقله مستكبرا على مولاه مستعصيا على الاسلام بقلبه متمردا على ولي النعمة لا ضير على الانسان إن أخطأ ألف ألف خطإ من قبيل الهوى والشهوة ثم تاب حتى قبل موته بساعات قليلة كلما ذكر أنه له ربا يغفر الذنب غفر له وكلما نسي ذلك شرع له مولاه في نفسه وفي كونه وفي تاريخه وأين حل وإرتحل معالم تذكره وأقواها حركة الموت التي لا يكاد يمر يوم واحد دون مشاهدتها بأم عينيه . الرسالة من وراء تمحض سورة الانسان لعرض نعيم الجنة للانسان جنسا هي أن الانسان مصيره المحتوم هي ذات الجنة التي أخرج منها لما تبع هواه فهو للجنة مخلوق وليس للنار ولا يدخل النار سوى من أصر من تلقاء نفسه عاقلا بالغا مكلفا مصرا بحرية إرادة مطلقة على دخول النار فهذا لا يملك له أحد شيئا كلما كان العقل مناط التكليف وكانت الحرية مناط المسؤولية .

سورة الانسان في القرآن وتجسيد الاحالة على الانسان :

١ ــ المقصد الاول : تذكير الانسان بأصله المعدوم ثم بأصله شبه المعدوم لعله يرجع إلى ربه.

٢ ــ المقصد الثاني : تعليمه سنة الابتلاء التي من أجلها خلق خلقا مزدوجا .

٣ ــ المقصد الثالث : المن عليه بالسمع والبصر أي بالحس والعلم التجريبي والعقلي القادر على معرفة الرسالة والاصل والمآل والتعمير والتسخير والاعتبار

٤ ــ المقصد الرابع : منحه الحرية التامة المطلقة في عقله ونفسه وإرادته لتقرير مصيره وسمى ذلك هداية وهي هداية فطرية فكل من هدي فطرة إلى سائر طرق الخير والشر فهو مهدي فإن هدى نفسه بإذن ربه إلى طريق الخير فهي هداية الهداية . الحرية في الشكر والحرية في الكفر.

٥ ــ المقصد الخامس : الجزاء من جنس العمل فالكافر يجازى بالسلاسل والاغلال والسعير لانه سلسل منافذه الانسانية وغل ملكاته الفطرية والعقلية أن تنظر في الكون وفي نفسه وفي التاريخ فورث نفسه سعيرا في الدنيا هو سعير الكآبة والانتحار والسخط والحسد والقتل واللهث وراء حطام الدنيا لا يشبع بل يظل يهلث كالكلب .

٦ ــ المقصد السادس : بسط نعيم الجنة أمام الانسان جنسا في هذه الدنيا دغدغة لعواطفه أن تظل مشدودة إلى نشدان ذلك النعيم الذي ما زالت إلى حد اليوم تجد برده من غدق الجنة الاولى :

ــ نعمة الشراب وأي شراب من عين تفجر تفجيرا فيتمتع الانسان بالتفجير وبثمرة التفجير .

ــ نعمة النضرة في الوجوه البهية البهيجة المسرورة الضاحكة وهي رمز للهناء والامن والسعادة.

ــ نعمة الحرير المتناسب مع نعيم الجنة والابدان التي لا يخرج منها ما كان يخرج في الدنيا ولم تعد مكلفة بالاخشوشان لالتقاط حبة الرزق بكد وجد لاهزل فيه من الارض .

ــ نعمة الراحة التي يرمز لها الاتكاء فوق الارائك فلا نصب ولا فزع ولا خوف لا على ذهاب رزق ولا على قدوم عدو

ــ نعمة الظلال الوارفة الدانية

ــ نعمة القطوف المذللة الطائعة الدانية ذللتها الثمرات الناضجة الرطبة الندية التي تحملها كما ذللتها الاشجار ذات الاغصان الهافية حبا وحنانا إلى عباد الذين أطاعوه في الدنيا بالغيب .

ــ نعمة الخدمة من خلال ولدان مخلدين يشعون بهاء في أيديهم آنية من فضة وأكواب من قوارير وشراب وأي شراب . نعمة تشترك فيها متع النظر في وجوه الولدان كأنهم لؤلؤ منثور لفرط البهاء والحسن والجمال مع متع ما يحمله أولئك الولدان من نعيم والمناخ كله نعيم مبسوط وهو ملك لاهل الجنة والثياب من مختلف ضروب الحرير الناعم والاجسام مزينة بالاسورة .

٧ ــ المقصد السابع : كل مظاهر ذلك النعيم الذي تكرر فيه الشراب مرات عديدة لسر لا يعلمه سواه سبحانه جزاء على عمل صغير لا يتعدى الوفاء بالنذر وملازمة الخوف من الجليل سبحانه وإطعام الطعام رغم الحاجة إليه لسائر المحتاجين حتى لو كانوا أسرى مازالت أسيافهم تقطر دما من أجسام المؤمنين المجاهدين وملازمة الاخلاص له سبحانه وحده في كل عمل وملازمة فضيلة الصبر دوما على عدم طاعة الكافر وعلى تكاليف العبادة وعلى تكاليف المصيبة وملازمة الذكر والسجود .

٨ ــ المقصد الثامن : حرية الانسان الممنوحة له بقصد حسن تفعيل تكاليف الاستخلاف والاستئمان والاستعمار والشهادة وإقامة القسط بين الناس لا تتعدى حدود ما يحتاج إليه الانسان إلى تغيير السنن والاسباب والاقدار والنظام الكوني والخلقي والاجتماعي السائد في الفطر وفي الافاق والانفس فالانسان

يجمع في الان ذاته بين الاسر وبين الحرية حتى يعمل أن حريته هي حرية حيوان مملوك لرجل ما يهيئ له حقولا ومروجا لا شطآن لها للغدو وطلب الرزق واللهو ولكن يملك حق ذبحه وبيعه وتقييد حريته في كل وقت لانه يملكه فلا سلطان لاحد عليه سواه وذلك هو حال الانسان مع الخالق سبحانه : الانسان مملوك حر. مملوك في النظام الكوني الذي هو جزء منه ليس له تغييره ولا الافلات من أسره ومن قبضة تلك السنن وحر فيما عدا ذلك .

مقصد الاحالة على الانسان خاصة بمعناها الخاص هو إذن بإختصار شديد تشريح البناء البشري أمام الانسان ليشهد بأم عينيه ومخ عقله ولب قلبه بأنه كائن مملوك حر لمالك مصر على إرجاعه إلى الجنة التي أخرج منها بداية وأنه كائن مزدوج التكوين للابتلاء بين مطالب مادية تتطلب التلبية ومطالب روحية وعقلية تتطلب التلبية كذلك والحكمة في تلبية المطلبين على قاعدة الميزان الذي هو العقل المعدل لكل المطالب بالنظر في الامثال القرآنية المضروبة والنظر في نعيم الجنة المبسوط وعذاب الاخرة الممدود وكل ذلك على قاعدة نفي الاكراه مطلقا في الكون إلا إكراها لا يضير الانسان أن يكره عليه من مقتضيات النواميس الكونية الخادمة له وعلى أساس أن كرامة الانسان في هذا الكون من لدن ذلك المالك الرحيم سبحانه المصر على إرجاع الانسان إلى الجنة ثأرا من الشيطان والنفس اللذين أخرجاه منها ثابت يقيني قطعي إستخلافا وإستئمانا وإستعمارا وشهودا وإقامة للعدل والقسط بين الناس كلهم على قاعدة الادمية وليس على أي قاعدة أخرى ولو كانت الدين .

لاريب أن من يحال على النظر في نفسه هوى وعقلا وروحا وأصلا ورسالة ومآلا يكسب عقيدة صحيحة سليمة فإن كانت الاخرى فهو الحمق نفسه والعدوان ذاته .

المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة الرابعة : إستقراء في أدلة جزئية أخرى

يمكن أن نعد حقول القصة والكون والانسان في القرآن الكريم أدلة كلية بصدد الحديث عن إستقراء مقاصد العقيدة بينما تكون بقية الاوامر والنواهي وخاصة ما ورد موجها إلى الانسان جنسا أو الناس عامة أو بني آدم فضلا عن التعبير عن إرادة الله سبحانه أو أمره بشئ بصيغ الامر المؤكدة ... يمكن أن نعد ذلك من قبيل الادلة الجزئية وبمثل ما عملنا بمنهج الاستقراء في حقول القصة والكون والانسان فيما سبق ننتهج ذات السبيل في كم غير يسير من الاوامر والنواهي وملاحقها . ويمكن لنا تقديم الاوامر والنواهي التي يتجه فيها الخطاب إلى الانسان جنسا أو إلى الناس كافة أو بني آدم ولو كانت صيغها خبرية بإعتبار أنها كانت أغزر في القرآن المكي الذي عني بالعقيدة وبأعتبار أنها من حيث المبدإ المطلق

تتجه إلى الناس كافة وهو ما من شأنه أن يكون الطابع العقيدي فيه أظهر وأجلى . كما نتناول شيئا من الاوامر والنواهي الخاصة بالذين آمنوا .

عمدتنا في ذلك الاستقراء هو دوما قانون التعليل الذي على أساسه بنينا منهج الكشف عن مقاصد العقيدة نظرا لقوة ذلك القانون الذي إستخدمه القرآن للتدليل على وحدانية المولى سبحانه وتأكيد كل صفاته وأسمائه . الكون والخلق والاجتماع البشري قائم على قانون التعليل .

تحديد المقاصد المستنبطة من الخطاب الموجه إلى الانسان عامة بأي صيغة كان :

١ ــ العبادة هي أولى مقتضيات التوحيد الخالص بهدف تحقق التقوى وهي معللة بشكر ولي النعمة على الخلق والايجاد وإسداء النعم التي لا تحصى .

٢ ــ مخالفة الشيطان عبر إعتبار الارض وما فيها محصنا خصبا يباح أكله والتمتع بخيراته والارتفاق بما فيه .

٣ ــ مقصد التقوى المحرضة على حسن الاستخلاف والناهية عن مخالفة مقتضيات الاستئمان مع التفكر في وحدانية مصدر الوجود ووحدانية مصدر الانسانية بصفة خاصة .

٤ ــ التدليل العقلي على البعث من خلال الاعلام بمختلف مراحل الانشاء والخلق .

٥ ــ الدعوة إلى الاستماع إلى الامثال القرآنية المضروبة بغرض إستخدام العقل في مآلات المطيعين والعصاة في القضية العقدية .

٦ ــ الدعوة إلى التفكر في نعم الله سبحانه عبر النظر في الكون وفي مصدر الرزق الاول .

٧ ــ الدعوة إلى إتخاذ الموقف العقلي الصحيح من الدنيا فلا ركل وهجران ولا عبادة وتقديس

٨ ــ التذكير بحاجة الانسان دوما ومطلقا إلى الغني الذي لا يحتاج لاحد من خلقه أبدا

٩ ــ التذكير بزوجية الوجود الانساني أساس الزوجية في ذات كل إنسان والقصد من ذلك كله إنبناء الحياة على قانون الابتلاء والتعدد والتنوع والاختلاف بهدف حسن إدارة سنة التعارف النازعة لفتائل التحارب والبانية للحياة الكريمة على أساس الاشتراك والتعدد معا

١٠ ــ التذكير بمنزلة الانسان حيال ربه سبحانه بقصد نبذ الاستكبار عبر المن عليه بنعمه عليه

١١ ــ التذكير بحتمية رجوع العبد إلى ربه عبر مسيرة الكدح الدائم .

١٢ ــ التأكيد على أن السجود رمز مطلق الطاعة والزينة رمز مطلق السرور لا يتقابلان بل يتكاملان في ذات لحظة السجود وذات لحظة السرور .

تحديد المقاصد المستنبطة من الخطاب الموجه إلى الذين آمنوا :

١ ــ الدعوة إلى الدخول في حياة السلم والسلام والامن كافة ومع الناس كافة

٢ ــ الدعوة إلى عدم طاعة الكفار في ما يميز المؤمن عن الكافر من المعتقدات والعمليات
٣ ــ الدعوة إلى تحقيق الوحدة الانسانية والاسلامية عبر الاعتصام ونبذ التفرق
٤ ــ الدعوة إلى الايمان الحق بعقيدة القضاء والقدر في مسألة الموت والحياة
٥ ــ الاعلام بأصول الحاكمية في الحالة العادية وحالة الخلاف وهي تحكيم القرآن أولا ثم السنة ثانيا ثم الامة ثالثا سيما عبر ممثليها الذين إنتدبتهم هي لخدمتها ورعاية مصالحها ضمن الاطار القيمي الذي حددته هي .
٦ ــ تحقيق الولاية لله ولرسوله وللامة مطلقا وخاصة فيما لا يقبل الاشتراك بين الملل والنحل .
٧ ــ ملء عقيدة التوحيد بمضمون حياتي حي من مثل الاعتصام والتوحد ورعاية العقود وحقوق الانسان وكرامته وأداء الامانة والحكم بالقسط
٨ ــ التحذير من خطر الردة من قبل المؤمن بعد إنخراط حر في الايمان
٩ ــ إنبناء الحياة على أساس الابتلاء
١٠ ــ نصب دستور لاستجلاب النصر يقوم على نصرة الله في الانفس والافاق
١١ ــ الدعوة إلى الطاعة التامة المطلقة الكاملة فيما صح ولم يتبين مقصده خاصة وفي كل تكليف عامة والشعور الداخلي بالتسليم والرضى
١٢ ــ قيام النفس على أساس المحاسبة والتوبة والاوبة والمراجعة والنقد الذاتي
المقاصد المستنبطة من التعبير عن إرادة الله سبحانه وأوامره بالغة القوة :
١ ــ قيام العقيدة على الحق والعدل والقسط بين المالك والمملوك يستدعي قيامها بين الناس مطلقا على ذات الاسس في كل مجالات الحياة ولو أدى ذلك إلى شن الحروب تكريما للانسان وإنقاذا له من براثن الاستعباد بغير حق
٢ ــ قيام إرادة الله سبحانه في الارض على أساس التمكين للمستضعفين مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين عبر تقوية شوكتهم وتمكينهم من تحقيق التمكين في الارض بأنفسهم " ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ـ أي من المستضعفين ـ ما كانوا يحذرون " فإذا كان المستضعفون مؤمنين فإن الارادة الرحمانية القاهرة النافذة تجعل منهم أئمة وورثة للسلطان في الارض .
٣ ــ قيام الحياة الدينية والدنيوية في الاسلام على قاعدة اليسر والبشر ونبذ العسر والنفور عنها والحط من المشددات والمضيقات والمعنتات والمحرجات حتى في أدق وأخص العبادات كالصلاة فضلا عما دونها وكل أمر هو دونها حتما سوى الايمان .

٤ ــ بناء الحياة على أساس الاحسان والتراحم في سائر مستويات الالتقاء البشري بدء من الرحم القريب حتى الرحم الانساني البعيد

مقاصد أخرى صريحة من كثير من الاوامر والنواهي العقدية :

١ ــ العقيدة حياة

٢ ــ العقيدة نور

٣ ــ العقيدة خير

٤ ــ العقيدة برهان

٥ ــ العقيدة شفاء للقلوب

وغير ذلك كثير يجدر تتبعه في القرآن الكريم مما يعد مقاصد مباشرة للعقيدة الاسلامية .

المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة الخامسة : مقاصد عقدية من سور عقدية

بعض سور القرآن الكريم عقدية بالكامل بالمعنى الخاص للعقيدة منها الفاتحة والاخلاص والمعوذتين والكافرون ومواضع أخرى كثيرة في الزهراوين البقرة وآل عمران وخاصة أعظم آي القرآن الكريم طرا وخواتيم البقرة إلى جانب سورة التوحيد الكبرى الانعام . لا مناص لنا من إستقرائها بقدر المستطاع نشدانا لمقاصد العقيدة .

مقاصد فاتحة الكتاب :

١ ــ مداومة ذكر نعم ولي النعمة وحمده عليها سبحانه وتوحيد أم أسمائه وصفاته من مثل ربوبيته للعالمين ورحمانيته لهم وملكه لهم ولمآلهم يوم الدين

٢ ــ توحيد العقيدة بشقيها النظري " إياك نعبد " والعملي " إياك نستعين ". لتوحيد الانسان ضمن مختلف أبعاده القلبية العقلية والسلوكية العملية

٣ ــ التوجه إليه سبحانه بالتضرع والدعاء والحاجة

٤ ــ النفور عن سبيل طائفتين كبيرتين من أهل الكتاب ضلا قبلنا واحدة بسبب معرفة الحق والازورار عنه إلتواء ونفاقا وتمردا شبيها بتمرد إبليس والاخرى بسبب قصور عقلي حاد جعلهم يعبدون البشر ويؤلهونهم لارتباط بعض الاحداث الخارقة للعادة بهم من مثل طريقة الحدوث .

مقاصد سورة الاخلاص :

١ ــ إخلاص العقيدة يتطلب التوحيد الصافي للذات الالهية ولاسمائها العليا من مثل مفارقتها لكل شئ مطلقا " ليس كمثله شئ " و " لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ". وحاجة كل شئ مطلقا لها وإستغناؤها في المقابل عن كل شئ مطلقا .

مقاصد المعوذتين :

١ ــ خلوص العقيدة يتطلب التوجه إلى من يملك النفع والضر تعوذا من كل شر وكل ضر من إنس أو جان كما يتطلب الاعتراف بسائر مظاهر التوحيد من ربوبية والملك والالهية " وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله ".

مقاصد سورة الكافرون:

١ ــ تميز الاعتقاد الاسلامي الموحد عن كل ضروب الاعتقاد الاخرى تميزا كاملا فلا إلتقاء أبدا إلا بردة أو إيمان .
٢ ــ تلك المفارقة الكاملة والمفاصلة الشاملة في الاعتقاد تتطلب بالضرورة الاعتراف المتبادل من لدن كل فريق بالاخر حرصا على حسن التعايش السلمي بين الناس وعمارة الارض والقيام على سائر المطالب الانسانية التي تقتضيها الفطر السليمة والعقول الحصيفة رغم إختلاف الاديان.

مقاصد أعظم آي القرآن الكريم :

١ ــ الايمان بأسمائه وصفاته سبحانه من مثل الاسم العلم والحياة والقيومية والملك التام والشفاعة التامة والعلم التام والقدرة التامة والعلو التام والعظمة التامة .

مقاصد خواتيم البقرة :

١ ــ إثبات الملك التام له سبحانه والاطلاع على ما تخفي الصدور فلا تخفى عليه سبحانه خافية

٢ ــ إيمان الرسل هو ذات إيمان كل إنسان إختار الايمان حرا مريدا فلا طبقية في الاعتقاد إلا بحسب حياة ذلك الايمان وأداء مقتضياته والاخلاص فيه

٣ ــ أركان الايمان التي لابد منها تصديقا لا يقبل الريب هي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ودون تفريق بين الرسل كلما كانوا من مشكاة واحدة تختلف لغاتهم وأقوامهم وكثير من خصائصهم ولكنهم يبلغون عن رب واحد ورسالة واحدة ودين واحد هو الاسلام أو التوحيد .

٤ ــ التوحيد الخالص يقتضي التسليم بالسمع والطاعة العملية دون أدنى إعتراض إلا شهوة لا يسلم منها أحد سوى المعصومين من الانبياء والمرسلين والمعول في ذلك الاستطاعة لحسن الاداء .
٥ ــ تكفل الله سبحانه بمغفرة الذنب الصغير وخاطرة القلب وما لا يملك الانسان أمره من شهوة فالتة أو حديث قلب جانح كلما ذكر الانسان ربه فأناب بدعاء الاستغفار وهو غفار لكل الذنب سبحانه فالمقصد هنا هو إذن ـ في أطول سياق دعائي في القرآن الكريم ـ تطعيم القلب بالذكر ضد سرطان الغفلة التي تورث قسوة القلب فالاثم والفاحشة فالظلم فالشبهة الكثيفة فالضلال البعيد.

من مقاصد ثاني الزهراوين آل عمران :

١ ــ العلم كفيل بجعل الانسان ـ كل إنسان ـ شاهدا على التوحيد وحسن الاعتقاد وصحة الالهية " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ". إستوت شهادة الله على نفسه بشهادة الملائكة المفطورين على ذلك دون عناء منهم ولا مقاومة هوى ولا إنحجاب روح إو إنطماس بصيرة مع شهادة الانسان بسبب تفوقه العلمي ولك أن تدرك أي علم هو ؟

٢ ــ إثبات الملك التام الشامل الكامل له وحده سبحانه يمنحه من يشاء من عباده مؤمنين وكفارا ويسلبه عمن يشاء منهم لحكمة منه سبحانه ولعمل قدمه هؤلاء أو أولئك وفق قاعدة الابتلاء .أما العز والذل

فقد حصر أهليهما ولا إرتباط بين العز والذل وبين الملك وسلبه . وذلك يرتبط بتقلب الليل والنهار والحي والميت بعضا من بعض .

٣ ــ إبطال كل مظاهر الشرك مهما دق وخفي وخاصة الاعتقادي منه وهو ما تمحضت له بالكلية تقريبا سورة آل عمران التي إحتوت أكثر نداءات أهل الكتاب طرا في القرآن الكريم وذلك بحكم أن تلك الطائفة أي الضالة بسبب قصور عقلي عندها ألهت مريم وإبنها عليهما السلام جزئيا أو كليا لمجرد أن حفت بهما حال الولادة ظاهرة غير عادية في ميزان الناس والعرف والعادة ولكنها عند رب العزة سبحانه ضرب من تصريف القدرة " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون " فأين الغرابة وأين العجب وأين ما يدعو لتأليه بشر لايملك لنفسه شيئا قبل أن يملك لغيره ؟ ذلك بحكم أن تلك الطائفة الضالة ستعمر في الارض طويلا وتزحم الارض في أحيان كثيرة كأكثر ماتكون الامم وستعمر الارض بما لايحصى من مظاهر التقدم العلمي النافع للبشرية جمعاء وهي تتولى فتنة الناس بإسم ذلك العلم فيتأثروا بقصورهم العقلي فيماهو من الغيب فلا ينفعهم علمهم المادي .

٤ ــ إبطال نسبة هؤلاء وكل من إدعى نسبة لابراهيم سواء من اليهود أو المشركين إلى إبراهيم عليه السلام وإثبات التوجه التوحيدي الخالص لابراهيم عليه السلام حنيفا مسلما وإثبات النسبة بينه وبين كل موحد وخاصة من أمة محمد عليه السلام

٥ ــ إثبات سنة المداولة في عقب هزيمة أحد " وتلك الايام نداولها بين الناس ".

٦ ــ إثبات حياة حقيقة للشهيد في سبيل الله سبحانه فيها الرزق ولكن على صورة لانعلم عنها نحن شيئا بحكم خروج ذلك عن دائرة تخصصات عقولنا المحكومة بالزمان والمكان وآسار آخرى والتحذير من تخويفات الشيطان الذي يصد عن حجز تذكرة في الجنة عبر الشهادة في سبيل الله سبحانه في أرقى منزل فيها أي تصحيح النظرة إلى الدنيا والحياة والموت وهي وظيفة العقيدة بالذات وبإمتياز شديد

٧ ــ التذكير بقانون الابتلاء " لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا "
٨ ــ التذكير بأن التفكر في خلق الله سبحانه وملكوته ضمن الاحالة على الكون نظرا عقليا وسيرا ماديا في الارض عبادة هي بحق مناط حسن الاعتقاد وتجدد الايمان وقوامة العبادة

٩ ــ المساواة بين الذكر والانثى من بني آدم في أصل التكليف والعبادة والاعتقاد والجزاء على أساس العمل وقاعدة التكامل بين الوظائف .

من مقاصد سورة التوحيد الكبرى " الانعام ".

١ ــ أول وأكبر مقصد هنا هو أن التوحيد ليس نظرية تعمر في العقل أو تحيي القلب دون أن يكون لها الاثر التشريعي الحياتي الحيوي اللازم وتلك هي رسالة سورة التوحيد الكبرى التي تحمل إسم الانعام التي عبث المشركون في أمر حليتها وحرمتها أكلا وفرشا بمنتهى العبث وبدون إستناد إلى أي منطق عقلي يمكن أن يشفع لهم في الوقت الذين يزعمون فيه النسبة لابراهيم عليه السلام نبي التوحيد . أكبر وأول مقصد هو أن التوحيد لا يساوي شيئا إذا لم يبسط آثاره العملية في شريعة الناس في كل صغيرة وكبيرة وذلك هو معنى الاسلام وماعدا ذلك هي علمانية لائكية كافرة أو شيئا قريبا أو بعيدا من ذلك ولكنه لا يسمى توحيدا صافيا خالصا . وثاني أكبر تلك ا لمقاصد هنا أيضا هي أن تلك الانعام التي أحل المشركون بعضا منها لذكورهم وحرموه على إناثهم رمز للشرك الاكبر وأي شرك أكبر من التمييز بين شطري الانسان أفضل مخلوقات المولى سبحانه أي أن أكبرثاني مقصد هنا بعد مقصد بسط آثار التوحيد على الحياة بأسرها هو مقصد المساواة في الانسانية بين الذكر والانثى على أساس الادمية والتكريم البشري .
٢ ــ تحرير الالوهية والربوبية والحاكمية والشفاعة والقاهرية والولاية لله سبحانه وحده وذلك هو خالص التوحيد ومصفى الاعتقاد الحق " وهو القاهر فوق عباده " تكررت مرتين في ذات السورة.

٣ ــ حسن الاستماع أي حسن الحوار والتبادل الثقافي بين الناس مناط الاستجابة وحسن الاعتقاد وحقيقة الحرية الانسانية ومادون ذلك من إستهزاء وإستعلاء وإستكبار بإسم العلم مثلا في أيامنا هذه هو محض الشرك والكفر " إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ". فالمحاور حي يرجى هدايته بين فينة وأخرى والمعرض عن الحوار ميت إنتهى أمره .
٤ ــ إثبات أمور مكتوبة لا مجال فيها للتراجع وهي الرحمة الالهية ومنها كتاب الرحمة على الرحمان سبحانه ولولا رحمته بعباده الذين خلقهم ما أرسل رسلا ولا كتبا ولا زود بعقل ولا فطر فطرة موحدة ولا زرع معالم الحق والهدى في كون ولا في تاريخ ولا في نفس ولا في سنة كونية ومنها كتاب الغلبة لا بمعناها القهري الفوقي السنني فحسب بل بمعناها العملي الذي يعيشه الناس ولكن ذلك موكول لهم بحكم قانون الابتلاء وسنة التدافع والتداول . مبنى العقيدة إذن على الرحمة والغلبة الالهيين .

٥ ــ بركة القرآن تكررت كذلك مرتين في ذات السورة والبركة بمعنييها بركة شفاء الصدور من الامراض والادواء الكفيلة بتحويل الانسان كتلا معقدة من العقد النفسية التي تدفع نحو الموت والانتحار والعنف والارهاب والقتل والحسد والاثرة والطغيان والظلم وسائر مظاهر الفجور وبركة إستقامة الحياة العملية للناس على مقتضى الفطرة البشرية السوية من جهة وعلى مقتضى السنن الكونية في سائر ا لمجالات وذلك هو الحق المبين فليس الحق المبين سوى التناسق مع الفطرة المفطورة ومع القانون السنني السائد وضد ذلك الهلاك والكفر والظلم والطغيان . ولا يجني واحد بركة القرآن سوى بجني البركتين معا ولو بأقدار متفاوتة أو ضئيلة أما جني بركة واحدة على حساب أخرى فضلا عن الكفر بها فهو محال . بركة القرآن ظهرت معجزاتها في كل مجال للناس بقدر ما تتوسع علومهم ومعارفهم فمن البيان البلاغي الساحر الخلاب إلى الاعجاز التشريعي في كل مجالات الحياة إلى الاعجاز العلمي وذلك حتى " يتبين لهم أنه الحق ".

٦ ــ حملة ضارية على الشرك دانت حملته على عقيدة التثليث في سورة آل عمران والحملة على الشرك كالعادة إحتجت بالاحالة على الكون خاصة فيما أصبح يسمى بالعلوم التجريبية ورتبت الاحالات المتكررة في هذه السورة سورة التوحيد الكبرى قيما ختمت بها كل مرة إحالتها فقالت بوضوح بأن أيات الكون موضوعة لقوم يعلمون ويفقهون ويؤمنون ويذكرون وذلك هو منهج القرآن الكريم في الاقناع بالعقيدة التوحيدية الصافية على أساس أن العقل الانساني هو المحضن والمستودع والمستأمن عليها . فالعلم إذن مناط الايمان والجهل مناط الكفر .

٧ ــ تذكير بقانون الابتلاء

٨ ــ تذكير بقانون كرامة الانسان

٩ ــ قيام الحجة الايمانية والبرهان العقدي الساطع على البلاغ المنطقي العقلي الصارم الذي يعتمد المقدمة والنتيجة أو السبب والمسبب أو الشرط والمشرط والدليل والمدلول "أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ".

١٠ ــ التوحيد الخالص الصافي معناه توحيد الحياة بأسرها إخلاصا وصفاء وشمولا لمالكها ومالك مستعمرها ودون ذلك لا يعد توحيدا بل علمانية لائكية بليدة لا تقدم ولا تؤخر " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ..." .

١١ ــ التوحيد الخالص الصافي المقبول لا يستثني الحياة من التأثير عليها فهو يحرم ويحلل ويشرع وكله توحيد " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ... وأن هذا صراطي مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ". التوحيد الخالص المقبول هو التوحيد الذي يرسم معالم ذلك الصراط المستقيم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والسلم والحرب والفرد والاسرة والجماعة والعلم والمعرفة والعمارة والقوة والتغيير ودون ذلك لا يسمى توحيد ا بل توزيعا وتفريقا وتقطيعا للاوصال البشرية وللحياة الانسانية . التوحيد الاسلامي المقبول هو الذي يجمع في آية التحريم الشاملة هذه بين رفض الشرك البدائي العربي الاول أي عبادة الصنم وتقديم القرابين له وبين الحياة الاسرية وبين الحياة الغذائية والاجتماعية ولا يستثني برنامج اللائحة العامة التي تحدد بوصلة إتجاه الانسان فردا وجماعة وذلك هو معنى الصراط المستقيم الذي تتناوشه خطوط أخرى كثيرة تخترمه وتنهشه يمنة ويسرة وذلك واضح من خلال بيان النبي عليه السلام ببنانه الكريم فوق الارض يشرح للناس ذلك ضمن رسم بياني .

١٢ ــ إثبات علة ومقصد قرآني صحيح صريح للعقيدة الاسلامية "أو من كان ميتا فأحييناه وجلعنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ". مقصد العقيدة هو إذن إعطاء الحياة الانسانية فوق الارض معنى وطعما ولونا وريحا يميزها عن الموت والموات الكريهين وهي حياة في ظل العقيدة مقصدها جني النور الهادي لصاحبه الموحد بين الناس فإن كانوا كافرين فهو وحده يملك النور النفسي والعقلي والفطري الهادي وإن كانوا مؤمنين مثله فأكثرهم صحة وإخلاصا وشمولا وكمالا في إعتقاده أكثرهم نورا يمشي به في الناس . مقصد العقيدة إكساب الانسان نورا في دجى الحياة المدلهمة بكروبها ومصائبها وإبتلاءاتها وظلماتها .

المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟

الحلقة السادسة : خلاصة مركزة

لم يبق لنا بعد جولات مطولة نسبيا في القرآن الكريم سوى الانتهاء إلى تعيين خلاصة مركزة في مقاصد العقيدة الاسلامية على ضوء المحاور السابقة وخاصة شروط التفكير العقدي السبعة ومعالم المنهج العقدي القرآني بإحالاته الخمس ومعطيات الجولات في الادلة الكلية العامة سيما القصة والكون

والانسان وأدلة جزئية أخرى كثيرة تضمنتها سور ومواضع عقدية خالصة . تم ذلك عبر الاستقراء وضمن شروط الاجتهاد المقاصدي الثلاثة وهي قانون التعليل الاستصلاحي وفقه الحرمات أو كرامة الانسان ومعالم مقاصدية من التطبيق النبوي .

بعد إجراء عمليات تجميع وتبويب وفرز وإعادة توزيع على حصيلة المقاصد الجزئية الكثيرة التي تم إستخلاصها في الحلقات السابقة فإنه يتبدى لنا بأن نحرص على فرز تلك المقاصد بعد غربلتها لتحصيل لبها إلى مقاصد وسائلية ومقاصد ضرورية .

ثلاثة مقاصد وسائلية كبرى للعقيدة الاسلامية :

١ ــ النظر العقلي على قاعدة الاسس التالية :

ــ التأسيس للحرية الانسانية عبر التشريع لنفي الاكراه مطلقا .

ــ التأسيس لقانون التعليل الاستصلاحي أي القائم على جلب المصلحة الانسانية ودرإ المفسدة

ــ التأسيس للعلم ميزانا عادلا يجلب الايمان ويطرد الكفر بسائر ضروبه وألوانه مطلقا

ــ التأسيس للحوار عبر حسن الاستماع سبيلا للرشد الفكري وطاردا للغي الكفري

٢ ــ التمكين لقانون الابتلاء على قاعدة الاسس التالية :
ــ التأسيس لسنة الزوجية أعلى ناموس كوني حاكم دليلا على وحدانية الله سبحانه وباعثا للحياة عبر الحركة ومقتضياتها من تفاضل وتدافع وإنتخاب وتداول وتنوع

ــ التأسيس لبواعث النظر الانساني في المصائر والمآلات والتقلبات في الماديات والمعقولات تحصيلا للاعتبار ومن ثم الرشد والايمان

٣ ــ ربط الحراك الاسلامي في كل عصر بمعلمين كبيرين بارزين متقابلين وهما :

ــ الظاهرة الاسرائيلية المتمردة على العقيدة الاسلامية والمحكومة دوما بعقدة الثأر التاريخي بسبب تحول مقود الشهادة على الناس منها .

ــ التنبيه إلى خطر تلك الظاهرة في مستويين إثنين وهما : إنتاج المؤسسة الفرعونية الضالعة في إنتهاك كرامة الانسان عبر الطغيان السياسي الفج والمتعززة دوما بالاجندة الهامانية والقارونية والاعلامية التي يشكلها الشعراء المتملقون والسحرة . وتسلق سفوح الذل المهين عبر الالتواء والكذب والنفاق وإشاعة السوء وتحويل النفس إلى أرذل بضاعة وأبخس سوق .

ــ الظاهرة الابراهيمية رمزا لاخلاص التوحيد والقوة فيه والصبر على تكاليفه وبلوغ أقصى درجات الطاعة والانقياد والاسلام .

ــ التنبيه إلى أن الظاهرة الابراهيمية تمتد عبر أمة محمد عليه السلام وإلى أنها براء من النسبة الزائفة لاهل الكتاب إليها مهما كثرت الدعاوي وحشدت الاكاذيب .

ــ التنبيه إلى أن محور الخصومة دوما بين الظاهرتين الممتدتين أبدا على مدى الزمان هو التوحيد بكل حرية لا إكراه فيها وبكل خلوص لا شرك فيه أو الشغب على ذلك التوحيد سواء بإسم التثليث أو بإسم العلمانية واللائكية أو بإسم الطغيان السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي .

ثلاثة مقاصد عقدية ضرورية كلية عليا :

١ ــ معرفة الله سبحانه بكل أسمائه وصفاته التي ذكرها سبحانه في كتابه أو جاء بها نبيه محمد

عليه السلام إذ أن معرفته سبحانه على الوجه الذي أخبر به هو عن نفسه بطريق الغيب الصحيح مؤذن بحسن معرفة الانسان لنفسه ومعرفته لمحيطه المشهود من حوله ومعرفته لسائر ما يحتاج إليه من علوم ووسائل لحسن إدارة حياته على أساس العدل والقسط مع ربه ومع نفسه ومع محيطه.

٢ ــ معرفة الانسان لنفسه على قاعدة أنه عبد مملوك حر مكرم مستأمن مستخلف مستعمر معلم

مسخر له كل شئ مسؤول مبتلى وذلك لخدمة الاهداف التالية :

ـــ هو مخلوق للعبادة والعمارة والخلافة ضمن خطة عملية حددها القرآن الكريم

ـــ هو مكون من ذكر وأنثى محكومين بالمساواة التامة الكاملة المطلقة في المصدر والمنشإ والتكون والرسالة والمصير لا فضل لاحدهما على الاخر إلا بالتقوى أو بحسن خدمة الوظيفة الفرعية التي من أجلها وجد ضمن قانون الاشتراك والتميز بينهما .

ـــ هو مكلف بتربية نفسه وتزكية روحه تأهلا للطاعة عن حرية إرادة لا إكراه فيها البتة

ـــ هو مكرم أبدا مهما كان دينه ولونه وسائر متغيراته الطوعية والكرهية عن غيره تكريما لنفخة خالقه فيه وسجود الملائكة له إلا أن يتورط في ظلم غيره

ـــ هو مكلف بإنشاء أمة إسلامية متميزة عما سبقها من أهل الكتاب المغضوب عليهم والضالين بمقومات هي : تحرير الولاء المطلق للاسلام وبناء أسس الوحدة والحرية والقوة والقسط والسلم .

ـــ بناء موقف من الدنيا يقوم على ميزان وسط لا يركلها ولا يؤلهها بل يجعل منها وسيلة لرغد العيش وطلب رضى ولي نعمته سبحانه .

٣ ـــ جعل حقل العقيدة ممتدا على الحياة بأسرها حاكمة مهيمنة لا يند عنها سلطان جار أو عدل

ولا بيت صوف أو صرح ممرد من قوارير فلا عقيدة بلا شريعة ولا شريعة بلا عقيدة وهوما تمحض له أكبر محور في القرآن الكريم محور القصة وإعتبار أن القرآن الكريم هو الناطق الرسمي بإسم تلك العقيدة المهيمنة على الشريعة والحياة بأسرها وهو بذلك مبارك ودون ذلك لا بركة له على الحياة .

خلاصة الخلاصة في تعيين المقصد الاسنى للعقيدة الاسلامية :

لا يعدم ناظر في المقاصد آنفة الذكر سواء كانت وسائلية أو ضرورية بأن محورها القطبي هو الانسان أفضل وأكرم من خلق الرحمان سبحانه فالمقاصد الوسائلية محورها الانسان على معنى أن العقل الناظر في الكون وفي التاريخ وفي نفسه وفي عالم السنن هو عقل الانسان والعقل القائم على الميزان الوسط العادل المقسط هو عقل الانسان والنفس الابية التي تعد الاكراه كفرا والحرية إيمانا ورفض الحوار شركا

وحسن الاستماع إحسانا هي نفس الانسان والكون القائم على قانون التعليل الاستصلاحي هو لارشاد الانسان إلى مصالحه ومفاسده وإلى منهج بناء حياته على ذلك المنوال والابتلاء مقصده الانسان تأهيلا وإختبارا وتحسينا وإصلاحا وتقويما وتوبة ومراجعة وتعديلا وتقليبا للنظر والتنبيه إلى الظاهرتين الاسرائيلية والابراهيمية من أجل الانسان نفيا لافة التقليد عنه ودفعا له لمحاربة الطغيان الفرعوني دوما جريا وراء حريته مناط مسؤوليته على حياته ومن أجل الاعتبار بالمآل الابراهيمي وتصحيح الموقف من الدنيا والموت .

المقاصد الوسائلية إذن كلها تتمحور حول الانسان لاصلاح أمره بعقله هو وليس بقوة خارجة عن نطاقه ولو كانت غيبا فضلا عن شهادة .

أما لو نظرنا في المقاصد الضرورية آنفة الذكر فإنه من باب أولى وأحرى التسليم بأن محورها القطبي هو الانسان إستصلاحا وطلبا لمنفعته من خلاله هو عقلا ونفسا وفطرة وليس من خلال قوة أخرى فيها حبة خردل أو أقل من ذلك من إكراه . معرفة الله سبحانه لا مقصد لها سوى مصلحة الانسان فهل رأيت آلة أو صنعة في هذه الدنيا لا تحمل فوقها إسم صاحبها أو علامتها التجارية المميزة أو إحتفاظ صانعها بحق الاختراع والاشتراك أم أن الله وحده سبحانه وهو أحسن الخالقين يصنع الصنعة ثم يضيعها أو يدعها نهبا لكل دعي سارق أو مغتصب جائر . هل يجني ربك سبحانه نفعا أو مصلحة لو عرفه الانسان وهل يصيبه ضر لو جهله ؟ قطعا لا . هل أن عملية تعريف الله بنفسه نافعة وصالحة فهي معللة ومقصدة ؟ إن قلت نعم ثم قلت بأنه لا تصيبه من ذلك منفعة ولا مضرة فإن الانسان هو المنتفع الوحيد وإن قلت لا فإن الله سبحانه عابث من وراء خلقه وتعالى عن ذلك سبحانه . حدد موضعك الان . الانسان هو ذاته صاحب المنفعة من وراء مقصد معرفة نفسه فمن يعرف نفسه يعرف دربه وحياته وصديقه وعدوه ومصلحته ومفسدته ويعرف مآله ومن جهل نفسه أفسدها ولا ريب إلا أن يدعي إنسان أنه يعرف نفسه دون حاجة لا لعقل ولا لغيب وهل رأيت مملوكا مهما بلغ من الحرية يعرف نفسه معرفة صانعه ومالكه له أو أكثر وهل يسمح إنسان عاقل يحترم عقله ونفسه لدابة يملكها أن تقول بأنها تعرف نفسها بمثل ما يعرفها هو أو أكثر وإذا صدق هو ذلك فمن المالك ومن المملوك . حدد موضعك الان . والانسان هو ذاته صاحب المنفعة حين تهيمن العقيدة التي إختارها هو عن محض إرادة ومطلق حرية دون حبة خردل أو أدنى من ذلك من إكراه على سائر جوانب حياته وذلك لسبب واحد هو ألا يفرط في جزء من حياته وحريته وإرادته لمغتصب يغتصبه إلا تعاونا على الخيروهل يسمح إنسان عاقل يحترم عقله ونفسه لغيره بأن يشاركه في ملكه راضيا مرضيا بالغصب أو الاكراه أو الاحتيال ؟

فبالخلاصة إذن فإن كل المقاصد العقدية وسائلية كانت أم ضرورية كلية عليا محورها القطبي الانسان أفضل وأكرم صنائع الرحمان .

الانسان هو مستودع العقيدة الاسلامية ومحضنها والمستأمن عليها يختارها بحرية من رحم محيطه الكوني عبر منافذ حسه ومن رحم تاريخه الغابر الطويل بعقله من أجل إصلاح نفسه بها وإصلاح حياته على أساسها .

الانسان هو الوصي على العقيدة الاسلامية حسن فهم وحسن تنزيل يحيا لها وبها ويبذل روحه الغالية رخيصة في سبيلها على قاعدة أن العقيدة الاسلامية هي المؤسسة لقيمة الحرية الانسانية.

لكل ذلك إذن لا يسعنا سوى أن نقرر بوضوح وجلاء وإطمئنان كبير جدا بأن :

المقصد الاسنى للعقيدة الاسلامية هو الانسان تحريرا وتكريما
المحور السابع : ماهي مقاصد العقيدة ؟
الحلقة السابعة : قراءة في أركان الايمان

ماجدوى تلك القراءة وماهي وظيفتها ووسيلتها سيما بعد الفراغ من تعيين المقصد الاسنى للعقيدة الاسلامية " الانسان تحريرا وتكريما " وهو ما إنبثق عن ثلاثة مقاصد ضرورية " معرفة الله سبحانه ومعرفة الانسان ومعرفة حقل عمل العقيدة " وعن ثلاثة مقاصد وسائلية " النظر العقلي وقانون الابتلاء والظاهرتان الاسرائيلية والابراهيمية "؟.

سؤال وجيه جدا يجعلنا نمضي قدما نحو محاولة في قراءة أركان الايمان على قاعدة أن سائر ما تناولناه في ما سبق من البحث إنما يتلمس آثار تلك الاركان ومدلولاتها ومعانيها ومقتضياتها الخاصة والعامة بحسب ما هي مبثوثة في القرآن الكريم ضمن أدلة جزئية أو كلية ولكن لم نقدم على قراءة في تلك الاركان تحديدا وذلك لامرين مهمين جدا أولهما لان تلك الاركان لم يتناولها القرآن الكريم ولا السنة النبوية الشريفة إلا قليلا جدا وبشكل لا يتوازى من قريب ولا من بعيد مع الطريقة التي تناول بها آثارها ومنهج

كسبها وتبيان مقاصدها ومعانيها وأسرارها وحكمها فالقرآن كتاب العقيدة بإمتياز شديد لم يقدم على تعريف العقيدة ولو مرة واحدة قط وبذات القطع لم يتناول سرد أركانها الخمسة سوى بعدد لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة ضمن لفيف ضم بين جنبيه آلافا مؤلفة من الايات الكريمة وحتى في مستوى سرد الركنين الاكثر تداولا أي الايمان بالله وبرسوله أحيانا وباليوم الاخر أحيانا أخرى لم يكن ثمة أدنى توازن بين ذلك وبين أساليب الاقناع والدعوة الاخرى كما بينا آنفا وخاصة محاور القصة والكون والانسان ـ وفيه هو يرد الايمان بالقضاء والقدر غالبا ـ . القرآن الكريم إذن لم يحفل بسرد الاركان بذات القدر الذي حفل فيه بعرض محاضن تلك الاركان ومستنداتها وحججها وبراهينها ومعاركها وتاريخها ومقاصدها وذلك هو السبب الاول الذي يجعلنا نخصص هذه الحلقة لمحاولة قراءة في تلك الاركان أما السبب الثاني فهو لان تلك الاركان رغم أهميتها القصوى وأن الايمان والكفر هي فيصلهما المبين إعتقادا في القلب ونطقا باللسان وعملا بالجوارح فإن قراءتها بمعزل عن معانيها وحقول عملها وتأثيراتها في الحياة البشرية مؤذن بضرب من الشرك مناقض للتوحيد ليس بعيدا عن الشرك القديم التقليدي ولا بمنأى عن الشرك المعاصر بسائر ألوانه وخاصة ذلك الذي يفصل الايمان عن حقل عمله والعقيدة عن مرعاها الخصب ويقطع أوصال الانسان ـ ذلك الكائن الكلي الذي يتأبي عن التجزئة ـ إربا إربا فتتقطع دروب رسالته ويتيه بين السبل ولا يصلح أن يكون رجلا سلما لرجل .

هي قراءة في أركان الايمان الستة الواردة بالنص في الحديث النبوي المقطوع بصحته لا تملك سوى التأطر ضمن ما توصلنا إليه من تعيين المقصد الاسنى من العقيدة الاسلامية بفروعها الضرورية والوسائلية وهي قراءة تحاول جمع شتات أركان طالما كان الفصل بينها وبين إمتداداتها في حياة الناس بكل شعابها ودروبها ومسالكها مفسدا ومضرا .

ماهو المقصد من الايمان بالله سبحانه ؟

الايمان بالله سبحانه واحدا أحدا وفق ما عرفنا هو عن نفسه تعالى يحمي الانسان من نفسه أعدى أعدائه إذ بذكر الانسان النزاع إلى السوء والظلم لربه سبحانه وبمرجعه إليه يوما تهجع فيه داعيات ذلك السوء كما يحمي الايمان بالله سبحانه الانسان من كل الطواغيبت التي تريد به شرا وأدا لحريته وإستعبادا لارادته خارج نطاق هواه ولهيب نفسه وذلك يزود الانسان المظلوم أو المطلوب منه الرضى بالظلم بقوة روحية معنوية هائلة كفيلة بتحريره من تلك الطواغيت المتربصة به وهو ما يجلب له حريته وكرامته حتى لومات شهيدا دون خرقة قماش هي كل ماله أن تنهب فضلا عن عرض يغتصب . الايمان

بالله سبحانه يجعل الانسان متوحدا ضمن نفسه وبسائر ملكاته وقواه ومداركه ومكوناته في إتجاه هدف واحد ورسالة واحدة يصح أن يكون لها فروع كثيرة لا تحصى ولكن وجهتها العامة معروفة محددة مسطرة لا تخفى وهل يخفى القمر ؟ هي رسالة واحدة محددة معلومة حتى في أشد حالات ضعفه بل حتى لو تراجع في سيره فهو يتراجع في الاتجاه المعاكس ولكن على درب ذات الرسالة إذ الخطير على الانسان هو أن يبدل رسالة برسالة وهدفا بهدف ومنهجا بمنهج . الايمان بالله سبحانه يمنح الانسان أملا وثقة ويقينا وراحة بال وطمأنينة تلازمه في كل حاله مهما بلغ به الضيق وتكالبت عليه الاعداء في البدن والمال والكرامة وهو بذلك يحفظ رأسماله بعد خسارة الارباح ولو فقد رأسماله كان بما توفر له من أمل ويقين وثقة وطمأنينة مؤهلا لاعادة إنتاجه . الايمان بالله سبحانه يحفظ الوجود الضروري للانسان في أعسر حالات العسر والضيق وبعد ذهاب كل شئ وضياع كل شئ . الايمان بالله سبحانه يلبي فطرة حنين الفرع إلى أصله ومنشئه دوما وفي كل حال .

ماهو المقصد من الايمان بالملائكة ؟

للملائكة وظائف حدد بعضها القرآن الكريم والايمان بها يوفر للانسان شعورا بالغيب يرقى بعقله ويجعله في توازن أو غلبة لهواه الذي لا يرضى سوى باللذة الحسية المباشرة العاجلة فالعقل جعل لادراك المعقولات والغيبيات معقولات لانها لا تعتمد التلقين بل تسنده بالحجة والبرهان أي تخاطب العقل وكل ذلك كفيل بترقية عقل الانسان عن درك الايمان بالمحسوس فحسب دون لذة الايمان بالغيب فالعقل وهو غيب نشعر به ولا نراه ونلمسه يلتذ بالتفكر في الغيب مادته وهو بذلك ضد العجماوات وتلك كرامة الانسان فالايمان بالغيب مطلقا هو تكريم لعقل الانسان وتحرير لذلك العقل من درك العجماوات التي لا تبحث سوى عن اللذة المباشرة العاجلة المحسوسة . الايمان بالملائكة فيه أنس للناس بكائنات حية نورانية تصاحبهم ولا يرونها ولكن يجدون بردها وأثرها وهو شعور من شأنه تزكية النفس ليس خوفا من الملائكة ولكن خوفا من رب الملائكة وحبا فيه لانه آنس وحشتهم بالملائكة التي من وظائفها التي ذكرها القرأن الكريم حفظ الانسان بأمر الله سبحانه . الايمان بالملائكة كفيل بإنشاء الحب بين الانسان وبين الكون وما فيه من كائنات أنزلها رب العزة سبحانه لحفظ الانسان ولجلب نصره بيده هو كما وقع في بدر وفي وقائع أخرى وذلك قمين بإنشاء عاطفة الحب بين الانسان وبين كونه وهو كفيل بجعل الانسان في تناسق مع مفردات كونه ومكونات محيطه المشهود والمغيب . الايمان بالملائكة ينشئ في النفس الوجل والرهبة من الله سبحانه الذي تعددت طرائق خلقه وبدائع صنعه من ملائكة إلى شياطين ومن جمادات إلى أرواح ومن غيب إلى شهادة وذلك كفيل بجعل

العقل يفكر ويشعر بقدرة ولي النعمة سبحانه وعظمته وكل ذلك قمين بتوليد عقيدة الرجاء والخوف من الله سبحانه لتعمير القلب وإصلاح النفس وتزكيتها والاستقامة على الطريق المستقيم .

ماهو المقصد من الايمان بالكتب ؟

الايمان بالكتب ينشئ في النفس الشعور بالتوثيق والكتابة والقيد والجد لكل أمر مكتوب موثق مشهود عليه يحمل دليله بين جنبيه فليس الايمان كلمة تقال دون كتاب موثق مختوم بل هو معزز بكتاب مقروء معلوم معروف تقرأه العقول وتطمئن إليه النفوس وتدخل معه في حوار ثم تؤمن به وتعمل بما يوافقه . الايمان بالكتب يمنح الناس دستورا مكتوبا يوجه حياتهم تماما كما يفعل كل الناس حين يلتقون ليكونوا نظاما ما فإنهم يحتاجون لكتاب يحكم فيهم وبينهم وهو مرجعهم وموئلهم . الايمان بالكتب ـ وليس بكتاب واحد ـ ينشئ في النفس ثقة بأن صاحب الكتاب الاول هو صاحب الكتاب الاخير فالكتب لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضا ويبشر بعضها ببعض وهذا يدل على أن المشكاة واحدة وإن إختلفت أحجام الاهتمامات بالشرائع فإن العقيدة واحدة كشجرة لها جذر واحد دوما ولكن تتعدد جذوعها وأغصانها وأورواقها وثمارها وظلالها . الايمان بالكتب يضفي على النفس ثقة في إيمانها لانها أمام عقيدة مكتوبة مفهومة معينة إما أن تؤمن بها على بينة وإما أن تكفر بها على بينة كذلك وليس لاحد أن يزيد أو ينقص من تلك العقائد المكتوبة حرفا واحدا فهي دوما حجة على من وما سواها ولو لم تكن كتبا لكانت إدعاءات باطلة سرعان ما يظهر زيفها . الايمان بالكتب معناه أن الامور الكبيرة لابد لها من الكتابة والتوثيق والاشهاد والادلة والحجج والبراهين وإلا ضاعت .

ماهو المقصد من الايمان بالرسل ؟

الايمان بالرسل معناه شبيه جدا بمعاني الايمان بالكتب لان الرسل بشر متحرك وهو أقوى دليلا على ما يقول من الكتب فكيف إذا كان معززا بالكتب . الايمان بالرسل معناه أن الله سبحانه أكرم الانسان جنسا بأن كلفه هو ذاته بهداية نفسه ولا يستقيم الحال لو أرسل ملكا لا يرى أو يرى ثم يغيب أو لا يأكل الطعام ولا يمشي في الاسواق ولا يموت ولا تجري عليه السنن الالهية في الكون والاجتماع لان ذلك معناه أن العقائد مجالها السماء أما الارض فتسطر حياتها بنفسها . الايمان بالرسل معناه أن العقيدة تعترف بواقعية الانسان الذي ينسى ويغضب ويضعف ويقوى وتسري عليه كل ما يسري على الكائنات الحية فوق الارض والعبرة بالمحصلة النهائية وبميزان القلب والنية . الايمان بالرسل معناه أن العقيدة

بحاجة إلى قدوة ونموذج من دينا الناس لا من دنيا خارج دنياهم . قدوة تتعامل مع الناس بمطالب العقيدة فوق الارض من مكان قريب وليس بعيد وذلك أبلغ في النفوس . الايمان بالرسل معناه أن المشكاة واحدة لان كل رسول يصدق من سبقه ويبشر بمن يليه ويحمل ذات الرسالة الابدية الخالدة وهي عبادة ولي النعمة شكرانا . الايمان بالرسل معناه حل التفصيلات الجزئية الصغيرة الناجمة عن التطبيق في سائر مراحله وخطواته فالرسول بناء يضع خطة المهندس النظرية فوق الارض ليسكن الناس ويقون أنفسهم الحر والقر أو هو صيدلاني يعرف قراءة وصفة الطبيب على أحسن وجه ويعطي ما يناسبها من دواء . الايمان بالرسل توثيق مادي تطبيقي عملي لكلمة الله سبحانه عليمدى عقود طويلة .

ماهو المقصد من الايمان باليوم الاخر ؟

الايمان باليوم الاخر معناه تقرير العدل الالهي الذي لا يحابي أحدا ولا يظلم أحدا ويبني في النفوس عقلية إقامة القسط في الامور والاشياء وبين الناس جميعا كما يبني فيها قانونا ضروريا لاقامة القسط وهو قانون الجزاء من جنس العمل كبيرا وصغيرا ومتعديا ولازما . الايمان باليوم الاخر معناه إلتزام الانسان بالعدل والقسط مع نفسه ومع خالقه ومع سائر مكونات محيطه وخاصة الانسان المكرم لانه يشعر دوما بأنه بعد موته مبعوث لا محالة ومحاسب لا محالة على عشر معشار الذرة من خير وشر . الايمان باليوم الاخر معناه ترقية العقل إلى حدود تخطي المادة الملموسة عبر القياس على نشأته الاولى وعبر القياس على بلايين مبلينة من الاحداث والظواهر في عالم المادة وعالم الارواح التي تحدث في حياته وكل قياس صحيح على تلك الاشياء والامور والاحداث من نشأته حتى آخر أمر يجد في حياته يؤدي بالضرورة إلى الايمان باليوم الاخر وهذا ينشئ في الانسان الخوف من الحساب والعقاب والعذاب والقصاص وعاقبة الظلم فينزجر . الايمان باليوم الاخر معناه تحضر العقل عبر آلة القياس المادي والمعنوي وتلافي سقوطه إلى جانب الهوي في درك الضنك والاقتصار على الايمان بالمادة دون سواها . الايمان باليوم الاخر ينشئ في النفس حب الخير والايثار والعمل الصالح وتشييد مملكة الاخرة ودار الحيوان من باب طلب المنفعة الشخصية في الاخرة عبر المنفعة العامة في الدنيا وهو ما يجعل الانسان يعيش لغيره في الدنيا ليعيش لنفسه في الاخرة وذلك كفيل بجعله قواما بالقسط والحق والعدل لا يخشى في الله لومة لائم قوالا للحق نصارا للمظلوم دون رهبة للموت الذي يرتفع به إلى أعلى درجات الشهادة وأعلى درجات الجنة وتأمين للمستقبل الابدي السرمدي في جنة لا توصف لذاتها الحسية ومكارمها المعنوية . الايمان باليوم الاخر يجعل الانسان يحيا إنسانا ويموت إنسانا رفيعا عن الدواب والعجماوات

يسعى لاحداث التوازن بين جسمه وروحه فإن غلبه ذلك قدم روحه وصبر قليلا جدا ـ أياما معدودات ـ على ذلك وهو على يقين من أن كل ذلك لمصلحته هو ومنفعته هو.

الايمان باليوم الاخر خير ضامن لجعل الانسان عمارا للدنيا نصارا للمظلوم بتارا للظالم يهابه كل ظالم مهما كان هو أعزل وكان الظالم مدججا بالسلاح لان المؤمن باليوم الاخر تحرر من طاغوت الخوف وطاغوت الطمع فباع نفسه لربه في صفقة تجارية رابحة جدا فهو أحرص على الموت من الحياة لان الموت عنده حياة وأي حياة بينما يهابه الظالم لان الحياة عنده فرصة وحيدة فريدة للتخمة من اللذات ولو على حساب الناس وحرياتهم وكراماتهم فإن فاتت تلك الفرصة بأن أفسدها عليه مؤمن باليوم الاخر فقد فاته كل شئ وظنه صحيح فقد فاته كل شئ . الايمان باليوم الاخر يمنح النفس طمأنينة وراحة وسكينة ووقارا لا جزع فيه ولا هلع بعده لانه يعتقد أن الموت مآلا محتوما لكل حي إلا الحي القيوم سبحانه وأن الدنيا مهما طالت فالفارق فيها بين الحي والميت ليس كبيرا جدا ولا يستحق حياة ذل وعيشة مهانة حتى في حالة ما إذا كان الحريص عليها يعيش لنفسه فمابالك لو كان يعيش هو بذلة ومهانة ليتكرم غيره فيا حسرة من باع آخرته لا بدنياه بل بدنيا غيره .

ما هو المقصد من الايمان بالقضاء والقدر ؟

الايمان بالقضاء والقدر معناه الايمان بالانسان كائنا مملوكا حرا عاقلا مكلفا مسؤولا معلما مستأمنا مستخلفا مستعمرا مبتلى مكرما أبدا . القضاء هو ما كتبه ربك سبحانه في اللوح المحفوظ مما هو كائن في الكون بكل ضروب الكينونة ما علمنا منها وما جهلنا وهو غيب محض لا يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بوحي يوحى والقدر هو ذات ذلك القضاء إذا نزل وأصبح واقعا يلمسه الناس . القضاء غيب والقدر شهادة والمؤمن هو من يجمع بين الغيب والشهادة الكفيلين بأحداث التوزان المطلوب بين عقل يهفو ويتشوف دوما إلى الغيب والمعقولات وبين بدن يسيرفي الاتجاه المعاكس لذلك دوما . الايمان بالقضاء القدر معناه الايمان بمنزلة الانسان بين القضاء وبين القدر . الانسان كائن حر مملوك وحريته معناها مسؤوليته على سائر تصرفاته الفكرية والعملية وهو تكريم له وأي تكريم ولذلك هو مبتلى . الايمان بالقضاء والقدر معناه الايمان بمسؤولية الانسان فلا هو ريشة في مهب الريح ليس له لاحرية ولاإرادة ولا مسؤولية إن أريد به الكفر كفر وإن أريد به الايمان آمن وإن إريد له الاستعباد إستعبد وإن أريد به التحرر تحرر ولا هو إله في الارض يفعل ما يشاء دون رقيب ولا حسيب لا راد لقضائه يقول

للشئ كن فيكون . هو في منزلة وسطى : هو عبد بدل أن يكون سيدا للكون الذي لم يخلقه ولم يهبه الحياة والوجود والحركة حتى يكون له سيدا وهو مع ذلك حر في إختيار حياته أي توجيهها الوجهة التي يريد هو دون تدخل من أحد فحتى خالقه يهديه النجدين والسبيلين ثم يدعه يختار بحرية ولكن يعلمه بأنه مسؤول على حريته تلك وإختياره ذلك . الانسان عبد لمعبود ومصنوع لصانع ومخلوق لخالق ومملوك لمالك ولكنه في المقابل عبد حر ومصنوع مسؤول ومخلوق مريد ومملوك عاقل وذلك بخلاف المصنوعات والمملوكات الاخرى من جماد أو من نبات أومن حيوان . الايمان بالقضاء والقدر معناه أن الانسان في الكون سنة ضمن شبكة السنن وسبب ضمن شبكة الاسباب وهو قدر إلهي ماض مطرد ليس هو حقلا خصبا للسنن والاسباب تفعل فيه ما تشاء دون حراك منه كأنه جثة هامدة بل هو عضو في تلك الشبكة الواسعة الممتدة بل هو قدر ألهي ماض مطرد يهدي به الله سبحانه من يشاء ويضل به من يشاء ويحيي به من يشاء ويميت به من يشاء ويفعل به ربه سبحانه ما يشاء ولكن كل ذلك يتم بحريته وهو وإرادته هو ولا يتم ذلك سوى بعلم الله سبحانه وتحت لواء تصريفه لسننه وأسبابه وأقداره وهو دوما سبحانه لا يرضى لعباده الكفر والظلم ولكن يرضى لهم دوما الايمان والعدل . الايمان بالقضاء والقدر معناه أن الانسان لا يعلم ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ من مثل عمره ورزقه وغير ذلك ولكنه في المقابل يسعى ليكون عمره طويلا وعمله صالحا ورزقه وافرا والامران لا يتعارضان لانه يجهل القضاء فإذا ما حط القضاء بالارض فأصبح قدرا ملموسا فإن المؤمن يرضى به لانه يؤمن بأنه ذلك هو الخير له كلما سعى ليطيل عمره ويكثر رزقه مع جهله بحقيقة ذلك قبل تنزله . الايمان بالقضاء والقدر معناه إنسكاب الرضى والطمأنينة والسكينة في النفس البشرية لانها تؤمن بأن الله سبحانه لم يخلقها إلا ليرحمها ولو بالموت والمرض وضيق الرزق وقلة الولد ولانها تؤمن بأن ما حرمت منه في الدنيا تجده غدا يوم القيامة بأوفر ما لم تكن تتصور . الايمان بالقضاء والقدر معناه أن الانسان هو بمثابة دابة مملوكة لفلاح لا تعلم متى يذبحها ويأكل لحمها أو يبيعها ولكن ذلك لا يجعلها غير سعيدة بما يوفره لها من مرعى وحفظ ورعاية ولله المثل الاعلى سبحانه وللانسان أكرم وأفضل خليقة . أفضل ما قيل في القضاء والقدر ما قاله عليه السلام في شأن الدواء الدافع للمرض " هي من قدر الله سبحانه " فالمرض قدر والدواء قدر كذلك والانسان قدر بينهما يدفع قدر المرض الذي لا يرضاه لنفسه ولا يرضاه له ربه بقدر أحب إلى نفسه وإلى ربه منه وهو قدر الاستشفاء بالدواء والانسان وهو يدفع عن نفسه قدر المرض بقدر الدواء يعلم يقينا أن الدواء لئن إنجاه من الموت اليوم فإنه غير مغن عنه غدا شيئا فهو يدفع المرض بالدواء مطمئنا غير لاهث لهث الكلب . وقس على المرض والدواء كل شئ في هذه الدنيا . الايمان بالقضاء والقدر معناه أن تسعى في الدنيا عمارة كأنك تعيش لها وللذائذها دوما لا تموت رمزا لكثرة العمل وحسن السعي والاخلاص فيهما

والهناء لحظة الاستمتاع بتلك اللذائذ وأن تسعى في طلب الاخرة بالعمل الصالح لحظة السعي لعمارة الدنيا كأنك تموت بعد لحظة واحدة رمزا لتعلق القلب بالله سبحانه وإخراج حق الفقراء والمساكين والضعفة . الايمان بالقضاء والقدر معناه الايمان بمنزلة الانسان وسائر صفاته ومكارمه ومحاسنه ووظائفه التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وذلك تحت سقف قضاء غيبي لا نعلم عنه شيئا ولكن نطمئن إليه وندفع ما نخاف منه بما أوتينا من أقدار أحب إلينا من ذلك وفوق سطح ممرد بالرضى والطمأنينة والسكينة والصبر يوم وقوع الكريهة . لو آمن الانسان بالقضاء فحسب دون قدر لقعد وتمنى على الله الاماني فكان القضاء الرباني المحتوم الذي جهله قبل قعوده وعلمه بعده هو جزاء ا لتواكل أي الموت جوعا وبؤسا ولو آمن الانسان بالقدر فحسب دون قضاء لعد نفسه إلها في الارض فظل يحرث فيها بالظلم والتكبر حتى إذا أخذه ربه أخذ عزيز مقتدر فلم يفلته قضاؤه الذي كفر به آمن بالقضاء ولكن لات حين مناص . فالمؤمن يجمع بين الايمان بالقضاء وبين الايمان بالقدر على أساس أنه خلقه خالقه ليكون سنة وسببا وقدر إلهيا ماضيا يعمر به الارض هنا ويخربها به هناك وفي الحالين هو مسؤول عن العمارة والخراب ومجزي بهما . الايمان بالقضاء والقدر مبحث عقدي كفيل بإعادة الاعتبار للانسان بعدما سحقته النظريات الكلامية اليونانية والعربية القديمة فورثت الاولى لنا اليوم إنسانا ميتا قبل ان يولد ويحيا وورثت لنا الاخرى إنسانا ريشة في مهب الريح لا يملك من أمره شيئا أمام شيخه وأمام حاكمه يموت قبل أن يموت ألف مرة ومرة إذا مرض فالمرض قضاء لا قدر يرده وإذا ظلم فالظلم خير له وقدر مقدور لا يرده قدر وإذا إحتل وطنه فالمحتل ناشر للحرية مضت به إرادة الله سبحانه ومن مضت به إرادة الله سبحانه لا يرده قضاء مقضي ولا قدر مقدور .

الايمان بالقضاء والقدر على النحو المكرم للانسان في منزلة وسطى بين السماء والارض لا إلها فوق الارض يكون للشئ كن فيكون ولا ريشة في مهب رياح المشايخ والحكام ... كفيل بسكب عقيدة في النفوس تجعل من الانسان حرا مسؤولا عاملا عمارا لا يهاب الموت بل يهابه الموت .

تلك هي بعض معاني الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقضاء والقدر فيما رأيت والله ورسوله أعلم .

تلك هي بعض المعاني بإقتضاب شديد لعلها تؤيد ما توصلنا إليه قبل قليل من كون العقيدة لها مقصد أسنى هو الانسان تحريرا وتكريما فمحور أركان الايمان الستة هو كذلك محور الانسان فالايمان بالله من أجل الانسان ليسعد ويطمئن ويتوحد في حياته ورسالته والايمان بالملائكة من أجل الانسان أنسا

وحفظا وتدبرا في عظمة الخالق وقدرته سبحانه والايمان بالكتب والرسل من أجل الانسان دوما كذلك لترقية عقله وتأسيس حياته على الكتابة والتوثيق والدليل والحجة والبرهان ومثل ا لواقعية والقدوة والحوار والايمان باليوم الاخر من أجل الانسان ليقيم العدل والقسط في نفسه ومع ربه ومع محيطه ومع الضعفاء واليتامى ويخشى عاقبة الظلم فينزجر ويستخدم بعقله القياس المنطقي العقلي الصارم فيهتدي في حياته وفي رسالته عامة والايمان بالقضاء والقدر من أجل تحرير الانسان وتكريمه حتيمن نفسه أعدى أعدائه وهي بين جنبيه فضلا عن تحريره من طواغيب الخوف والطمع ومن أجل جعله مسؤولا عاملا حرا مريدا .

أركان الايمان الستة مقصدها الاسنى إذن هي الاخرى تحرير الانسان وتكريمه عقلا ونفسا وإرادة وعاطفة كلما كانت مبنية على المعقولية رغم أصلها الغيبي وعلى التزكية والتربية والتهذيب والتناسق مع النظام الكوني العام العابد المسبح . الانسان يحتاج في عقله منطقا وفي نفسه قوة وزكاة وصدقا وإخلاصا وفي عاطفته ترغيبا وترهيبا وفي ذوقه تهذيبا وفي بدنه عافية ويحتاج أملا يداوي به جراحات اليأس وعملا يشفي به عاديات الحاجة ويحتاج طمأنينة وسكينة ورضى يطامن من غلواء نفسه الامارة بالسوء التي لا يشبعها شئ ولا يرويها شئ ... الانسان يحتاج كل ذلك والعقيدة الاسلامية بأركانها الستة تمنحه كل ذلك وأكثر منه .

تلك هي آخر الكلمات التي يمكن أن تساق في نهاية تعيين المقصد الاسنى للعقيدة الاسلامية بعد إستقراءات مطولة في حقولها وأركانها وهي إستقراءات متناسقة مع مقدماتها وخاصة مخ هذا البحث أي معالم المنهج العقدي القرآني . ولم يبق لنا سوى أن نختم هذا البحث في حلقة موالية وأخيرة بإذنه سبحانه ببعض ما يناسب ذلك الختام .

خاتمة لمبحث مقاصد العقيدة الاسلامية

لابد لي من طرح بعض الاسئلة على نفسي وعلى القارئ الكريم في ختام ذلك البحث :

ــ شفاء الايمان بالغيب لاسئلة الوجود الحائر ؟

ــ أيهما أسبق وأولى : التحرير أم التعبيد وما هي حاجة الانسان إلى الحرية وإلى العبودية ومم يتحرر الانسان ؟

ــ أمثلة قصيرة صغيرة مرتجلة في منهج المقارنة

ــ حوصلة عامة مركزة لخلاصات رسالة البحث في مقاصد العقيدة الاسلامية

ــ نحو منهج فكري إسلامي عقدي أصولي مقاصدي ثابت متجدد

لا أريد لهذه الخاتمة أن تتحول إلى محور مستقل بذاته ولكن يمكن دمج كل الاسئلة الانفة ضمن الكلمة الاخيرة لكل بحث .

يظل الوجود الانساني حائرا تائها مشدوها بقدر الزهد في صيدلية الغيب :

يكذب عن نفسه قبل أن يكذب عن غيره من يظن أن أسئلة الوجود الحائر الثلاثة لم تطرح عليه يوما في حياته سواء من قبل نفسه أو من قبل غيره تماما كما يكذب عن نفسه من يظن أنه ألغى تلك الاسئلة من إهتمامه كما يلغي الانسان وجود ذبابة يزعجه طينتها بهشة يد منه ولا أحيل ذلك سوى إلى الاسئلة المحرجة القارعة لافئدة الناس حين تطبق عليهم الضوائق من كل صوب وحدب وهو ماعبر عنه القرآن " جاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم قد أحيط بهم ". تلك الاسئلة لا تلغى من إهتمام الناس سوى لفترات فرح كاذب وبطر فاجر وهي قليلة في حياة الكافر أو حياة المسلم الذي لم يكسب يوما من إيمانه خيرا وأكثر من يتعرض لسعارها المكدودون نفسيا بسبب ألم ألم بهم غير أن الكبرياء أحيانا أو التجاهل أحيانا أخرى أو ربما الصبر الذي لا يعرف حدودا يحول دون إظهار التبرم أو تبادل الحديث في مثل ذلك مع الناس . لا يوجد في الدنيا إنسان لم يسأل نفسه يوما : من أين جئت ولم وإلى أين أمضي ؟. وهي الاسئلة الثلاثة التي لو طرحت فوجدت السبيل القويم لحسن الاجابة لحصل الانسجام بين الروح صاحبة تلك الاسئلة وربما العقل أحيانا لانهما من جنس غير متباعد كثيرا وبين الجسم والنفس . الايمان بالغيب وحده هو من يقدم الشفاء الكافي والبلسم الدافئ لحيرة لو ظلت تتردد على الانسان لهدت كيانه والسبب البسيط الواضح في ذلك هو كون تلك الاسئلة لا يملك الاجابة عليها سوى الغيب لانها من جنس الغيب وهو غيب لئن غاب مشهده المادي من مثل الجنة والنار وغير ذلك فإن آثاره المشهودة بحس العقل بارزة جلية واضحة وهو ما يرقي العقل ويحضره ويجعله عاملا في مجاله الخاص به ملبيا

لشهوته في خدمة حقله . ليس الايمان بالغيب وفق تلك الطريقة العقلية التي جاء القرآن ليؤكدها إيمانا بالخرافة والدجل ولكنه بلسم شاف ودواء كاف يزود العقل بالحياة تماما كما تزود الاطعمة البدن بالحياة وتتزود النفس بالخلق الكريم بالحياة . يكذب عن نفسه كذبا شائنا من يظن أنه لا يؤمن بالغيب ولو كان كافرا إبن كافر بل ملحدا إبن ملحد ذلك أنه لا بد له أن يؤمن بغيب ما ودين ما وعقيدة ما وشكل من أشكال الماورائية وذلك هو معنى أن الانسان لا يستغني عن الغيب والدين أبدا تماما كما لايستغني عن الماء والهواء للحياة وفصل الخطاب في ذلك هو أن يسأل الانسان نفسه إن كان الغيب الذي يؤمن به يلبي له إجابة تقنعه هو عقلا بأسئلة الوجود الحائر الثلاثة المعروفة أم لا . وعند ما يختلي بنفسه ويجيب عن ذلك بصدق وإخلاص وإهتمام وخاصة في مرضه وعجزه وضعفه وضيقه ـ مؤمنا كان أم كافرا ـ يدرك الانسان نفسه أي غيب وأي دين وأي عقيدة أصلح به لنفسه وعقله وبدنه وروحه وذوقه وعاطفته وسائر أبعاده .

قد يعترض قائل : الله حررنا كما زعمت من كل الطواغيت بما فيها الطغيان النفسي الداخلي فينا ولكن ليعيد إستعبادنا من جديد ؟. فالعقيدة إذن عبودية ولكن لمسعتبد جديد .

السؤال صحيح جدا ووجيه جدا ويبشر من طرحه بأنه أمسك بمفتاح فقه الحياة والوجود . تلك هي وظيفة العقيدة الاسلامية تحديدا : تحرير الانسان كل إنسان من كل طاغوت وأول الطواغيت تلك التي تربض فينا متسترة مستترة ثم إعادة تعبيد الانسان لرب جديد وإله جديد ومعبود جديد ومالك جديد . فما هي الحكمة ولم لا يبقى الانسان حرا حتى حيال الخالق والمالك والصانع وتلك هي الحرية الحقيقية المطلقة الكاملة الشاملة الصحيحة .

هذا يحيلنا إلى سؤال آخر مهم جدا يمكن عبره الاجابة على ذلك السؤال . السؤال هو : أيهما أسبق من لدن العقيدة حيال الانسان : التحرير أم التعبيد ؟

إطار الجواب هو أن الانسان مخلوق وليس خالقا ومملوك وليس مالكا ومصنوع وليس صانعا ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون عبدا لمعبود أي أن حريته كاملة شاملة دون أدنى قيد حتى من لدن من خلقه دون علم منه ولا مشورة وصنع له الاجابة الصحيحة على أسئلة الوجود الحائر الثلاثة المعروفة ... ليست حرية بل هي تضييع و أي تضييع من لدن المالك لمملوكه والصانع لمصنوعه وأظن أن ذلك أمر في منتهى

العقلانية إن كانت العقلانية عندنا تعني الاحتكام إلى العقل لا إلى الهوى يتلبس بها ثم نظهرها للناس على أنها عقلانية وليست هي سوى أمزجة وأهواء تصطرع وتحتدم .

المقارنة بين كون الانسان عبدا لمالكه الصحيح وبين كونه عبدا لمالكه المزيف جلية ناطقة بأن من تعبد لمالك مزيف مغتصب أجرم مرتين مرة في حق نفسه حين باعها لغير صاحبها ومرة حين أنكر حق مالكها الاصلي الصحيح وتصرف فيها بغير أمره ونهيه ولا يمكن الخروج من ذلك الاطار المرسوم سوى لكائن واحد فحسب . هل تدري من هو ؟ هو من يثبت أنه خلق نفسه وأحيا نفسه وأمات نفسه وأحاط علما بكل ما حوله وإستطاع أن يقول للناس عما وراء السماء التي نراها وما تحت الارض التي نقف عليها . هل يوجد ذلك الكائن ؟ طبعا لا .

العقيدة إذن حين تحرر الانسان من كل الطواغيت بما فيها نفسه فإنها تعيد إستعباده لمالك حقيقي وصانع حقيقي هو وحده جدير بمطلق العبادة والدينونة وذلك لامرين أولهما مقتضى قانون طبيعي مفاده أن الطبيعة تأبى الفراغ إذ ليس ثمة في الدنيا فراغ بل كل شئ فيها بميزان وقدر وذلك على معنى أن الانسان كغيره من سائر الكائنات المخلوقة وكل شئ طرا مطلقا مخلوق مملوك إما أن يكون عبدا لولي نعمته وصانعه وإما أن يكون عبدا ـ شعر بذلك أم تجاهله ـ لسيد آخر وليس ذلك السيد الامر المطاع سوى شهوته في الغالب وذلك على معنى أن شهوته تلك إما أن تكون قد إستبدت به حتى إستعبدته وحملته على ظلم الناس في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم وإما أن تكون قد جرته تحت وطأة الحاجة وكفر الفاقة ليستكين تحت ضربات الظلم حفظا لحياته كما يزعم حتى لو كان ذلك مكلفا على حساب حريته وكرامته وفي الامرين فإن الشهوة هي السيد الاله المطاع المعبود . فالانسان إذن لابد أن يكون تبعا لسنة التأبي عن الفراغ عابدا إما عبادة صحيحة لمن يستحقها أو عبادة خاطئة لمن لا يستحقها . والامر الثاني يتمثل في كون الانسان مفطور على العبادة والتدين والاعتقاد لا يملك سوى ذلك ولا يهم أن يكون ذلك ملبى بطريقة صحيحة تلبي أشواق الفطرة ونداءات الروح أم لا ولكن المهم أن الانسان لابد له أن يلتجئ إلى ضرب من العبادة تماما كما يلتجئ إلى الاكل والشرب والنوم عند الحاجة .

أيهما أسبق التحرير أم التعبيد ؟

إن السابر لغور القرآن والاسلام عامة لا يخفى عليه بأن المنهج العقدي الاسلامي يقدم التحرير على التعبيد بمعنى أن الاسلام يحرر الانسان كل إنسان من كل الطواغيت بما فيها نفسه ثم يعرض عليه عبادة الله سبحانه الاله الحق الجدير بالعبادة . ومن الادلة على ذلك أنه سمى التحرير هداية كما في قوله سبحانه في سورة الانسان " إنا هديناه السبيل إما شاكر وإما كفورا " وقوله " وهديناه النجدين " وفي مواضع أخرى كثيرة مماثلة بما يعني أن الهداية الاسلامية الاولى المهتمة بالتحرير هي الهداية التي تعمل على كشف سائر طرق الخير والشر للانسان وترغيبه في هذه وترهيبه من تلك بمختلف الحجج والبراهين العقلية كما مر بنا في ثنايا هذا البحث . سمى كل ذلك هداية رغم أنها هداية قد تقود الانسان إلى الكفر وذلك معناه أن الهداية الاسلامية الاولى تعمل على تحرير الانسان من كل الطواغيت بما فيها نفسه وهواه فإن قبل طريق الخير والعقيدة فإنه رضي بالعبودية لرب العزة سبحانه وعند ذلك يخضع للشريعة التي تعبده سلوكا وحياة في كل كبيرة وصغيرة .

يمكن لك أن تقول كذلك فيما يشبه الاعتراض على أسبقية التحرير على التعبيد بأن التعبيد هو بدوره يعمل على تحرير الانسان من كل الطواغيت بما فيها نفسه وهواه وذلك صحيح ولكنه صحيح إما بمعنى أن العقيدة عبادة وهذا نبغي تحاشيه الان مادمنا في بحث مقاصد العقيدة بالذات وليس مطلق العبادة والشريعة والاسلام وإما بمعنى أن التعبيد يحرر مطلقا وهذا أيضا صحيح ولكن العبادة تحرر من رضي الدخول من بوابة العقيدة بعد بوابة الهداية الاسلامية الاولى التي تعرضنا لها في الفقرة السابقة .

فالحاصل إذن هو أن الله ساق لنا العقيدة من أجل تحريرنا من كل الطواغيت بما فيها الرابضة داخل نفوسنا ـ وهي الاشد والاخطر والسبب المحدد في كل ما يليها من طغيان في الحقيقة ـ ثم بعد ذلك يخيرنا بين العبودية له وبين العبودية لغيره عبر البراهين التي مرت بنا في ثنايا هذا البحث .

ماهي الاهمية لذلك ؟

الاهمية هنا قصوى لان ذلك هو مخ المنهج القرآني العقدي الذي يعمل بداية على تحرير الانسان كل إنسان من كل إستعباد وزيف وسحر وكذب ودجل وطغيان حتى من داخل نفسه وذلك قبل أن يعرض عليه عبادة ربه سبحانه ولا شك أن من تحرر من كل ذلك لن يختار سوى الاله الحق وتلك هي معجزة ذلك المنهج العقدي القرآني . لا مجال هنا للاطالة والاسهاب ولكن الاهمية لذلك المبحث في نظري ذات فائدة قصوى ولابد من مزيد من الانتاج فيه .

حاجة الانسان إلى الحرية أكثر من حاجته للماء والهواء :

الانسان متعدد الابعاد التكوينية لجهازه وهذا معلوم كما هو معلوم بأن من تلك المكونات أمرين أساسيين كبيرين هما العقل والهوى وكلاهما يحتاج إلى الحرية حاجة البدن إلى الهواء والماء وذلك لان العقل يعمل في مجال المعقولات التي تتطلب مجالا حرا للتفكير بما فيه الفحص والغربلة والنقد والمقابلة والمقارنة ولو حجبت على العقل حرية التفكير مطلقا فإنه يموت تماما كما يموت البدن لو حجب عليه الهواء والماء . بعض الادعياء والمتطفلين فينا ومنا يخشون على العقل البشري من الحرية تماما كما يخشى من الداء على الجسم الحي وهذا منتهى الجهل ومبلغ الحمق وذلك متأت من كون أولئك لم يفقهوا حقيقة المنهج العقدي القرآني القائم على أولوية الحرية العقلية الانسانية أصلا أصيلا وركنا ركينا لا يستقيم حال الانسان بدون ذلك وهو متأت كذلك وفرعا عنه من أكذوبة مفادها أن الحرية تؤدي إلى الكفر وهي فرية مفتراة لو صدقها الناس لانهدم صرح الاسلام من أسه وسقفه .

مم يتحرر الانسان ؟ يتحرر الانسان من هواه وشهوته أولا أن تطغى لا أن تلبى في المباح والحلال دون نهب لحق الناس وذلك التحرير مهم جدا بل هو قاعدة التحرير الانساني كله لان كل إستعباد للانسان من خارج نفسه عن طريق الغصب أو الدجل والكذب إنما يتم عبر قابلية نفسه لذلك الاستعباد وفق ما توضح في فقرة سابقة من هذه الخاتمة . الانسان إذن يتحرر من طغيان هواه على عقله ثم يتحرر بالضرورة ولا شك بعد ذلك من كل إمكانيات الاستعباد من خارجه .

أمثلة صغيرة قصيرة في منهج المقارنة لمجرد الذكر :

١ ــ أقرت بعض حكومات أوروبية قانونا يبيح الزواج المثلي أي الذكر بالذكر والانثى بالانثى ووطأت له كل القوانين الجارية على كل زواج عادي بما فيه ذلك الاعتراف بالذرية أي ذرية السفاح التي يأتي بها هذا أو ذلك أو تلك أو هذه وهو أسوأ حالا من مجرد الشذوذ الجنسي لواطا أو سحاقا وهو كذلك أمر معترف به بل ومنظم . ومن تلك البرلمانات مثلا البرلمان الهولندي بناء على مؤتمرات سابقة في أواسط التسعينات في كل من القاهرة وبيكين .

٢ ــ أصل مشكلة جنون البقر التي كبدت الاقتصاد الاروبي وخاصة الانجليزي قبل سنوات قليلة جدا هو اللهث الكادح من لدن الفلاحين وشركاتهم ومضارباتهم الدولية لكسب معدلات ربح لا تدانى وذلك عبر إستخدام علف لتلك الابقار لا ينسجم مع فطرتها بغية تسمينها وذبحها وبيعها فكانت حصيلة الخسائر ملايين مملينة من الابقار .

٣ ــ مسألة الاستنساخ التي تهدد العنصر البشري اليوم والتي لم ير فيها كثير من الاغبياء فينا ومنا سوى تحديا لاقدار الرحمان سبحانه بينماهي لا تسير سوى في فلك إرادته لمن كان منا وفينا معتقدا حقا ومؤمنا حقا أما مجرد الادعاء فلا يغني في الحقيقة شيئا . تلك المسألة لو إستخدمت في المجال الانساني ثم تقدمت لكانت مقدمة لانهيار الكون والعبث بالانسان ولو إستخدمت في إطار البحوث الطبية إستجلابا لادوية لمشاكل طبية مستعصية لكان أجدى واليوم الناس مهددون بالخيار الاول .

٤ ــ نشأت في ألمانيا منذ سنوات قليلة جدا جمعية لاكلي اللحوم الادمية وباشرت أعمالها وأرتكتب كثيرا من الجرائم في هذا المضمار وقبض على بعض أفرادها ثم توالت عمليات الخطف خاصة لصغار السن من التلاميذ وربما تكون تلك الجمعية وراء ذلك العمل والحال أن معدل الرفاه في ألمانيا من أرفع المعدلات فليس الناس هناك في حالة فقر بل في رفاه كبير .

٥ ــ في كل أربعين ثانية وعلى مدى سنوات طويلة مضت ينتحر إنسان واحد في هذه الدنيا .

٦ ــ تفتك أمراض فقد المناعة الذاتية بملايين مملينة كل عام وأكبر المعدلات في ذلك في أفريقيا حيث ينتشر الفقر والمرض والجهل والحال أن حالة التبرج الجنسي والاثارة والاغراء والغواية وإنهيار قيمة الاسرة وموت الفضيلة والحياء بالكلية والكامل ليست في تلك المناطق بل هي في أروبا وخاصة ألمانيا وهولندا ولكن هؤلاء يعالجون المجون الجنسي الحيواني البهيمي عندهم عبر الادوية والواقيات وسائر المسالك التي تمنع إنتشار ذلك المرض في حين يهجم الافارقة الذين تمزقهم الحروب والمجاعات على بعضهم بعضا كما تفعل الحيوانات دون أدنى إحتياطات علمية فيقعون فريسة سائغة لتلك الامراض الفتاكة .

٧ ــ زنا الانسان بأمه وأخته في بلادنا الاسلامية فضلا عن خارجها أصبح مألوفا معروفا وسجل معدلات نامية رغم وجود إمكانية السفاح خارج ذلك الاطار بشكل لا يصدق .

٨ ــ ظهرت في أمريكا منذ سنوات قليلة جدا فرقة أقدمت على حرق أنفسهم بالنار بزعمهم أن يوم القيامة قد حل .

٩ ــ حل الكلب في ألمانيا مثلا بالفعل محل الابن في الاسرة التي لا تتكون سوى من المرأة أو الرجل يستوي في ذلك الكبار والصغار والذين يعزفون عن بناء الاسرة والاقدام على تحمل مسؤوليات الزواج وما يترتب عليه من أبناء كلما كانوا يجدون أين يلبون شهوتهم الجنسية وبما أن الفطرة البشرية تتطلب وجود صغير مؤنس محل رعاية ومداعبة فإن الكلب نتيجة لذلك هو الابن المدلل حقا وربما لا يعرف هذا على أكمل وجه للحقيقة سوى من عاش هنا ردحا من الزمن.

١٠ ــ إقرار بعض البرلمانات الاروبية ومنها هولندا قانون الموت الرحيم أو رصاصة الرحمة أي تعمد قتل المريض الذي تفيد التقارير الطبية بأن حالته ميؤوس منها

١١ ــ مرضت زوجة المستشار الالماني السابق هلموت كول مرضا يقتضي منها عدم الخروج لاشعة الشمس فأقدمت على الانتحار وفي اليوم الثاني طفقت أغلب وأكبر الجرائد الالمانية اليومية تشيد بشجاعة تلك المرأة التي وضعت حدا لحياتها وقدمتها للجمهور بطلة قومية

١٢ ــ ما فتئت منذ مدة كبيرة تحذيرات متتالية من كثير من السياسيين خاصة في فرنسا وألمانيا منهم الرئيس الالماني الحالي كوهلر فضلا عن المفكرين والباحثين من أجل توفير حل مناسب لكارثة الانقراض الحاد في الجنس الاروبي بسبب تلاشي مؤسسة الاسرة والعزوف عن الانجاب.

١٣ ــ ظهور نوع من السيارات " سمارت " مخصصة لراكبين فحسب إغراء للحياة ضمن عشيقين لا صلة لهما بأسرة ولا بأبناء وكذلك توسع ظاهرة التصميم العمراني الخادمة لذات التوجه الاناني الشرس .

ليس ذلك سوى غيض من فيض لا ينقضي ولا تنقضي عجائبه ولن تعدم له عنوانا أنسب من وصف القرآن الكريم لذلك المنهج في الحياة " كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث". ولك أن تذكر ما لايحصى من الامثلة الاخرى التي تؤكد جميعها على مدى تخريب الانسان الاروبي لحياته وعبثه بنفسه وضياع بوصلة وجوده ووقوعه في أسر الانانية الوحشية الكاسرة وليس ذلك سوى نتيجة طبيعية لمنهج حياة إستبعد العقيدة الاسلامية فعدا على الفطرة وبغى على النواميس الكونية . هل يشفع له تقدمه المادي وقيام إدارته على ضرب من الاحترام للانسان رغم النزعة المركزية المغالية ؟ لئن شفع ذلك فلاجل مسمى سيما في كنف غياب المنافس الحضاري الكفء .

تذكير برسالة البحث :

حسن تحمل العقيدة الاسلامية يتطلب بالضرورة حسن فهمها السابق لتنزيلها وهو فهم لابد له من النفاذ إلى مقاصدها والتحلي بمكارمها والتجمل بمحاسنها من أجل تأهيلها لتوجيه الحياة ولا بد لكل باحث في كيفيات حسن تحمل تلك العقيدة من سبر غور منهجها الذي قامت عليه عرضا ونقدا وبرهنة ولا ينبئك ذلك المنهج سوى بأن الانسان مستأمن من لدن خالقه على العقيدة وصيا عليها مستخلفا عليها حاضنا لها وهو مستودعها ومستقرها فهو في الحياة سبب وسنة لا يحتج بالقدر ويعلق عليه هزائمه بل يغالب قدرا بقدر .

لا مجال هنا للقياس بمراحل تاريخية سابقة من مثل ما سمي بالفتنة الكبرى أو سقوط بغداد على يد التتار وذلك لكون الامة القوية حقيقة بالفعل وليس مجرد قوة مفترضة أو معنوية لا تنال منها النكبات بمثل ما تنال منها يوم ضعفها تماما كحال بدن داهمه المرض فإن الحال يختلف بإختلاف قوة وحضور دفاعاته الداخلية .

كلمة البحث الاخيرة : نهضة الامة مرهونة بمدى حسن فقه منهجها العقدي تأهلا لحسن تنزيله وبث ماء حياته مجددا في الكيان شبه الميت رغم قوة المقاومة في بعض المواضع .

نحو منهج أصولي مقاصدي ثابت متجدد :

من دواعيه إنقطاع الاهتمام بالبحث المقاصدي عامة والموضوعي خاصة إلا قليلا لا يسمن ولا يغني من جوع في وجه تغيرات وتطورات وتبدلات وتحولات سريعة عظيمة الاثر في سائر الميادين الانسانية . بل ساءت الحالة عند ظهور تيارات واسعة لئن إختلفت وجهتها فإن النتيجة واحدة : تيارات لائكية علمانية تتمسح بالمنطق المقاصدي لهدم الاسلام عقيدة وشريعة وتيارات مغالية جدا تتوخي التبسيط والاختزال في قضايا عامة كبيرة وخطيرة تتطلب إجتهادا جماعيا متأنيا . ومن دواعية كذلك تبدل التحديات الكبرى أمام الامة التي لم يعد لها من كيان جامع سوى كلمة أمة بعد عاصفة وبيلة من التجزئة والتمزق . ومن دواعيه أيضا محاولة إنتاج نسق أصولي مقاصدي على غرار النسق الاصولي الفقهي مدعوما بثوابت قطعية من القواعد الاصولية المقاصدية الثابتة وبمساحة أخرى تسمح بالاجتهاد ضمن وافدات الحوادث . ومن دواعية كذلك وربما من وسائل بنائه أيضا الاهتمام بالجانب التطبيقي

النبوي أولا والراشدي ثانيا وهي المحاولة التي بدأها الامام الشاطبي ولم يولد من بعده من يكملها وذلك من مثل فقه مقامات التشريع ومن مثل قراءة السنة عامة والسيرة خاصة ضمن إجتهاد مقاصدي مناسب لحوادث معاصرة ولابد لكل تلك الاعمال من بسط أولوية الدعوة الاسلامية المعاصرة معلما ثابتا على أساسه تنجز تلك الدراسات النظرية والتطبيقية وغني عن الذكر بأن توظيف معطيات العلوم الانسانية بأسرها كلما كانت قطعية أو شبه قطعية من مكملات ومتممات ذلك المنهج الاصولي المقاصدي فإذا ما آل ذلك العمل بعد سنوات إلى خروجه ضمن إنتاج فقهي جديد يجمع بين فقه النص وفقه المقصد وفقه الواقع في علوم التفسير وبين فقه الاحكام وفقه القلوب وفقه المقاصد بمقامات مشرعها ومآلاتها في علوم الفقه فإن كفلا كبيرا من شروط النهضة المرقوبة قد أنجز .

كلمة أخيرة

بمثل ما بدأت به عملي هذا أختمه سائلا ولي النعمة سبحانه أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يلهمني الحكمة وفصل الخطاب وأن يرزقني الحلم والعلم وحسن الفقه وأن يجعل من قلمي نهرا جاريا طيبا .

رسالة البحث جديرة من لدن الفقهاء العاملين الخلص في أمتنا وهم كثر بالاهتمام والتقديم .

ربما لا تتجاوز محاولتي هذه كونها صرخة مقل بضاعته مزجاة وحسبها أن تكون كذلك .

يسعدني أيما سعادة أن أتلقى ملاحظات كثيرة متنوعة في إثرها فإن كانت من أهلها وفي محلها إنتفعت بها وعلى أساسها أعدل سيري وإن كانت غير ذلك أتحت لاصحابها فرصة التعلم شاكرا لهم إهتمامهم .

السلام عليكم جميعا ورحمة الله تعالى وبركاته .